http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٦

ثم قال للرسول : ارْجِعْ إِلَيْهِمْ إلى بلقيس وقومها ، وقل لهم : فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ : لا طاقة لَهُمْ بِها. وحقيقة القبل : المقابلة والمقاومة ، أي : لا يقدرون أن يقابلوهم ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أي : من سبأ أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ : أسارى مهانون. فالذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار : أن يبقوا فى أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا ، وقصّ عليها القصة ، قالت : هو نبى ، ومالنا به طاقة. ثم تجهزت للقائه ، على ما يأتى إن شاء اللّه.

الإشارة : إذا توجه المريد إلى مولاه ، توجهت إليه نفسه بأجنادها ، وهى الدنيا ، والجاه ، والرئاسة ، والحظوظ ، والشهوات ، فتمده أولا بمال وجاه ، تختبره ، فإن علت همته ، وقويت عزيمته ، أعرض عن ذلك وأنكره ، وقال :

أتمدوننى بمال حقير ، وجاه صغير ، فما آتاني اللّه من معرفته والغنى به خير مما آتاكم. ثم يقول للوارد بذلك : ارجع إليهم – أي : للنفس وجنودها – فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها – أي : قرية القلب – أذلة وهم صاغرون. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر إتيان عرشها قبل إتيانها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٣٨ الى ٤٤]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٧

ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان ، جعلت عرشها فى آخر سبعة أبيات ، وغلّقت الأبواب ، وجعلت عليه حراسا يحفظونه ، وبعثت إلى سليمان : إنى قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه ، وشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قيل «١» ، تحت كل قيل ألوف ، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان ، قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه اللّه تعالى به ، من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة اللّه تعالى ، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو : أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام ، فلا يحل له ، والأول أليق بمنصب النبوة ، أو : أراد أن يختبرها فى عقلها ، بتغييره ، هل تعرفه أو تنكره.

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ، وهو المارد الخبيث ، واسمه «ذكوان» ، أو : «صخر» : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ أي : من مجلسك إلى الحكومة ، وكان يجلس إلى تسع النهار ، وقيل : إلى نصفه. وَإِنِّي عَلَيْهِ على حمله لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ، آتى به على ما هو عليه ، لا أغيّر منه شيئا ولا أبدله ، فقال سليمان عليه السّلام ، أريد أعجل من هذا ، قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ. قيل هو : آصف بن برخيا – وزير سليمان عليه السّلام ، كان عنده اسم اللّه الأعظم ، الذي إذا سئل به أجاب. قيل هو : يا حيّ يا قيوم ، أو : يا ذا الجلال والإكرام ، أو : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلها واحدا ، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الاسم ، إنما الشأن أن يكون عين الاسم ، أي : عين مسمى الاسم ، حتى يكون أمره بأمر اللّه. وقيل : هو الخضر ، أو : جبريل ، أو : ملك بيده كتاب المقادير ، أرسله تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر «٢». قال : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ أي : ترسل طرفك إلى شيء ، فقبل أن ترده تبصر العرش بين يديك.

روى : أن آصف قال لسليمان : مدّ عينيك حتى ينتهى طرفك ، فمدّ عينيه ، فنظر نحو اليمن ، فدعا آصف ، فغار العرش فى مكانه ، ثم نبع عند مجلس سليمان ، بقدرة اللّه تعالى ، قبل أن يرجع إليه طرفه. فَلَمَّا رَآهُ أي :

العرش مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ثابتا لديه غير مضطرب ، قالَ هذا أي : حصول مرادى ، وهو حضور العرش فى مدة قليلة ، مِنْ فَضْلِ رَبِّي علىّ ، وإحسانه إلىّ ، بلا استحقاق منى ، بل هو فضل خال من العوض ، لِيَبْلُوَنِي : ليختبرنى أَأَشْكُرُ نعمه أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأنه يقيد به محصولها ، ويستجلب به مفقودها ، ويحط عن ذمته عناء الواجب ، ويتخلص من وصمة الكفران. وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ أي : ومن كفر بترك الشكر ، فإن ربى غنى عن شكره ، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه. وفى الخبر : «من شكر النعم فقد قيّدها بعقالها ، ومن لم يشكر فقد تعرض لزوالها».

(١) القيل : الملك من ملوك اليمن فى الجاهلية ، دون الملك الأعظم. وجمعه : أقيال وقيول. انظر اللسان (٥/ ٣٧٩٨ ، مادة قيل).

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبري (١٩/ ١٦٢ – ١٦٣) وتفسير البغوي (٦/ ١٦٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٨

وقال الواسطي : ما كان منّا من الشكر فهو لنا ، وما كان منه من النعمة فهو إلينا ، وله المنة والفضل علينا. هـ.

قالَ سليمان عليه السّلام لأصحابه : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها أي : غيّروا هيئته بوجه من الوجوه ، نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي لمعرفته ، أو : للجواب الصواب إذا سئلت عنه ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

فَلَمَّا جاءَتْ بلقيس سليمان عليه السّلام ، وقد كان العرش بين يديه ، قِيلَ من جهة سليمان ، أو بواسطة :

أَهكَذا عَرْشُكِ؟ ولم يقل : أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا ، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها ، وقد قيل لسليمان – لما أراد تزوجها – : إن فى عقلها شيئا ، فاختبرها بذلك. قالَتْ – لما رأته – : كَأَنَّهُ هُوَ فأجابت أحسن جواب ، فلم تقل : هو هو ، ولا : ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها ، حيث لم تقل : هو هو ، مع علمها بحقيقة الحال ، ولما شبّهوا عليها بقولهم : أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها : كَأَنَّهُ هُوَ مع أنها علمت بعرشها حقيقة ، تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ، ومراعاة لحسن الأدب فى محاورته عليه السّلام.

ولو قالوا : أهذا عرشك؟ لقالت : هو.

ثم قالت : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بقدرة اللّه تعالى ، وبصحة نبوتك مِنْ قَبْلِها من قبل هذا الأمر ، أي : من قبل هذه المعجزة التي شاهدنا الآن ، من أمر الهدهد ، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ منقادين لك من ذلك الوقت ، وكأنها ظنت أنه أراد عليه السّلام اختبار عقلها ، وإظهار المعجزة ، لتؤمن به ، فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ باللّه تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ موحدين ، أو : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بإسلامها ومجيئها طائعة مِنْ قَبْلِها مجيئها ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ موحّدين.

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، هو من كلام سليمان ، أي : وصدها عن العلم بما علمناه – أو :

عن التقدم إلى الإسلام – عبادة الشمس وإقامتها بين ظهرانىّ الكفرة ، أو : من كلام تعالى ، بيانا لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن ، أي : صدّها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس ، إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ أي : كانت من قوم راسخين فى الكفر ، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها ، وهى بين ظهرانيهم ، حتى دخلت تحت ملكة سليمان عليه السّلام ، أو : وصدها اللّه تعالى ، أو : سليمان ، عما كانت تعبد من دون اللّه ، فحذف الجار وأوصل الفعل.

لَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ

أي : القصر ، أو : صحن الدار ، لَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

: ماء عظيما ، كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها

. روى أن سليمان عليه السّلام أمر قبل قدومها ، فبنى له على طريقها قصر من زجاج

(١٩٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٩

أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه السمك وغيره ، ووضع سريره فى صدره ، فجلس عليه ، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظاما لأمره ، وتحقيقا لنبوته. وقيل : إن الجن كرهوا أن يتزوجها ، فتفضى إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنّية. وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد ، فيجتمع له فطنة الجن والإنس ، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك أشدّ منه ، فقالوا له : إن فى عقلها شيئا ، وهى شعراء الساقين ، ورجلها كحافر الحمار ، فاحتبر عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقيها ورجلها «١» فكشفت عنهما ، فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما ، إلا أنها شعراء ، وصرف بصره. ثم الَ

لها : نَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ

مملس مستو. ومنه :

الأمرد ، للذى لا شعر فى وجهه ، نْ قَوارِيرَ

من الزجاج ، وأراد سليمان تزوجها ، فكره شعرها ، فعملت له الشياطين النورة ، فنكحها سليمان ، وأحبها ، وأقرها على ملكها ، وكان يزورها فى الشهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له ، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السّلام ، فسبحان من لا انقضاء لملكه.

روى أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. هـ.

ثم ذكر إسلامها ، فقال : الَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

بعبادة الشمس ، أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ

تابعة له ، مقتدية به ، لَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

. وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل ، ووصفه بربوبيته للعالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى ، وتفرده باستحقاق العبادة ، وربوبيته لجميع الموجودين ، التي من جملتها : ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا ، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها ، فقد أجلس نفسه على عرشها ، وصيّرها مالكة له ، متصرفة فيه بما تحب ، ومن أبغض الدنيا وزهد فى أهلها ، فقد هدم لها عرشها ، وصارت خادمة مملوكة له ، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى اللّه – وهو من أهّله اللّه للتربية – للمريدين :

أيكم يأتينى بعرشها ، ويخرج عنها للّه فى أول بدايته؟ فمنهم من يأتى بها بعد مدة ، ومنهم من يأتى بها أسرع من طرفة ، على قدر القوة والعزم والصدق فى الطلب ، ومن أتى بعرش نفسه ، وخرج عنها للّه ، فهو الذي آتاه اللّه علما

---

(١) الواضح أن سليمان ، عليه السّلام أراد ببناء الصرح : أن يريها عظمة ملكه وسلطانه ، وأن اللّه أعطاه من الملك ما لم يعطها ، فضلا عن النبوة ، التي هى فوق الملك ، وحاشا لسليمان – وهو الذي سأل اللّه أن يعطيه حكما ، يوافق حكمه ، فأوتيه ، أن يحتال لينظر إلى ساقيها ، وهى أجنبية. وما نقل من روايات إنما هو من الإسرائيليات المكذوبة ، لا يصح القول بها.

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : (٣/ ٣٦٦) معقبا على رواية لابن أبى شيبة ، فى هذا الشأن :

والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم – كروايات كعب ووهب – سامحهما اللّه تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة ، من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد ، والغرائب ، والعجائب ، مما كان ، ومما لم يكن ، ومما حرّف ، وبدل ، ونسخ ، وقد أغنانا اللّه سبحانه عن ذلك ، بما هو أصح منه وأنفع وأوضح ، وللّه الحمد والمنة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٠

من الكتاب ، وعرف مدلوله ومقصوده ، لكن من السياسة أن يتدرج المريد فى تركها شيئا فشيئا ، حتى يخرج عنها ، أو يغيب عن شغلها بالكلية ، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم للّه ، وتوجهوا إليه ، ورأى ذلك منهم ، قال : هذا من فضل ربى ، حيث وقعت الهداية على يدى ، ليبلونى ، أشكر أم أكفر .. الآية. قال نكّروا لها عرشها ، أي :

اعرضوا عليها الدنيا ، وأروها عرشها التي كانت عليه ، متغيرا عن حاله الأولى – لأنه كان معشوقا لها ، والآن صار ممقوتا لغناها باللّه – ننظر أتهتدي إليه ، وترجع إلى محبته ، فيكون علامة على عدم وصولها ، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا ، فتكون قد تمكنت من الأنس باللّه ، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا ، قيل : أهكذا عرشك؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم باللّه من قبل هذه الساعة ، وكنا منقادين لمراده ، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه للّه أبدا. وصدّها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى ، من دون محبة اللّه ، إنها كانت من قوم كافرين ، منكرين للحضرة ، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها : ادخلى دار الحضرة ، فلما رأت بحر الوحدة ، يتموج بتيار الصفات ، دهشت ، وحسبته لجة ، يغرق صاحبه فى بحر الزندقة ، قال لها رئيس البحرية – وهو شيخ التربية : إنه بحر منزه متصل ، لا أول له ، ولا آخر له. ليس مثله شيء ، ولا معه شيء ، محيط بكل شيء ، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها ، مشغولة بهواها ، قبل أن تعرف هواه ، فلما عرفته غابت عن غيره ، واستسلمت وانقادت له. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

قلت : (و لقد أرسلنا) : عطف على (و لقد آتينا داود ...) إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ نسبا صالِحاً ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ أي : بأن اعبدوه وحده ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ أي : ففاجئوا التفرق والاختصام ، ففريق مؤمن به ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠١

وفريق كافر ، أو : يختصمون فيه ، فكل فريق يقول : الحق معى. وقد فسر هذا الاختصام قوله تعالى فى الأعراف :

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «١». قالَ عليه السّلام للفريق الكافر ، بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد ، حتى استعجلوا العذاب : يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ بالعقوبة السيئة قَبْلَ الْحَسَنَةِ أي : التوبة الصالحة ، فتؤخرونها إلى حين نزولها ،

حيث كانوا – من جهلهم وغوايتهم يقولون : إن وقع العذاب تبنا حينئذ ، وإلا فنحن على ما كنا عليه. أو : لم تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة ، أو : بالمعصية قبل الطاعة ، لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ : هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بالإجابة قبل النزول ، إذ لا قبول بعده ، قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ تشاءمنا بك وَبِمَنْ مَعَكَ من المؤمنين لأنهم قحطوا عند مبعثه لكفرهم ، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل : تطيرنا. وقرئ به ، فأدغمت التاء فى الطاء ، وزيدت ألف وصل ، للسكون. قالَ صالح عليه السّلام : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي : سببكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند اللّه ، وهو قدره وقضاؤه ، أو : عملكم مكتوب عند اللّه ، فمنه نزل بكم ما نزل ، عقوبة لكم وفتنة. ومنه : وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ «٢» أي : ألزمناه جزاء عمله ، أو : ما قدر له فى عنقه ، وأصله : أن المسافر كان إذا مرّ بطائر يزجره ، فإن مر إلى جهة اليمين تيمن ، وإن مر إلى ناحية الشمال تشاءم ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر اللّه وقسمته ، أو : من عمل العبد الذي هو السبب فى الرحمة والنقمة ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ : تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، أو : تعذبون ، أو : يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال – عليه الصلاة والسلام – : «لا عدوى ولا طيرة» «٣» وقال أيضا : «إذا تطيرت فلا ترجع» «٤». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : سير أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم ، إذا بعثهم اللّه إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم ، ففريق يصدق وفريق يكذب ، فيطلبون الكرامة والبرهان ، ويتطيرون بهم وبمن تبعهم ، إن ظهرت بهم قهرية من عند اللّه ، كما رأينا ذلك كله. وباللّه التوفيق.

---

(١) الآيتان : ٧٥ – ٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٣ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري فى (الطب ، باب الطيرة ، ح ٥٧٥٣) ومسلم فى (السلام ، باب الطيرة والفأل ٤/ ١٧٤٧ ، ح ٢٢٢٥) من حديث عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.

(٤) قال ابن حجر فى الفتح (١٠/ ٢٢٤) : أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، فإذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وهذا مرسل أو معضل ، لكن له شاهد من حديث أبى هريرة ، أخرجه البيهقي فى الشعب. هـ.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٢

ثم ذكر اهتمامهم بقتل صالح وهلاكهم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٨ الى ٥٣]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢)

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

يقول الحق جل جلاله : وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ مدينة ثمود ، وهى الحجر ، تِسْعَةُ رَهْطٍ أي : أشخاص ، وهو جمع لا واحد له ، فلذا جاز تمييز التسعة به ، فكأنه قيل : تسعة أنفس ، وهو من الثلاثة إلى العشرة ، وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم ، يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أي : فى المدينة ، إفسادا لا يخالطه شىء من الصلاح أصلا ، وَلا يُصْلِحُونَ يعنى : إن شأنهم الإفساد المحض ، الذي لا صلاح معه. وعن الحسن : يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء : يتبعون معايب الناس ، ولا يسترون عوراتهم. قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ : استئناف لبيان بعض فسادهم. و(تقاسموا) : إما أمر مقول لقالوا ، أي : تحالفوا أمر بعضهم بعضا بالقسم على قتله. وإما خبر حال ، أي : قالوا متقاسمين. لَنُبَيِّتَنَّهُ : لنقتلنه بياتا ، أي : ليلا ، وَأَهْلَهُ : ولده ونساءه ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ أي : لولىّ دمه : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ أي : ما حضرنا هلاكهم ، أو : وقت هلاكهم. أو : مكانه فضلا أن نتولى إهلاكهم ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول ، أو : حال ، أي : نقول ما نقول والحال أنا صادقون فى ذلك لأن الشاهد للشىء غير المباشر له عرفا. ولأنا ما شهدنا مهلك أهله وحده ، بل مهلكه ومهلككم جميعا ، كقولك : ما رأيت ثمّ رجلا ، أي : بل رجلين. ولعل تحرجهم من الكذب فى الأيمان مع كفرهم لما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب فى القسامة ، كما كان أهل الشرك مع البيت الحرام فى الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب ، وبعد قوله : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «١».

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة هود. [.....]

قال تعالى : وَمَكَرُوا مَكْراً بهذه المواضع ، وَمَكَرْنا مَكْراً أهلكناهم إهلاكا غير معهود ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي : من حيث لا يحتسبون ، فمكرهم : هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السّلام وأهله.

ومكر اللّه : إهلاكهم من حيث لا يشعرون. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أي : فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسره بقوله : أَنَّا دَمَّرْناهُمْ : أهلكناهم بالصيحة وَقَوْمَهُمْ الذين لم يكونوا معهم فى التبييت أَجْمَعِينَ. روى أنه كان لصالح مسجد فى شعب يصلّى فيه. فقالوا : زعم صالح يفرغ منا إلى ثلاث ، وقد رأى علامة ذلك ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب ، وقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث اللّه تعالى صخرة من الهضب التي حيالهم «١» ، فبادروا ، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب ، فلم يدر قومهم أين هم ، ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذّب اللّه كلّا فى مكانه ونجى صالحا ومن معه.

وقال ابن عباس : أرسل اللّه الملائكة ليلا ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة إلى دار صالح ، شاهرين السيوف ، فقتلتهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة ، ولا يرون راميا «٢» .. هـ. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة ، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.

قال تعالى : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً ساقطة متهدمة ، من : خوى النجم : إذا سقط. أو : خالية من السكان ، بِما ظَلَمُوا بسبب ظلمهم. إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من التدمير العجيب لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قدرتنا ، فيتعظون.

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : صالحا ومن معه من المؤمنين ، وَكانُوا يَتَّقُونَ الكفر والمعاصي ، اتقاء مستمرا ، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل : لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث ، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمّص أحمر ، ثم اصفر من الغد ، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقأت ، وصاح جبريل فى خلال ذلك ، فخمدوا ، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف ، خرج بهم صالح إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وكان فى مدينة القلب تسع علل ، يفسدون فيها ولا يصلحون ، وهى حب الدنيا ، وحب الرئاسة ، والحسد. والكبر ، والحقد ، والعجب ، والرياء ، والمداهنة ، والبخل ، هم أفسدوا قلوب الناس ، وتقاسموا على هلاكها ، ومكروا بهم حتى زيّنوا لهم سوء عملهم ، ومكر اللّه بهم ، فدفعهم ودمّرهم عن قلوب الصالحين ، فتلك بيوتهم خاوية منها ، أخرجهم منها ، بسبب ظلمهم لها.

---

(١) حياله : إزاءه.

(٢) انظر تفسير البغوي (٦/ ١٧٠).

وقال القشيري على قوله : وَمَكَرُوا مَكْراً ... الآية : مكر اللّه : جزاؤهم على مكرهم ، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة ، ثم إحلالها بهم بغتة. هـ. وقال الورتجبي : حقيقة المكر : امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليفة ، فإذا كان كذلك من ينجو من مكره ، والحدث لا يطلع على سوابق علمه فى القدم ، فمكره وقهره صفتان من صفاته ، لا تفارقان ذاته ، وذاته أبدية ، انظر تمامه. قلت : ومعنى كلامه : أن مكر اللّه فى الجملة : هو إخفاء السر الأزلى – وهو القضاء والقدر – عن مطالعة الخلق ، فلا يدرى أحد ما سبق له فى العلم القديم ، وإذا كان كذلك فلا ينجوا أحد من مكره إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم ، إلا من اطلع عليه بوحي ، كالأنبياء ، أو بنص صريح منهم ، كالمبشرين بالجنة ، ومع ذلك : العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية ، ولذلك قيل : العارف لا يسكن إلى اللّه. قاله فى لطائف المنن ، أىّ : لا يسكن إلى وعد اللّه ولا وعيده ، فلا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره.

وقال القشيري – على قوله : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً .. ، فى الخبر : «لو كان الظلم بيتا فى الجنة لسلط اللّه عليه الخراب». هـ. قلت : فكل من اشتغل بظلم العباد ، فعن قريب ترى دياره بلاقع «١» ، كما هو مجرب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة لوط – عليه السّلام – فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٨]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

قلت : (و لوطا) : عطف على (صالحا) داخل معه فى القسم ، أي : ولقد أرسلنا صالحا ولوطا. و(إذ قال) : ظرف للإرسال ، أو : منصوب باذكر ، و(إذ قال) : بدل من (لوط).

---

(١) البلقع : الأرض القفر ، التي لا شيء فيها ، والخالي من البرية. انظر اللسان (١/ ٣٤٨ ، مادة : بلقع).

يقول الحق جل جلاله : وَلقد أرسلنا لُوطاً ، أو : واذكر لوطا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أي : وقت قوله لهم : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : الفعلة المتناهية فى الفحش والسماجة ، وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أي : والحالة أنكم تعلمون علما يقينيا أنها فاحشة ، لم تسبقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار ، فإنّ تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع ، ولذلك ورد فى الخبر : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه» «١». وقال الفخر :

لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم ، وحين صدورها منه هو جاهل لأنه رجح المرجوح ، وترجيح المرجوح جهل ، ولذلك قال : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. هـ. وفى الحديث : «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن» «٢». إذ لو صدّق باطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى ، لكنه جهل ذلك. وتُبْصِرُونَ ، من : بصر القلب. وقيل : يبصر بعضكم بعضا لأنهم كانوا يرتكبونها فى ناديهم ، معلنين بها ، لا يستتر بعضهم من بعض ، مجانة وانهماكا فى المعصية ، أو : تبصرون آثار العصاة قبلكم ، وما نزل بهم.

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً أي : للشهوة مِنْ دُونِ النِّساءِ أي : إن اللّه تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ، ولم يخلق الذكر للذكر ، ولا الأنثى للأنثى ، فهى مضادة للّه تعالى فى حكمته ، فلذلك كانت أشنع المعاصي ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ تفعلون فعل الجاهلين بقبحها ، أو : تجهلون العاقبة. أو : بمعنى السفاهة والمجون ، أي : بل أنتم سفهاء ماجنون. والتاء فيه – مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب. وكذا قوله : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ «٣» ، غلّب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة : «بل» : للانتقال ، والانتقال فى باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه ، وتقرير الأشدّية هنا : أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية ، وهى منقطعة تنقضى بانقضاء ذلك الفعل ، والثاني راجع للقوة العلمية ، وهى دائمة لأن العلم بالشيء دائم ، والعمل به منقطع غير دائم. هـ.

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى اللّه ، إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ أي : لوطا ومتبعيه مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ يتنزهون عن أفعالنا ، أو : عن القاذورات ، ويعدون فعلنا قذرا. وعن ابن عباس : إنه استهزاء ، كقوله : إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٤».

---

(١) رواه الطبراني فى المعجم الصغير (١/ ١٨٢ – ١٨٣) والبيهقي فى الشعب (ح ٧٧٧٨) ، من حديث أبى هريرة – رضي اللّه عنه. والحديث ضعّفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب النّهبى بغير إذن صاحبها ، ح ٢٤٧٥) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ١/ ٧٦ ح ١٠٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٤٧ من سورة النمل.

(٤) الآية ٨٧ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٦

فَأَنْجَيْناهُ : فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم ، وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها بالتشديد والتخفيف ، أي : قدرنا أنها مِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب. وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً غير معهود حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها ، فَساءَ : قبح مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم ، والانهماك فى غفلتهم ، فرجعت إلى معصية القلوب ، وهى أشد من معصية الجوارح لأن معصية الجوارح إذا صحبتها التوبة والانكسار ، عادت طاعة ، بخلاف معصية القلوب فإنها تنطمس بها أنوار الغيوب ، فلا يزيد صاحبها إلا البعد والطرد ، والعياذ باللّه.

ثم أمر رسوله محمدا صلى اللّه عليه وسلم بالتحميد ، ثم بالسلام على عباده المرسلين توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته تعالى ، وقدرته على كل شىء ، وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال ، بأن يبتدئ فى خطبته بحمد اللّه ، والثناء على رسله ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على ما أنعم به عليك من فنون النعم ، ومن جملتها : اطلاعك على أسرار علم غيوبه ، وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، اصطفاهم بصحبته – عليه الصلاة والسلام – وقال الكلبي : هم أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، اصطفاهم اللّه لمعرفته وطاعته. ثم قل لهم إلزاما للحجة : آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ «١» أي : آللّه الذي ذكرت شئونه العظيمة خير ، أم ما تشركونه معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع الترديد إلى التعرض بتبكيت الكفرة ، وتسفيه آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم إذ من البيّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : «بل اللّه خير ، وأبقى ، وأجلّ ، وأكرم» «٢».

---

(١) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، ويعقوب : «يشركون» بالياء. وقرأ الباقون : «تشركون» بالخطاب ...

انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر : كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣/ ٣٧٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٧

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع ، الدالة على انفراده بالخيرية ، فقال : أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، «أم» هنا : منقطعة ، بخلاف أَمَّا يُشْرِكُونَ أي : بل أمّن خلق العالم العلوي والسفلى ، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات ، خير ، أم جماد لا يقدر على شى ء؟ فمن : مبتدأ ، وخبرها : محذوف مع «أم» المعادلة للهمزة ، كما قررنا.

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً. مطرا فَأَنْبَتْنا ، التفت من الغيبة إلى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل به تعالى ، وإيذانا بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان ، والطعوم والأشكال ، مع بهجتها ، بماء واحد ، لا يقدر عليه غيره ، أي : فأخرجنا بِهِ حَدائِقَ : بساتين ، فالحديقة : بستان عليه حائط ، من : الإحداق ، وهو الإحاطة ، ذاتَ بَهْجَةٍ أي : ذات حسن ورونق ، تبتهج به النظار ، ولم يقل : ذوات لأن المعنى : جماعة حدائق ، كما تقول : النساء ذهبت. ما كانَ لَكُمْ ما صح وما أمكن لكم أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها فضلا عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ؟ أي : أإله كائن مع اللّه ، الذي ذكرت أفعاله ، التي لا يقدر عليها غيره ، حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة؟ أو : أإله مع اللّه يفعل ذلك؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ :

بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية ، والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور ، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم ، أو : يعدلون به غيره فيشركونه معه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قل الحمد للّه ، الذي كشف الحجب عن قلوب أوليائه ، وسلام على عباده الذين اصطفاهم لحضرته ، آللّه خير ، أي : أشهود اللّه وحده فى الوجود خير ، أم شهود الغير معه؟ ، فتشركون فى توحيدكم. أمن خلق سموات أرواحكم ، وهيأها لشهود الربوبية ، وخلق أرض نفوسكم ، وهيأها لآداب العبودية ، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأنبتنا به فى قلوب العارفين بساتين المعرفة ، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم ، وفى طوقكم ، أن تنبتوا فى قلوبكم شجر المعرفة ، ولا ثمار المحبة ، أإله مع اللّه يمنّ عليكم بذلك؟ ، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية لأنها محفوفة بالمكاره النفسية ، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان ، أهل الهمم العلية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر من دلائل توحيده ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١)

(٤/٢٠٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٨

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً أي : قارة ثابتة ، ليستقر عليها الإنسان والدواب ، بإظهار بعضها من الماء ، ودحوها وتسويتها ، حسبما يدور عليه منافعهم. وَجَعَلَ خِلالَها أواسطها أَنْهاراً جارية ينتفعون بها ، وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، تمنعها أن تميد بأهلها ، ولتتكون فيها المعادن ، وينبع من حضيضها المنابع. وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ أي : العذب والمالح ، أو : خليجى فارس والروم حاجِزاً برزخا مانعا من المعارجة والمخالطة ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ فى الوجود ، أو : فى إبداع هذه البدائع؟

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شيئا من الأشياء ، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة : أم من جعل أرض النفوس قرارا ، لتستقر عليها أحكام العبودية ، وتتصرف فيها أقدار الربوبية ، وجعل خلالها أنهارا من علوم الشرائع ، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحكم والأحكام ، وجعل لها جبالا من العقل لتعرف صانعها ومدبرها ، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزا وبرزخا ، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحيا ميّز بين الحقيقة والشريعة ، فيلزمه التكليف ، ويعطى كل ذى حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تشرق على نور قمر العقل شمس العرفان ، فتغطيه مع وجود صحوه ، فيميز بين الحقائق والشرائع ، وتكون عباداته أدبا وشكرا.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٢]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٦٢)

قلت : الاضطرار : الافتعال من الضرورة ، وهى الحاجة المحوجة إلى اللجأ ، يقال : اضطره إلى كذا ، واسم الفاعل والمفعول : مضطر ، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان ، ألجأته إلى الدعاء والتضرع ، كمرض ، أو فقر ، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه ، أو : المذنب إذا استغفر مبتهلا ، أو :

المظلوم إذا دعا ، أو : من رفع يديه ، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد ، وهو منه على خطر ، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مقيدة بالحديث : «الدّاعى على ثلاث مراتب ، إما أن يعجل له ما طلب ، وإما أن

(٢٠٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٩

يدخر له أفضل منه ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله» «١». وأيضا : إذا حصل الاضطرار الحقيقي حصلت الإجابة قطعا ، إما بعين المطلوب ، أو بما هو أتم منه ، وهو الرضا والتأييد. وَيَكْشِفُ السُّوءَ وهو الذي يعترى الإنسان مما يسوؤه ، كضرر أو جور ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أي : خلفاء فيها ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، بالسكنى وغيره ، وراثة عمن كان قبلكم من الأمم ، قرنا بعد قرن. أو : أراد بالخلافة : الملك والتسلط. أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ الذي يفيض على الخلق هذه النعم الجسام ، يمكن أن يعطيكم مثلها؟ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «٢» أي : تذكرا قليلا ، أو :

زمانا قليلا تتذكرون فيه. و«ما» : مزيدة ، لتأكيد معنى القلة ، التي أريد بها العدم ، أو : ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى. وتذييل الكلام بنفي عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركوز فى ذهن كل ذكى ، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاضطرار الحقيقي الذي لا تتخلف الإجابة عنه فى الغالب : هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق فى البحر وحده ، لا يرى لغياثه غير سيده. وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون اللّه. وقال سهل بن عبد اللّه : هو الذي رفع يديه إلى اللّه تعالى داعيا ، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها. هـ. بل يقدم إساءته بين يديه ، ليكون دعاؤه بلا شيء يستحق عليه الإجابة ، إلا من محض الكرم.

قال القشيري : يقال للجناية : سراية ، فمن كان فى الجناية مختارا ، فليس يسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جرمه الذي سلف ، وهو فى فى ذلك مختار ، فأكثر الناس أنهم مضطرون ، وذلك

الاضطرار سراية ما برز منهم فى حال اختيارهم ، ومادام العبد يتوهم من نفسه شيئا من الحول والحيل ، ويرى لنفسه شيئا من الأسباب يعتمد عليه ، ويستند إليه ، فليس بمضطر ، إلا أن يرى نفسه كالغريق فى البحر ، والضّالّ فى المتاهة. والمضطر يرى غياثه بيد سيّده ، وزمامه فى قبضته ، كالميت فى يد غاسله

، ولا يرى لنفسه استحقاقا فى أن يجاب ، بل اعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه فى ديوان السعادة ، ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحد فى أن يدعو له لأن اللّه وعد الإجابة له لا من يدعو له. هـ. وبحث معه المحشى الفاسى فى بعض ألفاظه ، فانظره.

قوله تعالى : وَيَكْشِفُ السُّوءَ. أي : ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه ، من أكدار وأغيار ، وقوله : (و يجعلكم خلفاء الأرض) أي : تتصرفون فى الوجود بأسره ، بهمتكم ، إن زال غم الحجاب عنكم ، وشاهدتم ربكم بعين

---

(١) جاء بلفظ : «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه اللّه بها إحدى ثلاث إما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ..» الحديث ، أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٨) والحاكم (١/ ٤٩٣) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبزار (كشف الأستار ، ح ٣١٤٣ ، ٣١٤٤) من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي «تذكرون» بتخفيف الذال. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

بصيرتكم وبصركم لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر ، بعد فتح البصيرة ، غطى نوره ، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة اللّه فى أرضه ، يملكه الوجود بأسره ، وما ذلك على اللّه بعزيز.

ثم ذكر نوعا آخر من دلائل توحيده ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٣]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ليلا ، وبعلامات فى الأرض نهارا؟.

أو : أمّن يهديكم إلى سلوك الطريق التي توصلكم إلى مقصدكم ، وأنتم فى ظلمات الليل ، سواء كنتم فى البر أو البحر؟ فلا هادى إلى ذلك إلا اللّه تعالى. وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ ، أو بالإفراد. نَشْراً «١» بالنون – أي : تنشر السحاب إلى الموضع الذي أمر اللّه بإنزال المطر فيه ، أو بُشْراً – بالباء – أي : مبشرة بالمطر ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قدّام المطر ، علامة عليه ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك؟ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار بعلّية الحكم ، أي : تعالى اللّه وتنزّه بذاته المنفردة

بالألوهية ، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته ، عن وجود ما يشركونه به تعالى.
الإشارة : أمّن يهديكم إلى حل ما أشكل عليكم ، وأظلمت منه قلوبكم ، من علم بر الشرائع. وبحر الحقائق ، فيهديكم فى الأول إلى كشف الحق والصواب ، وفى الثاني إلى كشف الغطاء ورفع الحجاب ، أو : فى الأول إلى علم البيان ، وفى الثاني إلى عين العيان بالذوق والوجدان. أو : فى الأول إلى علم اليقين ، وفى الثاني إلى عين اليقين وحق اليقين. ومن يرسل رياح الواردات الإلهية ، بشارة بين يدى رحمته بالوصول إلى حضرته ، وهو التوحيد الخاص. ولذلك ختمه بقوله : تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ من رؤية وجود السّوى.

---

(١) قرأ عاصم «الرياح» بالجمع و«بشرا» بالباء المضمومة مع إسكان الشين ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، بالجمع ، و«نشرا» بضم النون والشين. وقرأ ابن كثير بإفراد الريح ، وضم النون والشين من «نشرا». راجع الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

ثم ذكر نوعا آخر ، فقال :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٤ الى ٦٥]
أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٦٤) قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)
قلت : «من» إما فاعل بيعلم ، و«الغيب» : بدل منه ، و«اللّه» : مفعول ، و«إلا اللّه» : بدل ، على لغة تميم ، أي : إبدال المنقطع ، وإما مفعول بيعلم ، و«الغيب» بدل منه و(اللّه) : فاعل ، والاستثناء : مفرغ.
يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ أي : ينشىء الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم : ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم منكرون للإعادة لأنهم أزيحت شبهتهم بالتمكن من المعرفة ، والإقرار ، فلم يبق لهم عذر فى الإنكار. وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بالمطر وَالْأَرْضِ أي : ومن الأرض بالنبات ، أي : يرزقكم بأسباب سماوية وأرضية ، قد رتبها على ترتيب بديع ، تقضيه الحكمة التي عليها بنى أمر التكوين ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل بذلك؟ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ أي : حجتكم ، عقلية أو نقلية ، على إشراككم ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أن مع اللّه إلها آخر.
قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالألوهية ، ببيان

اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة ، عقّب بذكر ما هو من لوازمه ، وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة – رضى اللّه عنها – : (من زعم أنّه يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على اللّه الفرية ، واللّه تعالى يقول : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ.

دخل على الحجاج منجّم ، فأخذ الحجاج حصيات ، قد عدّها ، فقال للمنجّم : كم فى يدى؟ فحسب ، فأصاب ، ثم اغتفله الحجاج ، فأخذ حصيات لم يعدها ، فقال للمنجم : كم فى يدى؟ فحسب ، فأخطأ ، فقال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها فى يدك ، فقال : ما الفرق بينهما؟ فقال : إن ذلك أحصيته فخرج من حد الغيب ، فحسبت فأصبت ، وإن هذا لم تعرف عدته ، فصار غيبا ، ولا يعلم الغيب إلا اللّه تعالى.

ومن جملة الغيب : قيام الساعة ، ولذلك قال : وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أي : متى ينتشرون من القبور ، مع كونه مما لا بد لهم منه ، ومن أهم الأمور عندهم. واللّه تعالى أعلم.

(٢١١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٢

الإشارة : الرزق ثلاثة : رزق الأشباح ، ورزق القلوب ، ورزق الأرواح ، فرزق الأشباح معلوم ، ورزق القلوب :

اليقين والطمأنينة ، ورزق الأرواح : المشاهدة والمكالمة. قل من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه ، ولا برهان على وجود ما سواه ، ولا يعلم الغيب إلا اللّه. أو : من كان وجوده باللّه قد غاب فى نور اللّه ، فشهد الغيب باللّه. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا نفى عنهم علم الغيب ، والشعور بمآلهم ، أضرب عنه ، وبيّن أن ما تناهى فيه أسباب العلم به ، وهو مجيء القيامة ، لم يحصل لهم به يقين ، فضلا عن غيره ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (٦٦) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

قلت : قرأ الجمهور : «ادّارك» بالمد ، وأصله : تدارك ، فأدغمت التاء فى الدال ، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر : «ادّرك» ، وأصله : افتعل ، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «أدرك» أفعل.

يقول الحق جل جلاله : بَلِ ادَّارَكَ أي : تدارك وتناهى وتتابع أسباب عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أي :

بالآخرة ، أو : فى شأنها ، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية ، والحجج العقلية ، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها ، والمعنى : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم ، ومكّنوا من معرفته ، بما تتابع لهم من الدلائل. ومع ذلك لم يحصل لهم شيء من علمها ، بل شكّوا. أو : أدرك علمهم ، بمعنى : يدركهم فى الآخرة حين يرون الأمر عيانا ، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. بَلْ هُمْ اليوم فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ لا يبصرون دلائلها ، ولا يلتفتون إلى العمل لها.

والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم ، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها ، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى ، وجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه ، فلذا عداه ب «من» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التفكر والتدبر.

ووجه اتصال مضمون هذه الآية – وهو وصف المشركين – بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله ، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب ، وأن العباد لا علم لهم بشيء بذلك : هو أنه لما ذكر أن

العباد لا يعلمون الغيب ، وكان هذا بيانا لعجزهم ، ووصفا لقصور علمهم ، وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه – وهو وقت بعثهم ، ومجازاتهم على أعمالهم : لا يكون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه ، لا محالة. هـ. قاله النسفي.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ أي : أنخرج من القبور أحياء إذا صرنا ترابا وآباؤنا. وتكرير الاستفهام فى «أئذا» و«أإنا» فى قراءة عاصم ، وحمزة وخلف ، إنكار بعد انكار ، وجحود بعد جحود ، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل فى (إذا) : ما دلّ عليه لَمُخْرَجُونَ وهو : نخرج ، لا مخرجون ، لموانع كثيرة. والضمير فى «أإنا» لهم ولآبائهم.

لَقَدْ وُعِدْنا هذا البعث نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ من قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، قدّم هنا «هذا» على «نحن» وفى المؤمنون «١» قدّم «نحن» ليدل هنا أن المقصود بالذكر هو البعث وثمّ المبعوث لأن هنا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيرا ، فاعتنى به ، بخلاف «ثم». ثم قالوا : إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ : ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا ، ورب الكعبة.

الإشارة : العلم بالآخرة يقوى بقوة العلم باللّه ، فكلما قوى اليقين فى جانب اللّه قوى اليقين فى جانب

ما وعد اللّه به من الأمور الغيبية ، فأهل العلم باللّه الحقيقي أمور الآخرة عندهم نصب أعينهم ، واقعة فى نظرهم لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضي اللّهعنه حين قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما حقيقة إيمانك؟» فقال : يا رسول اللّه عزفت الدنيا من قلبى ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها. ثم قال : وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وأهل النار يتعاوون فيها ، فقال له صلى اللّه عليه وسلم : «قد عرفت فالزم ، عبد نوّر اللّه قلبه». اللهم نوّر قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة ، حتى نلقاك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

ثم أمرهم بالاعتبار بمن قبلهم ، فقال :

قُلْ سِيرُوا ...

---

(١) فى قوله تعالى ، حكاية لقول الذين لا يؤمنون بالآخرة : لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ .. الآية ٨٣.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٤

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ بسبب تكذيبهم للرسل – عليهم السلام – فيما دعوهم إليه من الإيمان باللّه – عز وجل – وحده ، واليوم الآخر ، الذي ينكرونه ، فإن فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى البصائر. وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين ، لطف بالمسلمين ، بترك الجرائم ، وحث لهم على الفرار منها ، كقوله : فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ «١» ومِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا «٢».

ثم قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أي : لأجل أنهم لم يتبعوك ، ولم يسلموا فيسلموا. وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ فى حرج صدر مِمَّا يَمْكُرُونَ من مكرهم وكيدهم ، أي : فإن اللّه يعصمك من الناس. يقال : ضاق ضيقا – بالفتح والكسر.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣)

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : وعد العذاب التي تعدنا ، إن كنت من الصادقين فى إخبارك بإتيانه على من كذّب. والجملة باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك. قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ أي : تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب ، فقيل لهم : عسى أن يكون ردف ، أي : قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر ، واللام زائدة للتأكيد. أو : ضمّن الفعل معنى يتعدّى باللام ، نحو : دنا لكم ، أو : أزف لكم. وعسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر ، وجدّه ، وعلى ذلك جرى وعد اللّه ، ووعيده.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ أي : إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه : تأخير العقوبة عن هؤلاء ، بعد استعجالهم لها ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ أي : أكثرهم لا يعرفون حق النعمة ، ولا يشكرونها ، فيستعجلون بجهلهم وقوع العذاب ، كدأب هؤلاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار ، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجلّ ما يتفكر فيه الإنسان : ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان ، من تجرع كأس الحمام ، قبل النزوع والإقلاع عن الإجرام ، فندموا حيث لم ينفع الندم ، وقد زلّت بهم القدم ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم ، لئلا يجرى عليه ما جرى عليهم ، وليبادر بالتوبة إلى ربه ، وليشديده على أوقات عمره ، قبل أن تنقضى فى البطالة والتقصير ، فيمضى عمره سبهللا. وللّه در القائل :

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الشمس. [.....]

(٢) من الآية ٢٥ من سورة نوح.

السّباق السّباق قولا وفعلا حذّر النّفس حسرة المسبوق

قال أبو على الدقاق رضي اللّه عنه : رؤى بعضهم مجتهدا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أولى منى بالجهد ، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو للعارف ، إذا رأى إدبار الناس عن اللّه ، وإقبالهم على الهوى :

وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. الآية.

ثم ذكر سعة علمه وحلمه ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٧٤) وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٧٥)

قول الحق جل جلاله : وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ أي : تخفى صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ أي : يظهرون من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه ، ولكن له وقت مقدر ، فيمهلهم إليه. أو : إن ربك ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوتك ومكايدهم لك ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه ، وقرئ بفتح [التاء] «١» ، من : كننت الشيء : سترته.

وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ أي : من خافية فيهما إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ فى اللوح المحفوظ. يسمى الشيء الذي يخفى ويغيب غائبة وخافية. والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية. ونظائرهما ، وهى أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين ، وتاؤهما للمبالغة ، كالرواية. كأنه قال : وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه اللّه ، وأحاط به ، وأثبته فى اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك : تعجيل عقوبتهم ، ولكن لكل شيء أجل معلوم ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم. ولو لا ذلك لعجّل لهم ما استعجلوه.

والمبين : الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة. أو :

مبين لما فيه من تفاصيل المقدورات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية حث على مراقبة العبد لمولاه ، فى سره وعلانيته ، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير ، ولا يجول بقلبه فيما يستحيى أن يظهره لغيره ، إلا أن يكون خاطرا مارا ، لا ثبات له ، فلا قدرة للعبد على دفعه. وباللّه التوفيق.

---

(١) فى الأصول [الكاف]. قلت : قرأ الجمهور (ما تكن) بضم التاء من : أكن الشيء : أخفاه. وقرأ ابن محيصن وحميد : بفتح التاء وضم الكاف ، من : كن الشيء : ستره. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٤) والبحر المحيط (٧/ ٩٠).

ثم مدح كتابه المشتمل على جلّ العلوم الغيبية ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧٦ الى ٨١]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠)

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ يبين لهم أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين الذي اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه : المسيح ، وتحزّبوا فيه أحزابا ، وركبوا متن العند والغلو فى الإفراط والتفريط ، ووقع بينهم المناكرة فى أشياء ، حتى لعن بعضهم بعضا. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ، لو أنصفوا وأخذوا به ، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى ، وإن كانت الآية خاصة باليهود. وَإِنَّهُ – أي : القرآن لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ على الإطلاق ، فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولا أوليا.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ أي : بين بنى إسرائيل ، أو : بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بِحُكْمِهِ أي : بعدله لأنه لا يحكم إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكما. أو : بحكمته ، ويدل عليه قراءة من قرأ «بحكمه» : جمع :

حكمة «١» لأن أحكامه تعالى كلها حكم بديعة. وَهُوَ الْعَزِيزُ ، فلا يردّ حكمه وقضاؤه ، الْعَلِيمُ بجميع الأشياء ، ومن جملتها : من يقضى له ومن يقضى عليه. أو : العزيز فى انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بين المختلفين.

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شئونه – عز وجل – فإنها موجبة للتوكل عليه ، داعية إلى الأمر به ، أي : فتوكل على اللّه الذي هذا شأنه. وهذه أوصافه ، فإنه موجب لكل أحد أن يتوكل عليه ، ويفوض جميع أموره إليه. أو : فتوكل على اللّه ولا تبالي بأعداء الدين. إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق الأبلج ، وهو الدين الواضح الذي لا يتطرقه شك ولا ريب.

---

(١) وهى قراءة جناح بن حبيش ، كما ذكر صاحب البحر المحيط (٧/ ٩١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٧

وفيه تنبيه على أن صاحب الحق حقيق بالوثوق باللّه فى نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن ، بنفي ما رموه من كونه أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعد الرامين له بحكمه عليهم بما يستحقونه ، ثم أمره بالتوكل عليه فى كفايته أمرهم ومكرهم.

ثم بيّن سبب طعنهم فى القرآن ، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك لكونهم موتى صما ، لا حياة لهم ولا سمع استبصار ، قال تعالى : إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ، شبّهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ أي : الدعوة إلى أمر من الأمور إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ عنك.

وتقييد النفي بالإدبار لتكميل التنبيه وتأكيد النفي ، فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي ، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء ، مع كون الداعي بمقابلة صماخه ، قريبا منه ، فكيف إذا كان خلفه بعيدا منه؟.

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ هداية موصلة إلى المطلوب ، كما فى قوله تعالى : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ «١» فإن الاهتداء منوط بالبصر فى الحس ، وبالبصيرة فى المعنى. ومن فقد هما لا يتصور منه اهتداء ، و«عن» متعلق بهادي باعتبار تضمنه معنى الصرف ، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية.

إِنْ تُسْمِعُ أي : ما تسمع سماعا يجدى السامع وينفعه إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا أي : من علم اللّه أنهم يؤمنون بآياته. فَهُمْ مُسْلِمُونَ مخلصون ، من قوله : بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ «٢» أي : جعله سالما للّه خالصا. جعلنا اللّه ممن أسلم بكليته إليه. آمين.

الإشارة : إذا وقع الاختلاف فى الأحكام الظاهرة ، وهى ما يتعلق بالجوارح الظاهرة ، رجع فيه إلى الكتاب العزيز ، أو السنّة المحمدية ، أو الإجماع ، أو القياس ، وإن وقع الاختلاف فى الأمور القلبية ، وهى ما يتعلق بالعقائد التوحيدية ، من طريق الأذواق أو العلوم ، يرجع فيه إلى أرباب القلوب الصافية ، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع عروق الشكوك والأوهام ، والوساوس من القلوب المسوسة ، إلا بالرجوع إليهم وصحبتهم ، ومن جمع بين الظاهر والباطن ، رجع إليه فى الأمرين معا.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه كان يناظر جماعة من المعتزلة ، ليردهم إلى الحق ، فدخل عليه رجل من القراء ، يقال له : أبو مروان ، فسلّم عليه ، فقال له الشيخ : اقرأ علينا آية من كتاب اللّه ، فأجرى اللّه على

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٢) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٨

لسانه ، من غير قصد ، قوله تعالى : فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إلى قوله : وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ فتهلل وجه الشيخ ، وقال : ما بعد بيان اللّه من بيان ، فتابوا واهتدوا إلى الحق ، ورجعوا عن مذهبهم ، وشفا اللّه قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين باللّه ،

جعلهم اللّه شفاء من كل داء ، لكن الأعمى والأصم لا يبصر الداعي ، ولا يسمع المنادى. ولذلك قال تعالى : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى .. إلخ : قال الورتجبي : الميت : من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل ، والأصم : من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر ، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته. هـ.

ثم ذكر بعض مقدمات الساعة ، التي كانوا يستعجلونها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٢]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أي : وقع مصداق القول الناطق بمجيء الساعة ، بأن قرب إتيانها ، وظهرت أشراطها ، فأراد بالوقوع : دنوه واقترابه ، كقوله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ ... «١» روى أن ذلك حين ينقطع الخير ، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، ولا يبقى منيب ولا تائب. و«وقع» : عبارة عن الثبوت واللزوم ، وهذا بمنزلة : حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ «٢» أي : وإذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلى ، وأراد أن ينفذ فى الكافرين سابق علمه لهم من العذاب ، أخرج لهم دابة من الأرض. وفى الحديث : «إن الدابة ، وطلوع الشمس من المغرب ، من أول الأشراط» «٣».

فلا ينبغى لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم ، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها ، التي لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن ، مع ظهور مقدماتها ، فضلا عنها. فإذا وقع الوعد وسمت الدابة من لم يؤمن بسمة الكفر ، وكان ذلك طبعا وختما ، فلا يقبل منه إيمان ، ويقال له : أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيبا ، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عينا.

---

(١) الآية الأولى من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج مسلم فى (الفتن ، باب خروج الدجال ، ٤/ ٢٢٦٠ ، ح ٢٩٤١) عن عبد اللّه بن عمرو ، قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن أول الآيات خروجا : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٩

وهذا معنى قوله : أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ، وهى الجساسة ، طولها ستون ذراعا ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، لها أربع قوائم ، وزغب ، وريش ، وجناحان «١». وقيل : لها رأس ثور ، وعين

خنزير ، وأذن فيل ، وقرن أيّل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هرّة ، وذنب كبش ، وخف بعير ، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا ، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربية ، فتقول : أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ أي : بخروجي لأن خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة اللّه على الظالمين.

وفى حديث حذيفة رضي اللّه عنه : «تأتى الدابة المؤمن ، فتسلم عليه ، وتأتى الكافر فتخطه – أي تسمه – فى وجهه».

وعن أبى هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «تخرج الدّابة معها خاتم سليمان ، وعصا موسى ، فتجلوا وجه المؤمن ، وتختم أنف الكافر بالخاتم ، حتّى أنّ أهل الحواء «٢» مجتمعون ، فيقول : هاها يا مؤمن ، ويقول : هاها يا كافر» «٣».

وهى بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وإذا وقع القول على قوم بإسدال الحجاب ، وإدامة غلق الباب ، أخرج لهم جاهل باللّه ، يكلمهم بادعاء التربية ، فيأخذون عنه ، ويقتدون به. قال فى المباحث :

واعلم بأن عصبة الجهال بهائم فى صور الرجال

فالجاهل باللّه دابة فى الأرض : أنّ الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا – وهم العلماء باللّه ، أهل الشهود والعيان – لا يوقنون بوجودهم ، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد اللّه تعب عبد ، وإبقاءه فى غم الحجاب ، ألقاه إلى شيخ جاهل باللّه ، أو : إلى ميت يتخذه شيخا ، ويفنى فى محبته ، فلا يرجى فلاحه فى طريق الخصوصية ، مادام مقيدا به ، فإن تركه واقتدى بالعارف الحي ، فقد هيأه لرفع الحجاب. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قيام الساعة ، بعد ذكر بعض أشراطها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٦]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩١) للثعلبى ، من حديث حذيفة.

(٢) الحواء : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، والجمع : أحوية. انظر اللسان (٢/ ١٠٦٣ ، مادة : حوا).

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥) والترمذي وحسنه فى (التفسير ، سورة النمل ، ٥/ ٣١٨ ، ح ٣١٨٧) بلفظ [الخوان] بدل [الحواء]. وأخرجه ابن ماجة فى (الفتن ، باب دابة الأرض ٢/ ١٣٥١ ح ٤٠٦٦). من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٠

قلت : «ماذا» تأتى على أوجه أحدها : أن تكون «ما» : استفهاما ، و«ذا» : إشارة ، نحو : ماذا التواني.

الثاني : أن تكون «ما» : استفهاما ، و«ذا» : موصولة ، كقول لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول؟ أنحب فيقضى ، أم ضلال وباطل؟

الثالث : «ماذا» كله : استفهام على التركيب ، كقولك : لما ذا جئت؟. الرابع : أن تكون «ماذا» كله : اسم جنس بمعنى شيء ، أو : بمعنى «الذي» كقوله : دعنى ماذا علمت؟ ، وتكون «ذا» زائدة. انظر القاموس.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ، الفوج : الجماعة الكثيرة.

و«من» : للتبعيض ، أي : واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا ، «من» : لبيان الفوج ، أي : فوجا مكذبين بآياتنا ، المنزلة على أنبيائنا ، فَهُمْ يُوزَعُونَ : يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا ، حين يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد ، وتباعد أطرافهم ، والمراد بهذا الحشر : الحشر للعذاب ، والتوبيخ والمناقشة ، بعد الحشر الكلى ، الشامل لكافة الخلق. وعن ابن عباس : (المراد بهذا الفوج : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة ، يساقون بين يدى أهل مكة) وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

حَتَّى إِذا جاؤُ إلى موقف السؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، قالَ أي : اللّه عز وجل ، موبخا لهم على التكذيب : أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي المنزلة على رسلى ، الناطقة بلقاء يومكم ، وَالحال أنكم لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أي : أكذبتم بها فى بادئ الرأى ، من غير فكر ، ولا نظر ، يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتما. وهذا نص فى أن المراد بالآيات فى الموضعين هى الآيات القرآنية. وقيل : هو عطف على «كذبتم» ، أي : أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟ حيث لم تتفكروا فيها ، فإنكم لم تخلقوا عبثا. أو : أىّ شيء كنتم تعملون ، استفهام ، على معنى استبعاد الحجج ، أي : إن كانت لكم حجة وعمل فهاتوا ذلك. وخطابهم بهذا تبكيت لهم. ثم يكبون فى النار ، وذلك قوله تعالى : وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أي : حلّ بهم العذاب ، الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله ، بِما ظَلَمُوا : بسبب ظلمهم ، الذي هو تكذيبهم بآيات

اللّه فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية ، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم ، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث ، وما ينشأ بعد ذلك ، بقوله : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، الرؤية هنا قلبية ، أي : ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار.

وَالنَّهارَ مُبْصِراً أي : يبصروا ، بما فيه من الإضاءة ، طرق التقلب فى أمور المعاش. وبولغ فيه ، حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس ، حالا له ، ووصفا من أوصافه ، بحيث لا ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لأن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير النهار فى الإبصار. قاله أبو السعود .. قلت : وقد جعله كذلك فى قوله :

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً «١» فانظره.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ كثيرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يصدّقون ، فيعتبرون ، فإنّ من تأمل فى تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما على وجوه بديعة ، مبنية على حكم رائقة ، تحار فى فهمها العقول ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل ، المحاكية للموت ، بضياء النهار ، المضاهي للحياة ، وعاين فى نفسه غلبة النوم ، الذي هو يضاهى الموت ، وانتباهه منه ، الذي هو يضاهى البعث ، قضى بأن الساعة آتيه لا ريب فيها ، وأن اللّه يبعث من فى القبور.

قال لقمان لابنه : يا بنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم ، فكما أنك تنام قهرا كذلك تموت ، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه ، فكما أنك تنتبه بعد نومك كذلك تبعث بعد موتك هـ. وباللّه التوفيق.

الإشارة : يوم نحشر من كل أمة فوجا ينكر على أهل الخصوصية ، ممن يكذب بآياتنا ، وهم العارفون بنا ، الدالون علينا ، المعرّفون بنا ، فهم يوزعون : يجمعون للعتاب ، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم ، قال : أكذّبتم بأوليائى ، الدالين على حضرتى ، بعد التطهير والتهذيب ، ولم تحيطوا بهم علما ، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه ، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب ، فهم لا ينطقون ، ولا يجدون اعتذارا يقبل منهم.

ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه ، ويبعثون على ما ماتوا عليه ، فهلّا صحبوا أهل اليقين الكبير ، – وهو عين اليقين أو حق اليقين ، المستفاد من شهود الذات الأقدس – فيكتسبوا منهم اليقين ، حتى يموتوا على اليقين ويبعثوا على اليقين. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل».

ثم ذكر النفخ فى الصور ، وما يكون بعده من الأهوال ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٨٧ الى ٩٠]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل – عليه السّلام – عن أبى هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «لما فرغ اللّه تعالى من خلق السموات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرش ، حتى يؤمر ، قال : قلت : كيف هو؟ قال :

عظيم ، والذي نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض» وفى حديث آخر : «فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ، فيؤمر بالنفخ فيه ، فينفخ نفخة ، لا يبقى عندها فى الحياة أحد ، غير من شاء اللّه تعالى وذلك قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ «١» ، ثم يؤمر بأخرى ، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث». وفى رواية : «فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح ، كأنها النحل ، فتملأ ما بين السماء والأرض ، وتأتى كل روح إلى جسدها ، كما تأتى النحل إلى وكرها. وذلك قوله تعالى : ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «٢».

قال أبو السعود : والذي يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ هاهنا : النفخة الثانية ، وفى الفزع فى قوله تعالى :

فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ما يعترى الكل عند البعث والنشور ، بمشاهدة الأمور الهائلة ، الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق ، من الرعب والتهيب ، الضروريين ، الجبلين فى كل نفس. وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه. هـ. وظاهره أن النفخ مرتان فقط ، واعتمده القرطبي وغيره ، وصحح ابن عطية أنها ثلاث ، وروى ذلك عن أبى هريرة : نفخة الفزع وهى فزع حياة الدنيا ، وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور.

---

(١) ، (٢) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

وقوله : إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ أي : ألا يفزع ، وهو من ثبّت اللّه قلبه ، فإن قلنا : المراد بها النفخة الثانية ، فالمستثنى : هم من سبقت لهم الحسنى ، بدليل قوله : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «١» وإن قلنا : هى نفخة الصعق ، فالمستثنى : قيل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل : الحور وحملة العرش ، وإن قلنا : المراد نفخة الفزع فى الدنيا ، فالمستثنى : أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى : وَكُلٌّ أَتَوْهُ «٢» بصيغة الماضي ، أي : وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه فى موقف الحساب ، بين يدى اللّه جل جلاله ، والسؤال والجواب. أو : وكل حاضروه ، على قراءة اسم الفاعل ، وأصله :

آتيوه ، حال كونهم داخِرِينَ : صاغرين أذلاء.

وَتَرَى الْجِبالَ حال الدنيا تَحْسَبُها جامِدَةً واقفة ممسّكة عن الحركة ، من : جمد فى مكانه : إذا لم يبرح. وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ أي : مرا مثل مر السحاب ، التي تسيرها الرياح ، سيرا حثيثا ، والمعنى : أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد لعظمها ، وهى تسير سيرا سريعا ، كالسحاب إذا ضربته الرياح ، وهكذا الأجرام العظام ، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك : الشمس لعظم جرمها وبعدها لا تتبين حركتها ، مع كونها أسرع من الريح.

والذي فى حديث أبى هريرة : أنّ تسيير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق. ونص الحديث – بعد كلام تقدم : «فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض ، إلا من شاء اللّه ، فيأمره فيمدها – أي : النفخة – ويطيلها ، فيسير اللّه الجبال ، فتمر مر السحاب ، فتكون سرابا ، وترتج الأرض بأهلها رجا ، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج ، وتقلبها الرياح ، وهو قوله : يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ «٣» الآية ، فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين ، هاربة من الفزع ، حتى تأتى الأقطار هاربة ، فتلقاها الملائكة تضرب وجهها وأدبارها ، فترجع ، ويولى الناس مدبرين ، ينادى بعضهم بعضا ، وهو قوله : يَوْمَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ .. الآية «٤» فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض ، من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما ، لم يروا مثله. ثم قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك».

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول اللّه فمن استثنى اللّه من الفزع؟ قال : «أولئك الشهداء».

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، وخلف : «أتوه» بقصر الهمزة ، وفتح التاء ، فعلا ماضيا ، وقرأ الباقون بالمد وضم التاء «آتوه» اسم فاعل ، مضافا للضمير .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٥).

(٣) الآية السادسة من سورة النازعات.

(٤) من الآية ٣٣ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٤

قلت : ومثلهم الأنبياء والأولياء إذ هم أعظم منهم ، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام : «وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم اللّه فزع ذلك اليوم ، وهو عذاب يبعثه اللّه على شرار خلقه». وهو قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ إلى قوله : وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

«١» فيمكثون طويلا ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق من فى السموات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء اللّه ، فإذا اجتمعوا فى البرزخ ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : قد مات أهل السموات والأرض ، إلا من شئت ، فيقول اللّه تعالى ، وهو أعلم : من بقي؟ فيقول : بقيت أنت الحي القيوم ، الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وبقيت أنا ، فيقول تعالى : فليمت جبريل وميكائيل ، فينطق اللّه العرش ، فيقول : أىّ رب يموت جبريل ، وميكائيل! فيقول : اسكت ، إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى ، فيموتان. ثم يأتى ملك الموت الجبار ، فيقول : أي رب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول – وهو أعلم : من بقي؟ بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي إسرافيل ، وبقيت أنا. فيقول : ليمت حملة العرش ، فيموتون ، فيأمر اللّه العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يقول : ليمت إسرافيل ، فيموت ، ثم يأتى ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول ، وهو أعلم : من بقي؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت. فإذا لم يبق إلا اللّه الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، فكان آخرا ، كما كان أولا ، طوى السماء طى السجل للكتاب ، فيقول : أنا الجبار ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فلا يجيبه أحد ، ثم يقول تعالى : لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ثم تبدل الأرض غير الأرض ، والسموات يبسطها بسطا ، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

ثم قال : ثم ينزل ماء من تحت العرش ، كمنى الرجل ، ثم يأمر اللّه السحاب أن تمطر أربعين يوما ، حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعا ، ويأمر اللّه تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، كما كانت ، قال اللّه تعالى : ليحيى حملة العرش ، فيحيون ، ثم يقول اللّه تعالى : ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فيحيون ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل ، فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم

يدعو اللّه تعالى الأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح ، كأنها النحل ، وقد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول تعالى : لترجعن كل روح إلى جسدها ، فتدخل الأرواح الخياشيم ، ثم تمشى فى الأجساد ، مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعا ، فأنا أول من

---

(١) الآيتان : ١ - ٢ من سورة الحج

تنشق عنه ، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ، عراة ، حفاة ، غرلا ، مهطعين إلى الداعي ، فيقول الكافر : هذا يوم عسير. نقله الثعلبي «١».

ثم قال تعالى : صُنْعَ اللَّهِ ، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أي : صنع اللّه ذلك صنعا ، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور ، وما ترتب عليه جميعا. قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل ، وتهويل أمرها ، والإيذان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم ، وإفساد أحوال الكائنات ، من غير أن تدعو إليه داعية ، بل هى من بدائع صنع اللّه تعالى ، المبنية على أساس الحكمة ، المستتبعة للغايات الجليلة ، التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع ، على الوجه المتين ، والنهج الرصين ، كما يعرب عنه قوله : الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ أي : أحكم خلقه وسوّاه ، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى : إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ : تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها ، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها ، على ما هى عليه من الحسن والسوء ، وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها : بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها ، أي : من جاء من أولئك الذين أوتوه بالحسنة فله خير منها ، باعتبار أنه أضعفها بعشر ، أو : باعتبار دوامه وانقضائها ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : «الحسنة : كلمة الشهادة» «٢» وَهُمْ أي : الذين جاءوا بالحسنات مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ أي : من فزع هائل ، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب ، بعد تمام المحاسبة ، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد فى قوله تعالى : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «٣».

وقال ابن جريج : حين يذبح الموت وينادى : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا

موت.

فيكون هؤلاء مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ، أي : يوم إذ ينفخ فى الصور وما بعده آمِنُونَ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ، ولا يلحقهم ضرره أصلا. وأما الفزع الذي يعترى كل من السموات ومن فى الأرض ، غير ما استثناه اللّه تعالى ، فإنما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة ، من معاينة فنون الدواهي والأهوال ، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة ، وإن كان آمنا من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ١٨٢).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٢٢).

(٣) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٦

وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ قيل : هو الشرك. فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، أي : كبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم : هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا من الشرك والمعاصي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من أراد أن يكون ممن استثنى اللّه من الفزع والهول ، فليكن قلبه معمورا باللّه ، ليس فيه غير مولاه ، ولا مقصود له فى الدارين إلا اللّه ، وظاهره معمورا بطاعة اللّه ، متمسكا بسنة رسول اللّه ، هواه تابع لما جاء به من عند اللّه ، لا شهوة له إلا ما يقضى عليه مولاه ، فبهذا ينخرط فى سلك أولياء اللّه ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين سبقت لهم الحسنى ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. جعلنا اللّه من خواصهم ، بمنّه وكرمه ، آمين.

وقوله تعالى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً ... الآية. كذلك قلوب الراسخين فى العلم باللّه ، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية ، بل تهزهم فى الباطن ، وظواهرهم ساكنة ، كالجبال الراسية ، قيل للجنيد : قد كنت تتواجد عند السماع ، والآن لا يتحرك فيك شى ء؟ فتلى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ.

وقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ أي : بالخصلة الحسنة ، وهى المعرفة فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وهو دوام النظرة والحبرة ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ هى الجهل باللّه ، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ باللّه.

ولما بلّغ الرسول صلى اللّه عليه وسلم ما أمره اللّه من بيان عواقب الأمور ، تبرأ منهم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٩١ الى ٩٣]

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

يقول الحق جل جلاله : قل لكفار قريش ، بعد تبيين أحوال المبعث ، وشرح أحوال القيامة ، بما لا مزيد عليه : إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ أي : مكة ، أي : إنما أمرنى ربى أن أعبده ، واستغرق أوقاتى فى مراقبته ومشاهدته ، غير مبال بكم ، ضللتم أم رشدتم ، وما علىّ إلا البلاغ ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة

(٢٢٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٧

بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها ، الَّذِي حَرَّمَها أي : جعلها حرما آمنا ، يأمن الملتجأ إليها ، ولا يختلى خلاها ، ولا يعضد شوكها ، ولا ينفّر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشريف لها بعد تشريف ، وتعظيم إثر تعظيم ، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر بعبادة ربها ، وأنهم مكلّفون بذلك ، كما فى قوله تعالى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ «١». ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ، ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها ، ويلحد فيها بإثم ، قد استمروا فيها على تعاطى أفجر الفجور ، وأشنع الإلحاد ، حيث تركوا عبادة ربها ، ونصبوا الأوثان ، وعكفوا على عبادتها ، قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون. قاله أبو السعود.

ثم قال تعالى : وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ خلقا وملكا وتصرفا ، من غير أن يشاركه أحد فى شىء من ذلك ، تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف ، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين له ، الثابتين على ما كنا عليه ، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم له تعالى ، وانقادوا إليه بالكلية.

وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ أي : أواظب على تلاوته ، لتنكشف حقائقه الرائقة ، المخزونة فى تضاغيفه ، شيئا فشيئا.

أو : على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة ، وتثنية الإرشاد ، فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والإرشاد ، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.

فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أي : فمن اهتدى بالإيمان به ، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام ،

فإنما منافع هدايته عائدة إليه ، لا إلى غيره. وَمَنْ ضَلَّ بالكفر به ، والإعراض عن العمل بما فيه فَقُلْ فى حقه : إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ وقد خرجت من عهدة الإنذار ، فليس علىّ من وبال ضلالته شىء. قال الصفاقسى : جواب «من» : محذوف ، يدل عليه ما قبله ، أي : فوبال ضلاله عليه ، أو : يكون الجواب : «فقل» ، ويقدر ضمير عائد من الجواب إلى الشرط لأنه اسم غير ظرف ، أي : من المنذرين له. هـ.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على ما أفاض علىّ من نعمائه ، التي أجلها نعمة النبوة ، المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ، ووفقني لتحمل أعبائها ، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى ، بالآيات البينة والبراهين النيرة ، سَيُرِيكُمْ آياتِهِ قطعا فى الدنيا ، التي وعدكم بها ، كخروج الدابة وسائر الأشراط ، فَتَعْرِفُونَها أي : فتعرفون أنها آيات

---

(١) الآيتان : ٣ – ٤ من سورة قريش.

اللّه ، حين لا تنفعكم المعرفة ، أو : سيضطركم إلى معرفة آياته ، والإقرار بأنها آيات اللّه حين ظهورها ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، بل محيط بعمل المهتدى والضال ، غير غافل ، فيجازى كلا بما يستحقه.

وتخصيص الخطاب أولا به – عليه الصلاة والسلام – وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا ، أي : وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم – أيها الكفرة – من السيئات ، فيجازى كلا بعمله. ومن قرأ بالغيب «١» فهو وعيد محض ، أي : وما ربك بغافل عن أعمالهم ، فسيعذبهم البتة ، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم ، بل يمهل ولا يهمل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره ، أو : العالم من تدريسه وتعليمه ، أقبل على عبادة ربه ، إما عبادة الجوارح الظاهرة ، من صلاة وذكر وتلاوة ، أو عبادة القلوب ، كتفكر واعتبار ، أو استخراج علوم وحكم ودرر.

وإما عبادة الأرواح ، كنظرة وفكرة وشهود واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال ، فمن اهتدى إليها فلنفسه ، ومن ضل عنها فقل إنما أنا من المنذرين. والحمد للّه رب العالمين – وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

---

(١) قرأ حفص ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب (تعملون) بتاء الخطاب. وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٧).

(٢٢٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٩

سورة القصص

مكية إلا قوله : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. الآية «١». وهى ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها :

قوله : وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ «٢» ، مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ فإنه عين القرآن المتلو. وقيل : وجه المناسبة :

قوله : سَيُرِيكُمْ آياتِهِ «٣» ، مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التي يستعملها بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)

يقول الحق جل جلاله : طسم ، إما مختصرة من أسماء اللّه تعالى ، أقسم على حقّية كتابه ، وما يتلى فيه ، كأنها مختصرة من طهارته – أي : تنزيهه – وسيادته ، ومجده ، أو : من أسماء رسوله – وهو الأظهر – أي : أيها الطاهر السيد المجيد تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ ، إما من بان ، أو : أبان ، أي : بيّن خيره وبركته ، أو : مبين للحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، والإخلاص والتوحيد ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ أي : بعض خبرهما العجيب. قال القشيري : كرّر الحقّ قصة موسى تعجيبا بشأنه ، وتعظيما لأمره ، ثم زيادة فى البيان لبلاغة القرآن ، ثم أفاد زوائد من الذكر فى كل موضع يكرره. هـ. هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين ، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين ، ففيه تسلية لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ووعد جميل له ولأمته. وقوله : بِالْحَقِّ : حال من فاعل نَتْلُوا ، أو : من مفعوله ، أو : صفة لمصدر محذوف ، أي :

ملتبسين ، أو : ملتبسا بالحق ، أو : تلاوة ملتبسة بالحق. لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لمن سبق فى علمنا أنه يؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم ، فهو متعلق بنتلوا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تقديم هذه الرموز ، قبل سرد القصص ، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره ، ويلقى سمعه ، وهو شهيد ، فحينئذ يكون طاهرا سيدا مجيدا ، ينتفع بكل شيء ، ويزيد إلى اللّه

بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقي لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨ ونزلت بالجحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣).

(٢) الآية ٩٢ من سورة النمل.

(٣) من الآية الأخيرة من سورة النمل.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٠

ثم شرع فى بيان شأنهما ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤ الى ٦]

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ، وهو استئناف بيانى ، وكأن قائلا قال : وكيف كان نبأهما؟ فقال : إنه علا فى الأرض ، أي : تجبّر وطغى فى أرض مصر ، وجاوز الحد فى الظلم والعدوان. أو : علا عن عبادة ربه ، وافتخر بنفسه ، ونسى العبودية. وفى التعبير بالأرض تبكيت عليه ، أي : علا فى محل التذلل والانخفاض ، وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أي : فرقا وأصنافا فى الخدمة والتسخير ، كلّ قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد. وقيل : ملك القبط واستعبد بنى إسرائيل. أو : فرقا مختلفة ، يكرم طائفة ويهين أخرى ، فأكرم القبط ، وأهان بنى إسرائيل. يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ وهم بنو إسرائيل ، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله : وَجَعَلَ أَهْلَها لا يخصّ ببني إسرائيل. يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ الذكور ، وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ أي : البنات ، يتركهم لخدمته.

وسبب ذبحه للأبناء أن كاهنا قال له : يولد مولود فى بنى إسرائيل ، يذهب ملكك على يده ، وفيه دليل على حمق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل إذ لا ينفع حذر من قدر ، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة :

يَسْتَضْعِفُ : حال من الضمير فى جَعَلَ ، أو صفة لشيع ، أو استئناف. إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، أي : الراسخين فى الإفساد ، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة ، من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء - عليهم السلام.

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ أي : نتفضل عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ على الوجه المذكور بالقتل والتسخير.
وهذه الجملة معطوفة على : إِنَّ فِرْعَوْنَ ، أو : حال من يَسْتَضْعِفُ ، أي : يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمنّ عليهم ، وإرادة اللّه تعالى كائنة لا محالة ، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أي : قادة يقتدى بهم فى الخير ، أو : دعاة إلى الخير ، أو : ولاة وملوكا ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أي : يرثون فرعون وقومه ، ملكهم وكل ما كان لهم.
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أرض مصر والشام ، يتصرفون فيها كيف شاءوا ، وتكون تحت ملكهم وسلطانهم. وأصل التمكن : أن يجعل له مكانا يقعد عليه ، ثم استعير للتسليط والتصرف فى الأمر.
وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ

(٤/٢٣٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣١
وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ
من بنى إسرائيل ، ما كانُوا يَحْذَرُونَ يخافون من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر : التوقي من الضرر. ومن قرأ (يرى) بالياء «١» ، ففرعون وما بعده فاعل. وباللّه التوفيق.
الإشارة : العلو فى الأرض يورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان ، والعيش فى العافية والأمان من تواضع رفعه اللّه ، ومن تكبر قصمه اللّه. وهذه عادة اللّه فى خلقه ، بقدر ما يذلّ فى جانب اللّه يعزه اللّه ، وبقدر ما يفتقر يغنيه اللّه ، وبقدر ما يفقد يجد اللّه. قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر أول نشأة موسى عليه السّلام وما جرى فى تربيته ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧ الى ٩]
وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)
يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى بالإلهام ، أو بالرؤيا ، أو بإخبار ملك كما كان لمريم ، وليس هذا وحي رسالة ، فلا يلزم أن تكون رسولا ، واسمها : يوحانة ، وقيل : يوخابذ بنت يصهر بن لاوى بن يعقوب. وقيل : يارخا. ذكره فى الإتقان. وقلنا : أَنْ أَرْضِعِيهِ «أن» : مفسرة ، أي : أرضعيه ،

أو : مصدرية ، بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه ، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ من القتل فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ. البحر ، وهو نيل مصر ، وَلا تَخافِي عليه من الغرق والضياع ، وَلا تَحْزَنِي لفراقه ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ بوجه لطيف لتربيه ، وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وفى هذه الآية : أمران ، ونهيان ، وخبران ، وبشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف : غم يلحق الإنسان لتوقّع مكروه ، والحزن : غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضى ، وهو الآن فراقه والإخطار به. فنهيت عنهما ، وبشرت برده وجعله من المرسلين. روى أنه ذبح ، فى طلب موسى ، تسعون ألف وليد. وروى أنها حين ضربها الطلق – وكانت بعض القوابل من الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، ودخل حبه قلبها ، فقالت : ما جئت إلا لأقتل ولدك وأخبر فرعون ، ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله ، فاحفظيه ، فلما خرجت القابلة ، جاءت عيون فرعون

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (يرى) بياء مفتوحة ، و«فرعون» بالرفع فاعله ، و«هامان وجنودهما» بالرفع عطفا عليه ، وقرأ الباقون «نرى» بالنون مضمومة ، و«فرعون» بالنصب مفعوله. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٠).

فلفّته فى خرقة ، ووضعته فى تنور مسجور ، ولم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يجدوا شيئا ، فخرجوا ، وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه ، وقد جعل اللّه النار عليه بردا وسلاما. فلما ألح فرعون فى طلب الولدان ، أوحى اللّه إليها بإلقائه فى اليمّ ، فألقته فى اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

روى أنها لفته فى ثيابه ، وجعلت له تابوتا من خشب ، وقيل : من بردى ، وسدت عليه بقفل ، وأسلمته ثقة بالله وانتظارا لوعده سبحانه. قال ابن مخلص : ألقته فى البحر بالغداة ، فرده إليها قبل الظهر.

حكى أن فرعون كانت له بنت برصاء ، أعيت الأطباء ، فقال الأطباء والسحرة : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يؤخذ منه شبه الإنسان ، فيؤخذ من ريقه وتلطخ به برصها ، فتبرأ ، فقعد فرعون على شفير النيل ، ومعه آسية امرأته ، فإذا بالتابوت يلعب به الموج ، فأخذ له ، ففتحوه ، فلم يطيقوا ، فدنت آسية ، فرأت فى وجه التابوت نورا لم يره غيرها ، للذى أراد اللّه أن يكرمها ، ففتحه ، فإذا الصبى بين عينيه نور ، وقد جعل اللّه رزقه فى إبهامه ، يمصه لبنا ، فأحبته آسية وفرعون ، فلطخت بنت فرعون برصها فبرئت ، فقبّلته وضمته إلى صدرها. فقال بعض القواد من قوم فرعون : نظن هذا المولود الذي نحذر

منه ، فهمّ فرعون بقتله – واللّه غالب على أمره – فقالت : آسية : قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ .. الآية «١».
وهذا معنى قوله : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ أخذه. قال الزجّاج : وكان فرعون من أهل فارس ، من إصطخر.
والالتقاط : وجدان الشيء من غير طلب ولا إرادة ، ومنه : اللّقطة ، لما وجد ضالا. وقوله : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً أي : ليصير الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا ، فاللام للصيرورة كقولهم : لدوا للموت وابنوا للخراب.
وقال صاحب الكشاف : هى لام «كى» التي معناها التعليل ، كقولك : جئت لتكرمنى. ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله. هـ. وتسمى بالاستعارة التبعية.
وفى «الحزن» لغتان الفتح والضم ، كالعدم والعدم.
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ ، أي : مذنبين ، فعاقبهم اللّه تعالى بأن ربّى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم على يديهم. أو : كانوا خاطئين فى كل شيء ، فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم.
وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ، لمّا هم فرعون بقتله – لقول القواد : هو الذي نحذر : هو قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، فقال فرعون : لك ، لا لى. قال صلى اللّه عليه وسلم : «لو قال مثل ما قالت لهداه اللّه مثل ما هداها» «٢» ، وهذا على سبيل الفرض ، أي : لو كان غير مطبوع عليه الكفر لقال مثل قولها. ثم قالت : لا تَقْتُلُوهُ ، خاطبته خطاب الملوك ، أو خاطبت

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٣٢) والبغوي (٦/ ١٩٢). [.....]
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩٧) للنسائى – فى الكبرى فى التفسير – من حديث ابن عباس – رضى اللّه عنه.

القواد. عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ، وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء.
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أو : نتبناه فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ما يكون من أمره وأمرهم ، أو : لا يشعرون أن هلاكهم على يديه ، أو : لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يقال لمن يعالج تربية مريد : أرضعه من لبن علم الغيوب ، فإذا خفت عليه الوقوف مع

الشرائع «١» ، فألقه فى اليم فى بحر الحقائق ، ولا تخف ولا تحزن ، إنا رادوه إلى بر الشرائع ، ليكون من الكاملين ، لأن من غرق فى بحر الحقيقة ، على يد شيخ كامل ، لا بد أن يخرجه إلى بر الشريعة ، ويسمى البقاء ، وهو القيام برسم الشرائع ، فالبقاء يطلب الفناء ، فمن تحقق بمقام الفناء فلا بد أن يخرج إلى البقاء ، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع.

واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً ، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح ، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى شيء ، ولا يعتمدون على شيء لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع ، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر ، وقد ينتفع على أيدى الأعداء ، ويضرّ على أيدى الأحبّاء ، فليكن العبد سلما بين يدى سيده ، ينظر ما يفعل به. وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ.

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَأَصْبَحَ أي : صار فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه ، أو : فارغا : خاليا من العقل لما دهمها من الجزع والحيرة ، حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون ، ويؤيده قراءة ابن محيصن : «فزعا» بالزاي بلا ألف ، أو : فارغا من الوحى الذي أوحى إليها أن تلقيه فى اليم ، ناسيا

---

(١) أي : الوقوف الظاهري ، الشكلانى ، دون تحقق القلب والنفس بحقائق الإيمان ولوازمه. فهذا هو الذي يخاف منه ، مثل وقوف الخوارج ، الذين وصفهم الرسول صلى اللّه عليه وسلم بأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم ، وأن قراءتهم لا تجاوز تراقيهم ، وأن صلاتهم لا تجاوز تراقيهم ، أي : أن تعبدهم وتدينهم هو تدين برّانى ، شكلانى ، لا ينبثق من الأعماق ، من الكيان الجواني للإنسان.

للعهد أن يرده إليها ، لما دهمهما من الوجد ، وقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى وأغرقته أنت. وبلغها أنه وقع فى يد فرعون ، فعظم البلاء ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ : لتبوح به وتظهر

شأنه وأنه ولدها.

قيل : لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : يا ابناه ، وقيل : لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله ، فكادت تقول : يا ابناه شفقة عليه. و«أن» مخففة ، أي : إنها كادت لتظهره لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها. والربط : تقويته بإلهام الصبر والتثبيت ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : من المصدقين بوعدنا ، وهو : إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ. وجواب «لو لا» : محذوف ، أي : لأبدته ، أو : فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون تبناه ، إن كادت لتبدى بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا مما سمعت ، لو لا أنا ربطنا على قلبها وثبتناه لتكون من المؤمنين الواثقين بعهد اللّه ، لا بتبني فرعون. قال يوسف بن الحسن : أمرت أم موسى بشيئين ، ونهيت عن شيئين ، وبشرت ببشارتين ، فلم ينفعها الكل ، حتى تولى اللّه حياطتها ، فربط على قلبها.

وَقالَتْ لِأُخْتِهِ مريم : قُصِّيهِ : اتبعى أثره لتعلمى خبره ، فَبَصُرَتْ بِهِ أي : أبصرته عَنْ جُنُبٍ عن بعد. قال قتادة : جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنها أخته ، وأنها تقصه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد ، الطالب لمولاه ، أن يصبح فارغا من كل ما سواه ، ليس فى قلبه سوى حبيبه ، فحينئذ يرفع عنه الحجاب ، ويدخله مع الأحباب ، فعلامة المحبة : جمع الهموم فى هم واحد ، وهو حب الحبيب ، ومشاهدة القريب المجيب ، كما قال الشاعر :

كانت لقلبى أهواء مفرّقة فاستجمعت ، مذ رأتك العين ، أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تركت للنّاس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

فرّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. والأغيار : جمع غير ، وهو ما سوى اللّه ، فإن تلاشى الغير عن عين العبد شاهد مولاه فى غيب ملكوته ، وأسرار جبروته ، وفى ذلك يقول القائل :

إن تلاشى الكون عن عين قلبى شاهد السّرّ غيبه فى بيان

فاطرح الكون عن عيانك ، وامح نقطة الغين إن أردت ترانى

فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدى به ، ويبوح بسره فرحا واغتباطا به ، لو لا أن اللّه يربط على قلبه ، ليكون من الثابتين الراسخين فى العلم به ، وإن أبدى سر الحبيب سلط عليه سيف الشريعة ، وباللّه التوفيق.

ثم ذكر رجوع موسى إلى أمه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)

قلت : المراضع : جمع مرضع ، وهى المرأة التي ترضع ، أو : مرضع – بالفتح – : موضع الرضاع ، وهو الثدي.

و(لا تحزن) : معطوف على (تقر).

يقول الحق جل جلاله : وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ أي : تحريم منع ، لا تحريم شرع ، أي : منعناه أن يرضع ثديا غير ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى أهمهم ذلك. مِنْ قَبْلُ أي : من قبل قصصها أثره ، أو : من قبل أن نرده إلى أمه. فَقالَتْ أخته. وقد دخلت داره بين المراضع ، ورأته لا يقبل ثديا : هَلْ أَدُلُّكُمْ أرشدكم عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ يحفظون موسى لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته. والنصح : إخلاص العمل من شائبة الفساد. روى أنها لما قالت : وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام ، فهو الذي نحذر ، فقالت : إنما أردت : وهم للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم ، فجاءت بها ، والصبى على يد فرعون يعلله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه ، فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟

فقالت : إنى امرأة طيبة الريح ، لا أوتى بصبى إلا قبلنى. فدفعه إليها ، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل : دينارا فى اليوم ، وذهبت به إلى بيتها ، وأنجز اللّه لها وعده فى الرد ، فعندها ثبت واستقر فى علمها أنه سيكون نبيا. وذلك قوله تعالى : فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بولدها ، وَلا تَحْزَنَ لفراقه ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، أي :

وليثبت علمها مشاهدة ، كما ثبت علما.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٦

وأما جزعها وحيرتها فذلك من الطبع البشرى الجبلّىّ ، اللازم لضعف البشرية ، لا ينجو منه إلا خواص الخواص ، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار فى اليوم ، كما قال السدى : لأنه مال حربى ، لا أنه أجرة إرضاع ولدها.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أي : القبط ، أو الناس جملة ، لا يَعْلَمُونَ أن ما وعد اللّه لا بد من إنجازه ، ولو بعد

حين ، وهو داخل تحت علمها ، أي : لتعلم أن وعد اللّه حق ، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون ، فجزعت ، وهذا من الطبع البشرى كما تقدم.

وأيضا يجوز أن يكون الوعد منوطا بشروط وأسباب ، قد لا تعرفها ، فلذلك لم ينفك خوفها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وحرمنا على الإنسان المراضع ، من لبان الخمرة الأزلية ، من قبل أن نلقيه بأهلها ، فقالت له العناية السابقة : هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية ، والهفوات القلبية ، وهى الإصرار على المساوئ والذنوب ، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون ، يدلونك على اللّه ولا يدلونك على غيره. فإن من دلّك على اللّه فقد نصحك ، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الدنيا فقد غشك.

فرددناه إلى أمه ، وهى الحضرة القدسية ، التي خرج منها ، بمتابعة شهوته وغفلته ، كى تقر عين روحه بمشاهدة حبيبها ، ولا تحزن على فوات شيء ، إذ لم تفقد شيئا ، حيث وجدت اللّه تعالى «ماذا فقد من وجدك؟ وما الذي وجد من فقدك؟» «١» ولتعلم أن وعد اللّه بالفتح على من توجه إليه بالواسطة حق ، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون.

ثم ذكر سبب خروج موسى من مصر ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٤ الى ١٧]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

قلت : عَلى حِينِ غَفْلَةٍ : حال ، أي : دخل مخفيا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا بَلَغَ موسى أَشُدَّهُ أي : نهاية القوة وتمام العقل ، جمع شدّة كنعمة وأنعم. وأول ما قيل فى الأشد : بلوغ النكاح ، وذلك أوله ، وأقصاه : أربع وثلاثون سنة. وَاسْتَوى أي : اعتدل

---

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء اللّه السكندرى. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ص ٤٢.

عقله وقوته ، وهو أربعون سنة ، ويروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة. آتَيْناهُ حُكْماً : نبوة ، أو :
حكمة وَعِلْماً : فقها فى الدين ، أو : علما بمصالح الدارين. والحاصل : لما تكامل عقله وبصيرته آتيناه حكما على عبادنا وعلما بنا. وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي : كما فعلنا بموسى وأمه لمّا استسلمت لأمر اللّه ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدقت بوعد اللّه ، فرددنا لها ولدها ، ووهبنا له الحكمة والنبوة ، فكذلك نجزى المحسنين فى كل أوان وحين.
قال الزجاج : جعل اللّه تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة ، التي هى جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال : وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «١» ، فجعلهم جهالا ، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ أي : مصر ، آتيا من قصر ، فرعون ، وكان خارجا ، وقال السّدّى : مدينة منف من أرض مصر ، وقال مقاتل : قرية «حابين» ، على فرسخين من مصر. عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها ، وهو ما بين العشاءين ، أو : وقت القائلة ، يعنى : انتصاف النهار. قال السدى : لما كبر موسى ركب مراكب فرعون ، ولبس ملابسه ، فكان يدعى موسى بن فرعون ، فركب فرعون يوما وركب موسى خلفه ، فأدركه المقيل بقرب مدينة منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد غلقت أسواقها ، وليس فى طرقها أحد ، فوجد موسى رجلين .. إلخ.
قال ابن إسحاق : كان يجتمع إلى موسى طائفة من بنى إسرائيل ويقتدون به ، فرأى مفارقة فرعون ، وتكلم فى ذلك حتى ظهر أمره ، فأخافوه ، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفيا ، فدخلها على حين غفلة. وقيل : إن موسى لما شبّ علا فرعون بالعصى ، فقال : هذا عدو لى ، فأخرجه من مصر ، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى ، أي : من بعد نسيانهم خبره «٢» ، فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ يتضاربان ، هذا مِنْ شِيعَتِهِ ممن على دينه من بنى إسرائيل ، وقيل : هو السامري. وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ من مخالفيه من القبط ، وهو طباخ فرعون. واسمه : «فليثور» ، وقيل فيهما : «هذا وهذا» ، وإن كانا غائبين على جهة الحكاية ، أي : إذا نظر إليهما الناظر قال : هذا وهذا.
وقال ابن عباس : لما بلغ موسى أشده كان يحمى بنى إسرائيل من الظلم والسخرة ، فبينما هو يمشى نظر رجلين يقتتلان ، أحدهما من القبط والآخر من بنى إسرائيل.

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري فى تفسيره (٢٠/ ٤٣ - ٤٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٨

فَاسْتَغاثَهُ فاستنصره الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ أي : فسأله أن يغيثه الإعانة. ضمّن استغاث أعان ، فعداه ب «على». روى أنه لما استغاث به ، غضب موسى ، وقال للفرعونى : خله عنك؟ فقال : إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك ، ثم قال الفرعون لموسى : لقد هممت أن أحمله عليك ، فَوَكَزَهُ مُوسى ضربه بجمع كفه ، أو : بأطراف أصابعه. قال الفراء الوكز : الدفع بأطراف الأصابع. فَقَضى عَلَيْهِ أي : قتله ، ولم يتعمد قتله ، وكان موسى عليه السّلام ذا قوة وبطش ، وإنما فعل ذلك الوكز لأن إغاثة المظلوم والدفع عنه دين فى الملل كلها ، وفرض فى جميع الشرائع. وإنما عدّه ذنبا لأن الأنبياء لا يكفى فى حقهم الإذن العام ، فلذلك قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي : القتل الحاصل ، بغير قصد ، من عمل الشيطان ، واستغفر ، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان ، وسماه ظلما لنفسه ، واستغفر منه لأنه كان مستأمنا فيهم ، أو : لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل.

وعن ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر ، ولأن الخصوص يعظمون محقرات ما فرط منهم. إِنَّهُ أي :

الشيطان عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة.

قالَ رَبِّ أي : يا رب إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بفعل صار قتلا فَاغْفِرْ لِي زلتى ، فَغَفَرَ لَهُ زلته ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ بإقالة الزلل ، الرَّحِيمُ بإزالة الخجل ، قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أي : بحق إنعامك علىّ بالمغفرة ولم تعاقبنى فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ أي : لا تجعلنى أعين على خطيئة ، توسل للعصمة بإنعامه عليه. وقيل : إنه قسم حذف جوابه ، أي : أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة ، إن عصمتنى ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون ، وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد.

قال ابن عطية : واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور ، ومعونتهم فى شىء من أمورهم ، ورأوا أنها تتناول ذلك. هـ. قال الوصافي لعطاء بن أبى رباح : إن لى أخا يأخذ بقلمه ، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج ، وله عيال ، ولو ترك لاحتاج وادّان. فقال : من الرأس؟ فقال : خالد بن عبد اللّه ، قال : أما تقرأ قول العبد الصالح : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ، فإن اللّه عز وجل سيعينه. هـ.

الإشارة : خصوصية الولاية كخصوصية النبوة ، لا تعطى ، غالبا ، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل ، وحصول الاستواء ، وهو أن يستوى عنده المدح والذم ، والعز والذل ، والمنع والعطاء ، والفقر والغنى ، وتستوى حاله فى القبض والبسط ، والغضب والرضا ، فإذا استوى فى هذه الأمور آتاه اللّه حكما

وعلما ، وجزاه جزاء المحسنين ، وكتب شيخ شيخنا إلى بعض تلامذته : أمّا بعد ، فإن تورعت فى أقوالك وأفعالك ، وتوسعت فى أخلاقك ، حتى

(٢٣٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٩

يستوى عندك من يمدحك ويذمك ، ويعطيك ويمنعك ، ومن يؤذيك وينفعك ، ومن يشدد عليك ويوسع ، فلا أشك فى كمالك. هـ.

فإن قلت : لم ذكر الحق ، جلّ جلاله ، الاستواء فى حق سيدنا موسى ، ولم يذكره فى حق نبيه يوسف – عليهما السلام؟ فالجواب : أن سيدنا يوسف عليه السّلام تربى فى السجن وفى نار الجلال ، وكل محنة تزيد تهذيبا وتدريبا ، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء ، بخلاف سيدنا موسى عليه السّلام فإنه تربى فى العز والجمال ، فاحتاج إلى تربية وتهذيب ، بعد كمال الأشد ، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذي يليق به ، فلذلك ذكره فى حقه. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٨ الى ٢١]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

قلت : جملة (يسعى) : حال من (رجل) لأنه وصف بالجار.

يقول الحق جل جلاله : فَأَصْبَحَ موسى فِي الْمَدِينَةِ أي : مصر خائِفاً على نفسه من قتله قودا بالقبطي ، وهذا الخوف أمر طبيعى لا ينافى الخصوصية ، يَتَرَقَّبُ : ينتظر الأخبار عنه ، أو ما يقال فيه ، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء : خائفا على نفسه ، يترقب نصرة ربه ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ : يستغيثه ، مشتق من الصراخ لأنه يقع فى الغالب عند الاستغاثة. والمعنى : أن الإسرائيلى الذي خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطى آخر ، قالَ لَهُ مُوسى أي : للإسرائيلى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أي :

خال عن الرشد ، ظاهر الغى ، فقد قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك. قال ابن عباس : أتى فرعون ،

فقيل له : إن بنى إسرائيل قد قتلوا منا رجلا ، فالقصاص ، فقال : ابغوني القاتل والشهود ، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد ،

(٢٣٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٤٠

فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونيا آخر ، يريد أن يسخره ، فاستغاث به الإسرائيلى على الفرعوني ، فوافق موسى نادما على القتل ، فقال للإسرائيلى : إنك لغوى مبين «١».

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ موسى أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي بالقبطي الذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما لموسى وللإسرائيلى لأنه ليس على دينهما ، أو : لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل ، أي : فلما مدّ موسى يده ليبطش بالفرعوني ، خشى الإسرائيلى أن يريده ، حين قال : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فقال : يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ، يعنى : القبطي ، أَنْ ما تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً قتالا بالغضب ، فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ فى كظم الغيظ.

وقيل : القائل : يا مُوسى أَتُرِيدُ ... إلخ ، هو القبطي ، ولم يعلم أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلى استدل على أن الذي قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى ، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ، فأمسك موسى عنه ، ثم أخبر فرعون بذلك فأمر بقتل موسى.

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ من آخرها ، واسمه : «حزقيل بن حبورا» ، مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، يَسْعى : يسرع فى مشيه ، أو : يمشى على رجله ، قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ، أي :

يتشاورون فى قتلك ، ويأمر بعضهم بعضا بذلك. والائتمار : التشاور ، فَاخْرُجْ من المدينة ، إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ، فاللام فى (لك) : للبيان ، وليس بصلة لأن الصلة لا تتقدم على الموصول ، إلا أن يتسامح فى المجرور ، فَخَرَجَ مِنْها من مصر خائِفاً يَتَرَقَّبُ : ينتظر الطلب ويتوقعه ، قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قوم فرعون. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية دليل على أن الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافى الخصوصية لأنه أمر جبلّى ، لكنه يخف ويهون أمره ، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك ، يفرّ من اللّه إلى اللّه ، ولا ينافى التوكل ، وقد اختفى صلى اللّه عليه وسلم من الكفار بغار ثور ، واختفى الحسن البصري من الحجّاج ، عند تلميذه حبيب العجمي. وفيها أيضا دليل على أن المعصية قد تكون سببا فى نيل الخصوصية ، كأكل آدم من الشجرة ، كان سببا فى نيل الخلافة ، وعمرة الأرض ، وما نشأ من صلبه من الأنبياء

والأولياء وجهابذة العلماء ، وكقتل موسى عليه السّلام نفسا لم يؤمر بقتلها ، كان سببا فى خروجه للتربية عند شعيب عليه السّلام ، وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية ، فكل ما يوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار ، والحاصل : أن من سبقت له العناية ، ونال فى الأزل مقام المحبوبية

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٩٨).

صارت مساوئه محاسن ، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفى الحديث : «إذا أحب اللّه عبدا لم يضره ذنب» «١».

قال فى القوت : واعلم أن مسامحة ، اللّه عز وجل لأوليائه – يعنى : فى هفواتهم – فى ثلاث مقامات : أن يقيمه مقام حبيب صديق ، لما سبق من قدم صدق ، فلا تنقصه الذنوب لأنه حبيب. المقام الثاني : أن يقيمه مقام الحياء منه ، بإجلال وتعظيم ، فيسمح له ، وتصغر ذنوبه للإجلال والمنزلة ، ولا يمكن كشف هذا المقام ، إلا أنّا روينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه ذكر طائفة فقال : «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم». المقام الثالث : أن يقيمه مقام الحزن والانكسار ، والاعتراف بالذنب والإكثار ، فإذا نظر حزنه وهمه ، ورأى اعترافه وغمه ، غفر له حياء منه ورحمة. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين ، واتصاله بشعيب – عليهما السلام – فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا تَوَجَّهَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ نحوها وجهتها. ومدين : قرية شعيب ، سميت بمدين بن إبراهيم ، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن ، ويقال له أيضا : «مدان بن إبراهيم» ، ولم تكن مدين فى سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ، ولعله إنما لم يتسلط عليها لما وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم ، فخاف على نفسه. قال ابن عباس : خرج موسى ، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أي : وسطه ونهجه. فلما خرج ، عرض له ثلاث طرق ، فأخذ في أوسطها ، وجاء الطلاب عقبه ، فأخذوا في الآخرين. روى أن ملكا جاءه على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ٢/ ٧٧ ح ٢٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا أحب اللّه عبدا لم يضره ذنب» وزاد الزبيدي عزوه في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) لابن النجار في تاريخه.

مدين. وروى أنه خرج بلا زاد ولا درهم ، ولا ظهر ، ولا حذاء – أي : نعل – ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، فما بلغ مدين حتى وقع خفّ قدمه ، وخضرة البقل ترى على بطنه «١».

وَلَمَّا وَرَدَ وصل ماءَ مَدْيَنَ بئرا لهم ، وَجَدَ عَلَيْهِ على جانب البئر أُمَّةً جماعة كثيرة مِنَ النَّاسِ من أناس مختلفين يَسْقُونَ مواشيهم ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ في مكان أسفل من مكانهم امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ : تطردان غنمهما عن الماء ، حتى تصدر مواشي الناس ثم تسقيان لأن على الماء من هو أقوى منهما ، فلا يتمكنان من السقي. أو : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود : الطرد والدفع.

قالَ لهما موسى : ما خَطْبُكُما : ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل : ما مخطوبكما ، أي : مطلوبكما ، فسمى المطلوب خطبا ، قالَتا لا نَسْقِي غنمنا حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، أي : يصرفوا مواشيهم ، يقال : أصدر عن الماء وصدر ، والمضارع : يصدر ويصدر ، والرعاء : جمع راع ، كقائم وقيام ، والمعنى : لا نستطيع مزاحمة الرجال ، فإذا صدروا سقينا مواشينا ، وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ السن ، لا يمكنه سقى الأغنام ، وهو شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم – عليهما السلام – وقيل : هو «يثرون» بن أخي شعيب «٢» ، وكان شعيب قد مات بعد ما كفّ بصره ، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

فَسَقى لَهُما أي : فسقى غنمهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة الملهوف ، روى أنه نحى القوم عن رأس البئر ، وسألهم دلوا ، فأعطوه دلوهم ، وقالوا : استق به ، وكانت لا ينزعها إلا أربعون ، فاستقى بها ، وصبها في الحوض ، ودعا بالبركة. وقيل : كانت آبارهم مغطاة بحجارة كبار ، فعمد إلى بئر ، وكان حجرها لا يرفعه إلا جماعة ، فرفعه وسقى للمرأتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله : أنه سألهما عن سبب الذود ، فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان ، لا نقدر على مزاحمة الرجال ، ونستحي من الاختلاط بهم ، فلابد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا. وإنما رضي شعيب عليه السّلام

لابنتيه بسقى الماشية لأن الأمر فى نفسه مباح مع حصول الأمن ، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة ، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا إذا كانت الضرورة. قاله النسفي. قلت : وقد كنت أعترض على أهل الجبل رعي النّساء المواشي حتى تذكرت قضية ابنتي شعيب ، لكن السلامة فى زماننا هذا حبس النساء فى الديار لكثرة أهل الفساد.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) ذكره فى تفسيره (٦/ ٢٠٠) عن وهب بن منبه.

ثُمَّ لما سقى لهما تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون ، عن عبد اللّه قال : أحييت ليلتين على جمل لى ، حتى صبّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هى شجرة خضراء ، فأخذ جملى يأكل منها ثم لفظها. هـ «١». وفى الآية دليل على جواز الاستراحة والاستظلال فى الدنيا ، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ، وسيأتى فى الإشارة تمامه إن شاء اللّه.

ثم بث شكواه لمولاه فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قليل أو كثير فَقِيرٌ محتاج. قال ابن عباس : لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لتتراءى فى بطنه ، من الهزال. قيل : لم يذق طعاما منذ سبعة أيام ، وقد لصق بظهره بطنه ، وما سأل اللّه تعالى الأكلة. وفى هذا تنبيه على هوان الدنيا على اللّه تعالى.

وقال ابن عطاء :

نظر من العبودية إلى الربوبية ، وتكلم بلسان الافتقار ، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة : ولما توجه القلب تلقاء مدين المآرب ، ومنتهى الرغائب - وهى الحضرة القدسية - قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، أي : وسط الطريق التي توصل إليها ، وهو شيخ التربية. ولمّا ورد مناهله ، ومحل شربه وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة ، ويطلبون مثل ما يطلب ، فإن كان قويا فى حاله وصل من كان ضعيفا وسقى له ، ثم نزل إلى ظل المعرفة ، فى نسيم برد الرضا والتسليم ، قائلا ، بلسان التضرع ، سائلا من اللّه المزيد : ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير الدارين ، وغنى الأبد ، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال فى لطائف المنن : ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ قصدا لشكر اللّه تعالى على ما ناله من النعمة - يعنى : نعمة الظل الحسى - وجعله أصلا فى استعمال الطيبات ، وتناولها بقصد الشكر ، ومثله فى التنوير.

وفى سنن أبى داود عن عائشة – رضى اللّه عنها – قالت : «كان صلى اللّه عليه وسلم يستعذب له الماء من بيوت السّقيا» «٢» ، قال ابن قتيبة : هى عين ، بينها وبين المدينة يومان. هـ. وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبى الحسن رضي اللّه عنه : (يا أبا الحسن ، برّد الماء فإن النفس إذا شربت الماد البارد حمدت اللّه بجميع الجوارح ، وإذا شربت الماء السخن حمدت اللّه بكزازة).

ثم ذكر اتصاله بشعيب ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٥٨) وذكره ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأشربة ، باب فى إيكاء الآنية ، ح ٣٧٣٥ ، ٤/ ١١٩) والحاكم (٤/ ١٣٨) وبنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ١٠٠).

والسقيا : منزل بين مكة والمدينة ، على يومين من المدينة. انظر : النهاية فى غريب الحديث (سقا ، ٢/ ٣٨٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٤٤

قلت : (تمشى) : حال من (إحداهما) ، و(على استحياء) : حال من ضمير (تمشى) ، أي : تمشى مستحيية.

و(القصص) : مصدر ، سمّي به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله : فَجاءَتْهُ إِحْداهُما وهى التي تزوجها ، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمهما بطانا حفّلا ، فقال لهما : ما أعجلكما؟ فقالتا له : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحداهما : أدعيه ، فجاءته تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قد سترت وجهها بكفها ، واستترت بكمّ درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ، ولم تعلم أيجيبه أم لا؟ فقالت : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ، «ما» مصدرية ، أي : أجر سقياك لنا ،

فتبعها موسى ، فألزقت الريح ثوبها بجسدها ، فوصفته ، فقال لها : امشى خلفى ، وانعتى الطريق ، فإننا بنى «١» يعقوب ، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، أي : قصته وأحواله مع فرعون ، وكيف أراد قتله ، قالَ له :

لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

فرعون وقومه إذ لا سلطان له على أرضنا – مدين – ، أو : قبل اللّه دعاءك فى قولك : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وفيه دليل على العمل بخبر الواحد ، ولو أنثى ، والمشي مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله النسفي. وفيه نظر لعصمة الأنبياء – عليهم السلام – ، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل : لا بأس به عند الحاجة ، كما كان لموسى عليه السّلام ، على أنه روى أنه لمّا قالت له : لِيَجْزِيَكَ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة.

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع ، فقال شعيب : ألست جائعا؟ فقال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ، ولا نأخذ على المعروف شيئا ، فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، فأكل «٢».

---

(١) فى الأصول [بنو].

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٢٣٨) لابن عساكر ، عن أبى حازم.

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، أي : اتخذه أجيرا لرعى الغنم. روى أن كبراهما كانت تسمى : «صفراء» ، والصغرى : «صفيراء» ، وقيل : «صابورة» و«ليا». وصفراء هى التي ذهبت به ، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهى التي تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره ، فانظره مع ما فى الحديث ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «تزوج صغراهما ، وقضى أوفاهما» «١». ويمكن الجمع بأن يكون زوّجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التي طلبت استئجاره : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ، فقال : ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو ، أو رفع الحجر عن البئر ، وأمرها بالمشي خلفه. وفى رواية عند الثعلبي : أما قوته : فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلا ، فرفعها عن فم البئر. ثم ذكرت أمر الطريق. وقولها : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ .. إلخ : كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة ، فى القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل : القوى فى دينه ، الأمين فى جوارحه. وقد استغنت بهذا

الكلام ، الجاري مجرى المثل ، عن أن تقول : استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف فى قوله : عَسى أَنْ يَنْفَعَنا «٢» ، وأبو بكر فى استخلافه عمر.

قالَ شعيب لموسى – عليهما السلام – : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ : أزوجك إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ ، وقوله : هاتَيْنِ يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه ، لا عقد ، وإلا لقال : أنكحتك. عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي أي : تكون أجيرا لى ، من أجرته : إذا كنت له أجيرا ثَمانِيَ حِجَجٍ سنين ، والحجة : السنة. والتزوج على رعى الغنم جائز فى شرعنا ، على خلاف فى مذهبنا. فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً أي : عشر حجج فَمِنْ عِنْدِكَ أي :

فذلك تفضل منك ، ليس بواجب عليك ، أو : فإتمامه من عندك ، ولا أحتمه عليك. وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ بإلزام أتم الأجلين. من المشقة ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فى حسن المعاملة ، والوفاء بالعهد ، أو مطلقا. وعلق بالمشيئة ، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

قالَ موسى عليه السّلام : ذلِكَ العهد وعقد الأجرة بَيْنِي وَبَيْنَكَ أي : ذلك الذي قلته ، وشارطتنى عليه ، قائم بيننا جميعا ، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال : أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ أي : أىّ الأجلين قضيت من

---

(١) أي : تزوج صغرى البنتين ، وقضى أوفى الأجلين ، وهو عشر سنوات. وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٢/ ١٢٨).

عن أبى ذر. والجزء الثاني من الحديث أخرجه البخاري بلفظ : «قضى أكثرهما وأطيبهما» وانظر تخريجه فى الصفحة بعد التالية. [.....]

(٢) كما فى الآية ٢١ من سورة يوسف.

الأجلين : العشر أو الثماني ، فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي : لا يتعدى علىّ فى طلب الزيادة عليه ، قال المبرد : قد علم أنه لا عدوان عليه فى إتمامهما ، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم فى الوفاء ، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذلك طلب الزيادة على الأقل. وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أي : رقيب وشهيد.

واختلف العلماء فى وجوب الإشهاد فى النكاح على قولين ، أحدهما : أنه لا ينعقد إلا بشاهدين ، وبه

قال أبو حنيفة والشافعي ، وقال مالك : ينعقد بدون شهود لأنه عقد معاوضة ، فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان ، والإظهار بالدف والدخان ليتميز من السفاح ، ويجب عند الدخول.

روى أن شعيبا كانت عنده عصىّ الأنبياء – عليهم السلام – ، فقال لموسى بالليل : أدخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى ، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء – عليهم السلام – يتوارثونها ، حتى وقعت إلى شعيب ، فلما أخذها ، قال له شعيب : ردها وخذ غيرها ، فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات. – وفى رواية السدى : أمر ابنته أن تأتيه بعصا فجاءته بها ، فلما رأها الشيخ قال : آتيه بغيرها ، فألقتها لتأخذ غيرها ، فلا تصير فى يدها إلا هى ، مرارا ، فرفعتها إليه ، فعلم أن له شأنا. ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك ، فإن الكلأ ، وإن كان بها أكثر ، إلا أن فيها تنينا ، أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ، فمشى على أثرها ، فإذا عشب وريف لم ير مثله ، فنام ، فإذا التنين قد أقبل ، فحاربته العصا حتى قتلته ، وعادت إلى جنب موسى دامى ، فلما أبصرها دامية ، والتنين مقتولا ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، وأخبره موسى ، فرح ، وعلم أن لموسى شأنا ، وقال له : إنى وهبت لك من نتاج غنمى ، هذا العام ، كلّ أدرع ودرعاء – أي : كل جدى أبلق ، وأنثى بلقاء – فأوحى اللّه تعالى إلى موسى فى المنام : أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقى منه الغنم ، فضرب ، ثم سقى الأغنام ، فوضعت كلها بلقاء ، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائى فى كتابه (قطب العارفين) : أن موسى عليه السّلام انتهى ، ذات يوم ، بأغنامه إلى واد كثير الذئاب ، وكان قد بلغ به التعب ، فبقى متحيرا ، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك لغلبة النوم عليه والتعب ، وإن هو طلب الراحة ، وثبت الذئاب على الغنم ، فرمى السماء بطرفه ، وقال : إلهى إنه أحاط علمك ، ونفذت إرادتك ، وسبق تقديرك ، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ وجد ذئبا واضعا عصاه على عاتقه ، وهو يرعى الغنم ، فتعجب موسى من ذلك ، فأوحى اللّه إليه : يا موسى كن لى كما أريد ، أكن لك كما تريد. قال : فهذه إشارة تدل على أن :

من هرب من اللّه إلى اللّه كفاه اللّه ، عز وجل ، من دونه. هـ. واللّه تعالى أعلم.

(٤/٢٤٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٤٧

الإشارة : فجاءته – أي : القلب – إحدى الخصلتين الفناء والبقاء ، تمشى على مهل وقدر فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدريج ، على حسب القدر السابق. قالت إحدى الخصلتين : إن ربى يدعوك إلى حضرته ليجزيك أجر ما سقيت ، واستعملت فى جانب الوصول إلينا. فلما جاءه ، أي :

وصل إليه ، وتمكن منه ، وقص عليه القصص ، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات ، قال : لا تخف اليوم ، حين وصلت إلينا ، نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما : يا رب استأجره فى العبودية شكرا ، إن خير من استأجرت القوى الأمين لأن عمله باللّه ، محفوفا برعاية اللّه ، قال : إنى أريد أن أعطيك إحدى الخصلتين ، إما الإقامة فى الفناء المستغرق ، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق ، لتقوم بالأدب ، على أن تخدم ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا ، لزيادة التمكين ، فمن عندك ، فأقل خدمة المريد للشيخ ثمانى سنين ، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبي : لأن شعيبا ، عليه السّلام رأى بنور النبوة أن موسى عليه السّلام يبلغ درجة الكمال فى ثمانى حجج ، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك ، ورأى أن كمال الكمال فى عشر حجج لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة ، ويكون بعد ذلك حرا ، ولذلك قال : وما أريد أن أشق عليك. هـ.

ثم ذكر رجوع موسى إلى مصر ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «قضى أبعدهما وأطيبهما» «١» ، وفى رواية : «أبرهما وأوفاهما» ، وَسارَ بِأَهْلِهِ أي : امرأته ، نحو مصر ، قال مجاهد : ثم استأذن موسى أن يزور

---

(١) أخرجه البخاري فى (الشهادات ، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤) ، عن ابن عباس ، موقوفا. وأخرجه البزّار (كشف الأستار ٣/ ٦٣) ، والحاكم فى (التفسير ٢/ ٤٠٧) ، والطبري (٢٠/ ٦٨) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعا. وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٨٩٣ - ٨٩٤).

أهله بمصر ، فأذن له ، فسار بأهله فى البرّيّة ، فأوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن ، فى ليلة مظلمة

شديدة البرد ، وكان أخذ على غير طريق ، يخاف ملوك الشام – قلت : ولعلهم كانوا من تحت يد فرعون – فأخذ امرأته الطّلق ، فقدح زنده ، فلم يور ، فآنس من جانب الطور نارا. هـ.

وقال ابن عطاء : لما تم أجل المحنة ، [ودنت] «١» أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة ، سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه. هـ. آنَسَ أي : أبصر مِنْ جانِبِ الطُّورِ أي : من الجهة التي تلو الطور ناراً ، قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ عن الطريق لأنه كان ضل عنها ، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ أي : قطعة وشعلة منها ، والجذوة – مثلثة الجيم : العود الذي احترق بعضه ، وجمعه : «جذى». لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سنّة المتواضعين. وفى بعض الأخبار : «اصطلوا» فإن الجبابرة لا يصطلون».

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ بالنسبة إلى موسى ، أي : عن يمين موسى ، فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ بتكليم اللّه تعالى فيها ، مِنَ الشَّجَرَةِ بدل من «شاطئ» بدل اشتمال ، أي : من ناحية الشجرة ، وهى العنّاب ، أو العوسج «٢» ، أو : سمرة «٣». وقال وهب : عليقا «٤». أَنْ يا مُوسى . أي : يا موسى ، أو : إنه يا موسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ، قال البيضاوي : هذا ، وإن خالف ما فى «طه» و«النمل» لفظا ، فهو طبقه فى المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق : أبصر نارا ، دلته على الأنوار لأنه رأى النور على هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به جلابيب الأنس ، فخاطبه اللّه بألطف خطاب ، واستدعى منه أحسن جواب ، فصار بذلك مكلّما شريفا ، أعطي ما سأل ، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري : فكان موسى عند الشجرة ، والنداء من اللّه لا منها ، وقد حصل الإجماع أن موسى ، تلك الليلة ، سمع كلام اللّه ، ولو كان النداء من الشجرة لكانت المتكلمة هى ، فلأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء منها ، وإلا فنحن نجوز أن يخلق اللّه نداء فى الشجرة. هـ. قلت : وسيأتى فى الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص ، وما قاله – هو مذهب أهل الظاهر.

---

(١) فى الأصول [ودنا].

(٢) شجر من فصيلة الباذنجيات ، شائك الأغصان واحدته : عوسجة. انظر اللسان (٤/ ٢٩٣٧. مادة عسج).

(٣) السمرة : شجرة من العضاه ، وهى من جيد الخشب ، والجمع سمر وسمرات. انظر اللسان (٣/ ٢٠٩٢. مادة سمر).

(٤) العليق. شجر من شجر الشوك لا يعظم. وإذا نشب فيه شيء لم يكن يتخلص منه من كثرة شوكه. ولذلك سمى عليقا. انظر اللسان (٤/ ٣٠٧٤. مادة علق).

ثم قال تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، أي : نودى : أن ألق عصاك ، فألقاها ، فقلبها اللّه ثعبانا ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ تتحرك كَأَنَّها جَانٌّ حية رقيقة. فإن قيل : كيف قال فى موضع : (كأنها جان) ، وفى أخرى : فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «١»؟ قلت : هى فى أول أمرها جان ، وفى آخر أمرها ثعبان لأنها كانت تصير حية على قدر العصا ، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان ، أو : يريد فى سرعة الجان وخفته ، وفى قوة الثعبان. فلما رآها كذلك وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ولم يرجع عقبه. فقيل له : يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ، أي :

أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

واسْلُكْ : أدخل يَدَكَ فِي جَيْبِكَ جيب قميصك تَخْرُجْ بَيْضاءَ لها شعاع كشعاع الشمس مِنْ غَيْرِ سُوءٍ برص. وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، أي : الخوف ، فيه لغات : «الرّهب» ، بفتحتين ، وبالفتح والسكون ، وبالضم معه ، وبضمتين. والمعنى : واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (كل خائف ، إذا وضع يده على صدره ، ذهب خوفه «٢». وقيل :

المراد بضم يده إلى جناحه تجلده ، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية ، حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما.

فَذانِكَ أي : اليد والعصا ، ومن شدد فإحدى النونين عوض من المحذوف ، بُرْهانانِ أي : حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهانا لإنارتها ، من قولهم : بره الشيء : إذا ابيض ، والمرأة برهاء وبرهرهة : أي : بيضاء.

مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أي : أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ : خارجين عن الحق ، كافرين باللّه ورسوله.

الإشارة : قد تقدم فى سورة «طه» «٣» بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد ، بعد كمال تربيته ، كمال ، وأما قبل كماله : فإن كان بإذن شيخه فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره.

قوله تعالى : وَسارَ بِأَهْلِهِ قال الورتجبي : افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ.

وقوله تعالى : آنَسْتُ ناراً قال الورتجبي : الحكمة فى ذلك : أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة ، لذلك تجلى النور فى النار لاستئناسه بلباس [الاستئناس] «٤» ، ولا تخلو النار من الاستئناس ، خاصة فى الشتاء ، وكان شتاء ، فتجلى الحق بالنور فى لباس النار لأنه كان فى طلب النار ، فأخذ الحق مراده ، وتجلى من حيث إرادته ، وهو سنة اللّه تعالى. هـ.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٧).
(٣) راجع المجلد الثالث ، ص : ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٤) فى الورتجبي : «الالتباس».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٠
وقوله تعالى : مِنَ الشَّجَرَةِ أي : نودى منها حقيقة إذ ليس فى الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره ، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال فى العوارف : الصوفي لتجرده ، يشهد التالي كشجرة موسى ، حيث أسمعه اللّه خطابه منها ، بأني أنا اللّه لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من اللّه ، بلا واسطة ، قد سقطت الوسائط فى حقهم ، حين غرقوا فى بحر شهود الذات ، فافهم. وقال فى القوت : كانت الشجرة وجهة موسى عليه السّلام ، كلمه اللّه عز وجل منها ، كما قال بعضهم : إن قوله تعالى : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ «١» ، أي : بالجبل ، كان الجبل من جهة الحس حجابا لموسى ، كشفه اللّه عنه ، فتجلى به ، كما قال : مِنَ الشَّجَرَةِ فكانت الشجرة وجهة له عليه السّلام هـ ، بإيضاح. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر اعتذار موسى ، وطلبه الإعانة بأخيه ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]
قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (٣٥)
يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى - لما كلف بالرسالة إلى فرعون : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ بها ، وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً أي : عونا. يقال : ردأته : أعنته. وقرأ نافع : بالتخفيف ، يُصَدِّقُنِي : جواب الأمر ، ومن رفعه جعله صفة لردء ، أي : ردءا مصدقا لى.
ومعنى تصديقه : إعانته بزيادة البيان ، فى مظان الجدال ، إن احتاج إليه ليثبت دعواه ، لا أن يقول له : صدقت ، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان ، وأما قوله : صدقت فسحبان وباقل فيه مستويان. إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ فى دعوى الرسالة.
قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ أي : سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد ، فشد العضد

كناية عن التقوية لأن العضد ، إذا اشتد ، قوي على محاولة الأمور ، أي : سنعينك بأخيك ، وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً غلبة وتسلطا وهيبة فى قلوب الأعداء ، فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما ، بِآياتِنا بسبب آياتنا ، القاهرة لهم عن التسلط

---

(١) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف ، ومن الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

عليكم ، فالباء تتعلق بيصلون ، أو : بنجعل لكما سلطانا ، أي : تسلطا بآياتنا ، أو : بمحذوف ، أي : اذهبا بآياتنا ، أو : هو بيان لغالبون ، أي : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ ، أي : المنصورون.

الإشارة : إذا اجتمع فى زمان نبيان ، أو : وليان ، لا تجدهما إلا متخالفين فى القوة والليونة ، أو فى السكر والصحو ، فكان موسى فى غاية القوة ، وأخوه فى غاية الليونة ، وكان موسى عليه السّلام فى أول الرسالة غالبا عليه الجذب ، وأخوه غالبا عليه الصحو ، فلذلك استعان به. قال الورتجبي : افهم أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين ، الذي يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق [وأسراره ، بعبارة لا تكون بشيعة] «١» فى موازين العلم. وهذا حال نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، حيث قال : «أن أفصح العرب» «٢» ، و«بعثت بجوامع الكلم» «٣». وهذه قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن ، الذي بلغ مشاهدة الخاص ، ومخاطبة الخاص ، وكان موسى عليه السّلام فى محل السكر فى ذلك الوقت ، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان لأن كلامه ، لو خرج على وزان حاله ، يكون على نعوت الشطح ، عظيما فى آذان الخلق ، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق ، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله : وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة ، التي كان مخصوصا بها عن أخيه. هـ.

ثم ذكر عناد فرعون وتجبره ، قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا معجزاتنا التسع بَيِّناتٍ واضحات قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً سحر تعمله أنت ، ثم تفتريه على اللّه ، أو : سحر موصوف بالافتراء ، كسائر أنواع

---

(١) عبارة الورتجبي [وأسراره بعباده لا يكون شفيعة].

(٢) قال فى اللآلئ : معناه صحيح ، ولكن لا أصل له. انظر : كشف الخفاء (١/ ٢٣٢ ، ح ٦٠٩).

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب قول النبي/ صلى اللّه عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، ح ٢٩٧٧). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٢

السحر ، وليس بمعجزة من عند اللّه ، وَما سَمِعْنا بِهذا ، يعنى : السحر ، أو : ادعاء النبوة ، فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ ، الجار : حال منصوبة بهذا ، أي : ما سمعنا بهذا كائنا فى آبائنا ، أي : ما حدّثنا بكونه فيهم ، ولا موجودا فى آبائهم.

وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ، فيعلم أنى محق ، وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير : «قال» بغير واو جوابا لمقالتهم. وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ أي : العاقبة المحمودة ، فإن المراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها الأصلية هى الجنة لأن الدنيا خلقت معبرا ومجازا إلى الآخرة ، والمقصود منها ، بالذات ، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم ، أو العقاب الأليم ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ لا يفوزون بالهدى فى الدنيا ، وحسن العاقبة فى العقبى.

قال النسفي : قل ربى أعلم منكم بحال من أهّله اللّه للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا ، وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى ، يعنى نفسه ، ولو كان كما تزعمون ، ساحرا ، مفتريا ، لما أهله لذلك لأنه غنى حكيم ، لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبّئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون ، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ «١». والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها : أن تختم للعبد بالرحمة والرضوان ، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران. هـ.

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده ، أي : مالكم إله غيرى. قاله تجبرا ومكابرة ، وإلا فهو مقر بالربوبية لقوله تعالى حاكيا عن موسى عليه السّلام : لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ «٢» ، وروى أنه كان إذا جن الليل ، لبس المسوح وتمرغ فى الرماد.

وقال : يا رب إنى كذاب فلا تفضحنى «٣».

ثم أمر ببنيان الصرح زيادة فى الطغيان ، بقوله : فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ أي : اطبخ لى الآجر واتخذه. وإنما لم يقل مكان الطين : آجرّ لأنه أول من عمله ، فهو معلمه الصنعة بهذه العبارة ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً أي : قصرا عاليا ، لَعَلِّي أَطَّلِعُ أي : أصعد. فالطلوع والاطلاع : الصعود ، إِلى إِلهِ مُوسى ، حسب

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء.

(٣) هذا رواية باطلة ، فأولا : لا سند لها ، فهى لا تصح ، وثانيا : لأنها تناقض سلوك فرعون إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ومِنَ الْمُفْسِدِينَ وطبع اللّه على قلبه وانظر إلى السطر التالي من كلام الشيخ ابن عجيبة رحمه اللّه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٣

الجاهل أنه فى مكان مخصوص ، كما كان هو فى مكان ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ أي : موسى مِنَ الْكاذِبِينَ فى دعواه أن له إلها ، وأنه أرسله إلينا رسولا.

وهذا تناقض من المخذول ، فإنه قال أولا : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، ثم أظهر حاجته إلى هامان ، وأثبت لموسى إلها ، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه ، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصا موسى فلبّس وقال : لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى . روى أنه لما أمر وزيره هامان ببناء الصرح ، جمع هامان العمال ، خمسين ألف بنّاء ، سوى الأتباع والأجراء – فبنوا ، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط ، منذ خلق اللّه السموات والأرض. أراد اللّه أن يفتنهم فيه ، فصعده فرعون وقومه ، ورموا بنشّابة نحو السماء ، فرجعت ملطّخة بالدم ، فقال : قد قتلنا إله السماء ، فضرب جبريل الصرح بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ، وقطعة على البحر ، وقطعة فى الغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك «١». هـ.

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ تعاظم فِي الْأَرْضِ أرض موسى بِغَيْرِ الْحَقِّ بغير استحقاق ، بل بالباطل ، فالاستكبار بالحق هو للّه تعالى ، وهو المتكبر المتعالي ، المبالغ فى كبرياء الشأن ، كما فى الحديث القدسي : «الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته» «٢» ، أو : ألقيته فى النار ، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق. وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي : بالبناء للفاعل. والباقي : للمفعول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء ، وهو عالم الجبروت ، فلما هبطت إلى عالم الأشباح ، وكلفت بالعبودية ، وبالخضوع لقهرية الربوبية ، شق عليها ، ونفرت من التواضع والذل ، وبطشت إلى أصلها لأنها من عالم العز ، فبعث اللّه الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها ، من الذل والتواضع والخضوع للحق ، حتى تصل إلى الحق ، فمن سبق له الشقاء أنف ، وقال : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، واستكبر وطغى ، فغرق فى بحر الردى. ومن سبقت له السعادة تواضع ، وذل لعظمة مولاه ، فوصله إلى العز الدائم ، فى حضرة جماله وسناه.

ولذلك قيل : للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون ، حيث قال : أنا ربكم الأعلى.

وهذه الخاصية هى أصل نشأتها وبروزها ، حيث برزت من عالم الجبروت قال تعالى : (و نفخت فيه من روحى) ، ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار ، كما قال الشاعر :

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩). وقال القرطبي (٦/ ٥١٤٩) : واللّه أعلم بصحة ذلك.

(٢) أخرجه أبو داود فى (اللباس ، باب ما جاء فى الكبر ، ٤/ ٣٥٠ ، ح ٤٠٩٠) وابن ماجه فى (الزهد ، باب البراءة من الكبر ، ٢/ ١٣٩٧ ، ح ٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، بلفظ : «ألقيته فى النار» وأخرجه مسلم - من حديث أبى سعيد الخدري ، وأبى هريرة فى (البر والصلة ، باب تحريم الكبر ، ٤/ ٢٠٢٣ ، ح ٢٦٢٠) بلفظ : «العز إزاره ، والكبرياء ردائه - فمن ينازعنى عذبته».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٤

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

إذا كان من تهوى عزيزا ، ولم تكن ذليلا له ، فاقر السّلام على الوصل

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب ، وهو التذلل والخضوع ، كما قال القائل :

أدب العبد تذلّل والعبد لا يدع الأدب

فإذا تكامل ذلّه نال المودّة ، واقترب.

ثم ذكر وبال من تكبر على اللّه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)
يقول الحق جل جلاله : فَأَخَذْناهُ فأخذنا فرعون وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ طرحناهم فِي الْيَمِّ فى بحر القلزم ، كما بيّناه غير مرة. وفى الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ ، شبههم استحقارا لحالهم ، واستقلالا لعددهم ، وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه ، فطرحهن فى البحر. فَانْظُرْ يا محمد كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، وحذّر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، فإنهم ظالمون ، حيث كفروا وأشركوا ، وتحقّق أنك منصور عليهم ، كما نصر موسى على فرعون.
وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً قادة يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، أي : إلى عمل أهل النار من الكفر ، والمعاصي ، قال ابن عطاء : نزع عن أسرارهم التوفيق ، وأنوار التحقيق ، فهم فى ظلمات أنفسهم ، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد. هـ. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ بدفع العذاب عنهم ، كما يتناصرون اليوم ، فى دفع الظلم عنهم ، وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ألزمناهم طردا وإبعادا عن الرحمة. وقيل : هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ المطرودين المعذبين ، أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون. ويَوْمَ : ظرف للمقبوحين. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : عاقبة من تكبر فى دار العبودية : الذل والهوان ، وعاقبة من تواضع ، وذل فيها : العز والأمان ، وعاقبة من كان إماما فى المساوئ والعيوب : البعد والحجاب ، ومن كان إماما فى محاسن الخلال وكشف الغيوب :

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٥
العزّ والاقتراب. قال القشيري على قوله : وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً إلخ : كانوا فى الدنيا مبعدين عن معرفته ، وفى الآخرة مبعدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق. هـ.
ولما أغرق أهل الظلم والعناد ، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد ، كما قال تعالى :
[سورة القصص (٢٨) : آية ٤٣]
وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ : التوراة مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى قوم نوح وهود وصالح ولوط – عليهم السلام – ، حال كون الكتاب بَصائِرَ لِلنَّاسِ أنوارا لقلوبهم ، يتبصرون الحقائق ، ويميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة : عين القلب ، الذي يبصر بها الحق ، ويهتدى بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يبصر بها الحسيات ، أي : آتيناه التوراة ، أنوارا

للقلوب التي كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل ، وَهُدىً وإرشادا إلى الشرائع لأنهم كانوا يخبطون فى الضلال.

وَرَحْمَةً لمن اتبعها لأنهم ، إذا عملوا بها ، وصلوا إلى نيل الرحمة ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، أي : ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر والاتعاظ. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إنما تطيب المنازل إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحباب إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب ، فلما أهلك اللّه فرعون وجنوده ، وأورث بنى إسرائيل ديارهم ، ومحى عن جميعها آثارهم ، طاب عيشهم ، وظهرت سعادتهم ، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.

ثم ذكر دلائل نبوته صلى اللّه عليه وسلم ، بعد ذكر قصة موسى لاشتراكهما فى شدة المعالجة ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٤ الى ٤٦]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما كُنْتَ يا محمد بِجانِبِ المكان الْغَرْبِيِّ من الطور ، وهو الذي كلم اللّه فيه موسى ، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي : إذا استقبلت القبلة ، وأنت بالشام ، كان الجبل يمينا منك ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٦

غريبا ، غير أنه قال فى قصة موسى : جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ «١» ، وصفه بالصفة المشتقة من اليمن والبركة ، لتكليمه إياه فيه ، وحين نفى عن محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يكون بذلك الجانب ، قال : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ ، والغربي هو الأيمن. والعدول عنه ، فى حالة النفي للاحتراس من توهم نفى اليمن عنه صلى اللّه عليه وسلم ، وكيف ، وهو صلى اللّه عليه وسلم لم يزل بصفة اليمن وآدم بين الماء والطين! فحسن اللفظ أصل فى البلاغة ، ومجانبة الاشتراك الموهم : من فصيح بديع الفصاحة. هـ.

أي : وما كنت حاضرا بذلك الموضع ، إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ، أي : كلمناه ، وقربناه نجيا ، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون ، وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، أي : من جملة الشاهدين فتخبر بذلك ،

ولكن أعلمناك من طريق الوحى ، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور ، والمراد : الدلالة على أن إخباره بذلك من قبل الإخبار بالمغيبات التي لا تعرف إلا بالوحى ، ولذلك استدرك عنه بقوله :

وَلكِنَّا أَنْشَأْنا بعد موسى قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ

، أي : طالت أعمارهم ، وفترت النبوة ، وانقطعت الأخبار ، واندرست العلوم ، ووقع التحريف فى كثير منها ، فأرسلناك مجدّدا لتلك الأخبار ، مبينا ما وقع فيها من التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء ، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها ، فكأنه قال : وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك ، فأخبرت به ، بعد اندراسه.

وَما كُنْتَ ثاوِياً مقيما فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، وهم شعيب والمؤمنون به ، تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا تقرؤها عليهم ، تعلما منهم ، أو : رسولا إليهم تتلوها عليهم بوحينا ، كما تلوتها على هؤلاء ، يريد : الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه ، وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ لك ، فأخبرناك بها ، وعلّمناك إياها ، فأخبرت هؤلاء بها ، وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا موسى ، أن خذ الكتاب بقوة ، أو ناجيناه فى أيام الميقات ، وَلكِنْ علمناك وأرسلناك رَحْمَةً أي : للرحمة مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً جاهلية ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ فى زمان الفترة التي بينك وبين عيسى ، وهى خمسمائة وخمسون سنة ، أو : بينك وبين إسماعيل ، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لعل من أرسلت إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال ، فينزع ويرجع. وبالله التوفيق.

الإشارة : المراد من هذه الآيات : تحقيق نبوته صلى اللّه عليه وسلم ومعرفته الخاصة ، وهى سلّم ، ومعراج إلى معرفة اللّه تعالى لأنه الواسطة العظمى ، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت اللّه تعالى ، فمنه صلى اللّه عليه وسلم استمدت العلوم كلها علم

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة مريم ، والآية ٨٠ من سورة طه.

الربوبية ، من طريق البرهان ، وعلمها من طريق العيان ، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان ، ومعرفة نبوته صلى اللّه عليه وسلم ضرورية لا تحتاج إلى برهان ، ويرحم اللّه القائل :

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة «١» لكان منظره ينبيك بالخبر.

وقد تقدم فى الأعراف «٢» التنويه به ، وذكر شرفه ، وشرف أمته ، قبل ظهوره ، وإليه الإشارة هنا بقوله :

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ، أي : إذ نادينا بأمرك ، وأخبرنا بنبوتك ، روى عن أبى هريرة أنه نودى يومئذ من السماء : يا أمّة محمّد ، استجبت لكم قبل أن تدعونى ، وغفرت لكم قبل أن تسألونى ، فحينئذ قال موسى – عليه السّلام : اللهم اجعلنى من أمة محمد. هـ «٣».

وقال القشيري : أي : لم تكن حاضرا تتعلم ذلك مشاهدة ، فليس إلا تعريفنا إياك ، واطلاعنا لك على ذلك.

ويقال : إذ نادينا موسى ، وخاطبناه ، وكلمناه فى بابك وباب أمّتك ، وما طلب موسى لأمته جعلناه لأمتك ، فكونى لكم : خير لكم من كونكم لكم ، فلم تقدح فيكم غيبتكم فى الحال ، كما أنشدوا : كن لى كما كنت لى فى حين لم أكن. هـ.

ويقال : لما خاطب موسى وكلمه ، سأله موسى ، إنه رأى فى التوراة أمة صفتهم كذا وكذا ، من هم؟ فقال : هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافا كثيرة ، فاشتاق إلى لقائهم ، فقال له : ليس اليوم وقت حضورهم ، فإن شئت أسمعناك كلامهم ، فأراد ذلك ، فنادى : يا أمة محمد فأجاب الكل من أصلاب آبائهم ، فسمع موسى كلامهم ، ثم لم يتركهم كذلك ، بل زادهم من الفضائل لأن الغنى إذا دعا فقيرا فأجابه لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ.

وقال الطبري : معنى قوله : إِذْ نادَيْنا أي : بقوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ... الآية. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إرساله. فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

---

(١) فى الأصول [لو لم تكن له آية مبينة].

(٢) عند تفسير الآيتين : ١٥٦ – ١٥٧.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٠/ ٨١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٨

قلت : (لو لا) الأولى : امتناعية ، وجوابها محذوف ، أي : ولو لا أنهم قائلون إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك ، محتجين علينا : (هلا أرسلت إلينا رسولا ..) إلخ لما أرسلناك.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ، أي : عقوبة فى الدنيا والآخرة ، بِما بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من الكفر والظلم ، ولمّا كانت أكثر الأعمال إنما تناول بالأيدى ، نسب الأعمال إلى الأيدى ، وإن كانت من أعمال القلوب تغليبا للأكثر على الأقل ، فَيَقُولُوا عند نزول العذاب : رَبَّنا لَوْ لا هلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا ينذرنا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فلو لا احتجاجهم بذلك علينا لما أرسلناك ، فسبب الإرسال هو قولهم : هلا أرسلت .. إلخ.

ولما كانت العقوبة سببا للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال ، فدخلت «لو لا» الامتناعية عليها ، فرجع المعنى إلى قولك : ولو لا قولهم هذا ، إذا أصابتهم مصيبة ، لما أرسلناك.

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا القرآن المعجز ، أو الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، قالُوا أي : كفار مكة اقتراحا وتعنتا : لَوْ لا : هلا أُوتِيَ من المعجزات مِثْلَ ما أُوتِيَ أعطى مُوسى من اليد والعصا ، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفُرُوا أي : أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم على مذهبهم ، وعنادهم مثل عنادهم ، وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السّلام ، قد كفروا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ من قبل القرآن ، قالُوا فى موسى وهارون : سِحْرانِ «١» تَظاهَرا : تعاونا ، أو : فى موسى ومحمد – عليهما السلام – بإظهار تلك الخوارق ، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون : «سحران» بتقدير مضاف ، أي : ذوا سحر ، أو : جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر. وَقالُوا أي : كفرة موسى وكفرة محمد صلى اللّه عليه وسلم : إِنَّا بِكُلٍّ بكل واحد منهما كافِرُونَ.

وقيل : إن أهل مكة ، لمّا كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى وبالتوراة ، وقالوا فى محمد صلى اللّه عليه وسلم وموسى : ساحران تظاهرا ، أو فى التوراة والقرآن : سحران تظاهرا ، أو : ذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «سحران» بكسر السين وسكون الحاء ، بلا ألف ، وقرأ الباقون : «ساحران» بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء ... انظر : الإتحاف (٢/ ٣٤٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٩

يسألونهم عن محمد ، فأخبروهم أنه فى كتابهم ، فرجع الرهط إلى قريش ، فأخبروهم بقول اليهود ،

فقالوا عند ذلك : «١» سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ.
قُلْ لهم : فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما مما أنزل على موسى ، ومما أنزل علىّ ، أَتَّبِعْهُ : جواب : فأتوا ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنهما ساحران ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ الزائغة ، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أي : لا أحد أضل ممن اتبع فى الدين هواه بغير هدى ، أي : بغير اتباع شريعة من عند اللّه. وبِغَيْرِ هُدىً : حال ، أي : مخذولا ، مخلّا بينه وبين هواه ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والتقليد. وباللّه التوفيق.
الإشارة : لو لا احتجاج الناس على اللّه يوم القيامة ، حين تصيبهم نقائص عيوبهم ، ما بعث اللّه فى كل زمان نذيرا طبيبا ، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس ، قالوا : لو لا أوتى مثل ما أوتى فلان وفلان من كرامات المتقدمين ، فيقال لهم : قد كان من قبلكم من الأولياء لهم كرامات ، فكذّبوهم ، وأنكروا عليهم ، ورموهم بالسحر والتبدع وغير ذلك ، وبقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللّه ، أي : بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة اللّه ، إن اللّه لا يهدى القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.
ثم ذكر حكمة تفريق القرآن ، ردا على من قال : لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى من إنزاله جملة ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥١]

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

قلت : يقال : وصلت الشيء : جعلته موصولا بعضه ببعض ، ويقال : وصلت إليه الكتاب : أبلغته.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ أي : لقريش ولغيرهم ، الْقَوْلَ القرآن ، أي : تابعناه موصولا بعضه ببعض فى المواعظ والزواجر ، والدعاء إلى الإسلام. قاله ابن عطية. وقال ابن عرفة اللّغوي : أي :
أنزلناه شيئا بعد شيء ، ليصل بعضه ببعض ، ليكونوا له أوعى. هـ. وتنزيله كذلك ليكون أبلغ فى التذكير ولذلك قال : لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، يعنى : أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ، ووعيدا ، وقصصا ، وعبرا ، ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل : معنى وصلنا : أبلغنا. وهو أقرب لتبادر الفهم ، وفى البخاري : أي : «بيّنا وأتممنا» «٢». وهو عن ابن عباس.
وقال مجاهد : فصّلنا. وقال ابن زيد : وصلنا خير الدنيا بخير الآخرة ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢١٢).
(٢) ذكره البخاري فى (التفسير – سورة القصص ، ٨/ ٣٦٥ فتح).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٠

الإشارة : تفريق المواعظ فى الأيام ، شيئا فشيئا ، أبلغ وأنفع من سردها كلها فى يوم واحد. وفى الحديث :

«كان صلى اللّه عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة ، مخافة السآمة علينا» «١» ، والتخول : التعاهد شيئا فشيئا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من آمن به وعرف قدره ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٥]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (٥٥)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، (و هم به) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن هُمْ بِهِ أي : القرآن يُؤْمِنُونَ ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ، أو : النجاشي وقومه ، أو : نصارى نجران ، الذين قدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ، وهم عشرون رجلا ، فآمنوا به. قال ابن عطية : ذكر هؤلاء مباهيا بهم قريشا. هـ. أي : فهم الذين يقدرون قدر هذا الكتاب المنزل لما معهم من العلم الذي ميزوا به الحق ، ولذلك قال : وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا لما عرفوا فى كتابهم من نعت النبي صلى اللّه عليه وسلم وكتابه ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن ، أو : من قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، مُسْلِمِينَ كائنين على دين الإسلام ، مومنين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم. فقوله : إِنَّهُ : تعليل للإيمان به لأن كونه حقا من عند اللّه حقيق بأن يؤمن به. وقوله : إِنَّا : بيان لقوله : آمَنَّا لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد أو بعيده ، فأخبروه بأن إيمانهم به متقادم.

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا بصبرهم على الإيمان بالتوراة ، والإيمان بالقرآن ، أو : بصبرهم على الإيمان بالقرآن ، قبل نزوله وبعده ، أو : بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفى الحديث : «ثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتخولهم بالموعظة .. ح ٦٨)

، ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب الاقتصاد فى الموعظة ، ٤/ ٢١٧٢ ، ح ٢٨٢١) من حديث سيدنا عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

(٤/٢٦٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦١

يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، ثم آمن بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، ورجل مملوك أدى حق اللّه وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأعتقها وتزوجها» «١».

وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ يدفعون الخصلة القبيحة بالخصلة الحسنة ، يدفعون الأذى بالسلم ، والمعصية بالطاعة. وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يتصدقون ، أو يزكون ، وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ الباطل ، أو الشتم من المشركين ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا للاغين : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أمان منا عليكم ، لا نقابل لغوكم بمثله ، لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، أو : لا نبتغى دين الجاهلين ، أو محاورة الجاهلين وجدالهم ، أو : لا نريد أن نكون جهالا.

وفى السير : أن أصحاب النجاشي لمّا كلمهم جعفر رضي اللّه عنه فى مجمع النجاشي ، بكوا ، ووقر الإسلام فى قلوبهم ، فقدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ، فقرأ عليهم القرآن ، فأسلموا ، وقالوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا .. الآية. فلما خرجوا من عنده صلى اللّه عليه وسلم استقبلتهم قريش فسبوهم ، وقالوا : ما رأينا قوما أحمق منكم ، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل ، فقالوا لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. إلخ «٢».

الإشارة : من تحمّل من العلماء مشقة تحمّل العلم الظاهر ، ثم ركب أهوال النفس ومحاربتها فى تحصيل العلم الباطن ، فهو ممن يؤتى أجره مرتين ، وينال عز الدارين ضعفين بسبب صبره على العلمين ، وارتكاب الذل مرتين ، إذا اتصف بما اتصف به أولئك ، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة ، وينفق مما رزقه اللّه من الحس والمعنى ، كالعلوم والمواهب ، ويعرض عن اللغو – وهو كل ما يشغل عن شهود اللّه – ويحلم عن الجاهل ، ويرفق بالسائل. وباللّه التوفيق.

ولما حرص صلى اللّه عليه وسلم على إسلام عمه ، نزل :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٦]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب تعليم الرجل أمته وأهله ح ٩٧) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى جميع الناس ، ١/ ١٣٤ ، ح ٢٤١) من

حديث أبى موسى الأشعري رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٩٤) لمحمد بن إسحاق فى السيرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٢

يقول الحق جل جلاله : إِنَّكَ يا محمد لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، أي : لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم ، يعنى : أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية ، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق ، ولو كان أكمل الخلق. وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ يخلق الهداية فى قلب من يشاء ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب ، وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بنى هاشم صدقوا محمدا تفلحوا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا عمّ تأمرهم بالنّصيحة لأنفسهم ، وتدعها لنفسك!» فقال : ما تريد يا ابن أخى؟

فقال : «أريد منك أن تقول : لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها عند اللّه». فقال : يا ابن أخى أنا قد علمت أنك صادق ، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت. هـ. وفى رواية قال : (لو لا أن تعيرنى نساء قريش ، ويقلن : إنه حملنى على ذلك الجزع ، لأقررت بها عينك) «١». وفى لفظ آخر عند البخاري : قال له : «يا عم ، قل : لا إله إلا اللّه ، أحاجّ لك بها عند اللّه». فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال : بل على ملّة عبد المطلب ، فنزلت الآية «٢».

وفيها دليل على المعتزلة لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، وقد هدى اللّه الناس أجمع ، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم ، فدلت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء ، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الآية ليست خاصة بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، بل هى عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته ، كتب شيخ أشياخنا ، سيدى «أحمد بن عبد اللّه» ، إلى شيخه ، سيدى «أحمد بن سعيد الهبرى» يشكو له ابنه حيث لم ير منه ما تقر به عينه ، فكتب إليه : أخبرنى : ما الذي بنيت فيه؟ دع الدار لبانيها ، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفى اللباب – بعد كلام – : قد رضى اللّه على أقوام فى الأزل ، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب ، وسخط على أقوام فى الأزل ، فاستعملهم فى أسباب السّخط بلا سبب. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ «٣» الآية.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، ١/ ٥٥ ، ح ٤٢)

من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة القصص ، ح ٤٧٧٢) ، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١ ، ٥٤ ، ح ٣٩) ، من حديث سعيد ابن المسيب رضي اللّه عنه.
(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٣
وهذه الآية تخاطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقولها : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، والحكم عام فى كل أحد ، وقد خص رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأتم الفضائل وأعلى الوسائل ، حتى لم يسبق لفضيلة ، ولم يحتج لوسيلة ، وليس له فى ذلك نظر ، بل سابقة السعادة أيدته ، والخصوصية قرّبته ، ولو كان له فى التقدير نظر ما منع من الشفاعة فى عمه أبى طالب ، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل ، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان ، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آرز ، أو بيد محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنقذ عمه أبا طالب ، جذبت العناية سلمان من فارس ، وصاحت على بلال من الحبشة ، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحان من أعطى ومنع ، وضر ونفع. هـ.
ولما دعى صلى اللّه عليه وسلم قومه إلى الإسلام ، تعللوا بعلل واهية ، كما قال تعالى :
[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٧]
وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)
قلت : (رزقا) : حال من (الثمرات) لتخصيصه بالإضافة ، أو مصدر لتجبى لأن معناه : نرزق ، أو : مفعول له.
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى وندخل مَعَكَ فى هذا الدين نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أي : تخطفنا العرب وتخرجنا من أرضنا. نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل ، أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف ، إن اتبعناك وخالفنا العرب ، وإنما نحن أكلة رأس ، أن يتخطفونا من أرضنا ، فردّ اللّه عليهم بقوله : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أو لم نجعل مكانهم حرما ذا أمن بحرمة البيت ، يأمن فيه قطانه ، ومن التجأ إليه من غيرهم؟ فأنّى يستقيم أن نعرضهم للتخطف ، ونسلبهم الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟
يُجْبى «١» إِلَيْهِ ، أي : تجمع وتجلب إليه من كل أوب ، ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ أي : كل صنف ونوع. ومعنى

الكلّيّة : الكثرة كقوله : وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ «٢» ، رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ، ونعمة من عندنا ، وإذا كان هذا حالهم ، وهم عبدة الأصنام ، فكيف إذا أووا إلى كهف الإسلام ، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر : «تجبى» بالتاء من فوق ، وقرأ الباقون : «يجبى». بالياء من تحت. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٥).

(٢) من الآية ٢٣ من سورة النمل.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٤

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي : جهلة ، لا ينفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته ، إن أسلموا. وقيل : يتعلق بقوله : مِنْ لَدُنَّا ، أي : قليل منهم يتدبرون ، فيعلمون أن ذلك رزق من عند اللّه ، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ، ولو علموا أنه من عند اللّه لعلموا أن الخوف والأمن من عند اللّه ، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ترى كثيرا من الناس ، ممن أراد اللّه حرمانه من الخصوصية ، يتعلل بهذه العلل الواهية ، يقول : إن دخلنا فى طريق القوم رفضنا الناس ، وأنكر علينا أقاربنا ، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم : أو لم أمكّن لأوليائى ، المتوجهين إلى حضرة القدس ، حرما آمنا تجبى لأهلها الأرزاق من كل جانب ، بلا حرص ولا طمع ولا سبب ، ولكن أكثر الناس جهالا بهذا ، وقفوا مع العوائد ، فحرموا الفوائد ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

ثم خوفهم بقوله :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩)

قلت : «كم» : منصوب بأهلكنا. والبطر : الطغيان عند النعمة. قال فى القاموس : البطر – محركة : النشاط ، والأشر ، وقلة احتمال النعمة ، والدهش ، والحيرة ، والطغيان بالنعمة ، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية ، فعلى الكل : كفرح. هـ. و(معيشتها) : نصب بحذف الجار واتصال الفعل ، أي : فى معيشتها. وجملة (لم تسكن) :

حال ، والعامل فيها : الإشارة.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ ، أي : كثيرا أهلكنا من أهل قرية ، كانت حالهم كحالهم فى الأمن والدعة ، وخصب العيش ، من وصفها بَطِرَتْ في مَعِيشَتَها ، أي : طغت وتجبرت ولم تشكر ، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري : لم يعرفوا قدر نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أموالهم ، وانتظام أمورهم ، فهاموا فى أودية الكفران على وجوههم ، وخرّوا فى وهدة الطغيان على أذقانهم ، فدمر اللّه عليهم وخرب ديارهم.

فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ خاوية ، أو : فتلك منازلهم باقية الآثار ، يشاهدونها فى الأسفار كبلاد ثمود ، وقرى لوط ، وقوم شعيب ، وغيرهم ، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا من السكنى ، أي : لم يسكنها إلا المسافر ، أو مار

(٢٦٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٥

بالطريق يوما أو ساعة ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ لتلك المساكن من سكانها ، أي : لا يملك التصرف فيها غيرنا.

وفيه إشارة لوعد النصر لمتبع الهدى ، وأن الوراثة له ، لا أنه يتخطف كما قد قيل ، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة اللّه ، ويتبع هواه ، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل : إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى ، فإنه الذي جرت سنة اللّه فيه بالهلاك ، وأما متبع الهدى فهو آمن والعاقبة له.

وَما كانَ رَبُّكَ وما كانت عادته مُهْلِكَ الْقُرى بذنب حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها ، أي : القرية التي هى أصلها ومعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. رَسُولًا لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، أو : ما كان فى حكم اللّه وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أمها ، وهى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها.

رَسُولًا يعنى : محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا القرآن ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ ، أي : وما أهلكناهم للانتقام ، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم ، وهو إصرارهم على الكفر والمعاصي ، والعناد ، بعد الإعذار إليهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وكم خرّبنا من قلوب وأخليناها من النور ، حيث طغت وتجبرت فى معيشتها ، وانشغلت بحظوظها وشهواتها ، فتلك أماكنها خاوية من النور ، لم تسكن بالنور إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين لها ، فأعطينا ذلك النور غيرها ، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يذكرها وينذرها ، وما كنا مهلكى قلوب ومتلفيها إلا وأهلها ظالمون ، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. واللّه تعالى أعلم.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا ، ولذلك حقّر اللّه تعالى شأنها ، حيث قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)

قلت : «ما» : شرطية ، وجملة : (فمتاع ..) إلخ : جوابه.

يقول الحق جل جلاله : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ من زهرة الدنيا فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها أي : أىّ شىء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة ، أياما قلائل ، وهى مدة الحياة الفانية ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من النعيم الدائم فى الدار الباقية ثوابا لأعمالكم خَيْرٌ من ذلك لأنه لذة خالصة فى بهجة كاملة.

(٤/٢٦٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٦

وَأَبْقى لأنه دائم لا يفنى ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أن الباقي خير من الفاني ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (إن اللّه خلق الدنيا ، وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر ، فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتربى ، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء» «١». رواه الترمذي.

ثم قرر ذلك بقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً ، وهو الجنة إذ لا شىء أحسن منها ، حيث اشتملت على النظر لوجه اللّه العظيم ، ولأنها دائمة ، ولذا سميت الحسنى ، فَهُوَ أي : الوعد الحسن لاقِيهِ ومدركه ، لا محالة ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى ، كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا الذي هو مشوب بالكدر والمتاعب ، مستعقب بالفناء والانقطاع ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ للحساب والعقاب ، أو : من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت فى المؤمن والكافر ، أو : فى رسول صلى اللّه عليه وسلم وأبى جهل «٢» – لعنه اللّه – ، ومعنى الفاء الأولى : أنه لمّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند اللّه عقّبه بقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ أي : أبعد هذا التفاوت الجلى نسوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد. و«ثم» : لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ : «ثم هو» بالسكون ، شبّه المنفصل بالمتصل ، كما قيل فى عضد – بسكون الضاد – .

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ يوم ينادى اللّه الكفار ، نداء توبيخ ، فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ فى زعمهم الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شركائى ، فحذف المفعول لدلالة الكلام عليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية ، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء ، قديما وحديثا ، وقد تقدم آنفا أنها لا تزن عند اللّه جناح بعوضة ، وفى حديث آخر : «ما الدنيا فى جانب الآخرة ، إلا كما يدخل أحدكم يده فى البحر ثم يخرجه ، فانظر ماذا يعلق به» «٣». بالمعنى. فنعيم الدنيا كله ، بالنسبة إلى نعيم الجنان ، كبلل الأصبع ، الذي دخل فى الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر ، ممزوج بالأهوال

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على اللّه ، ٤/ ٤٨٥ ح ٢٣٢٠) ، وابن ماجه فى (الزهد ، باب مثل الدنيا ، ٢/ ١٣٧٦ ، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠/ ٩٧) عن مجاهد.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه فى (الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا ، وبيان الحشر يوم القيامة ، ٤/ ٢١٩٣ ، ح ٢٨٥٨) من حديث المستورد أخى بن فهر رضي اللّه عنه.

والأحزان والمتاعب. وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان – رضي اللّه عنهما – : «إنما مثل الدنيا كمثل الحية ، لين مسها ، قاتل سمها ، فأعرض عنها ، وعما يعجبك منها ، لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرّ ما تكون منها ، أحذر ما تكون منها ، فإن صاحبها ، كلما اطمأن فيها إلى سرور ، أشخص منها إلى مكروه».

وعن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنه أنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن هذه الدار دار الثوى ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخائها ، ولم يحزن لشقائها – أي : لأنهما لا يدومان – ألا وإن اللّه خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطى ، ويبتلى ليجزى ، وإنها سريعة الثوى – أي : الهلاك – وشيكة الانقلاب ، فاحذروا حلاوة رضاعها ، لمرارة فطامها ، واهجروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها ، ولا تسعوا فى عمران دار قد قضى اللّه خرابها ، ولا تواصلوها وقد أراد اللّه منكم اجتنابها ، فتكونوا لسخطه متعرضين ، ولعقوبته مستحقين. هـ. ذكره ابن

وداعة الموصلي.

وذكر أيضا عن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث : شغل لا ينفد عناؤه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه ، إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه ، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها ، على فانية لا ينفك عذابها ، وقدّم لما يقدم عليه مما هو الآن فى يده ، قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه ، وقد شقى هو بجمعه واحتكاره».

ثم ذكر مآل من اغتر فيها ، قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٨

قلت : «هؤلاء» : مبتدأ. و«الذين» : صفته ، والعائد : محذوف ، و«أغويناهم» : خبر. والكاف فى «كما» : صفة لمصدر محذوف ، أي : أغويناهم غيا مثل ما غوينا ، و«لو أنهم» : جوابه محذوف ، أي : لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله : قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بالعذاب ، وثبت مقتضاه ، وهو قوله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «١» ، وهم الشياطين ، أو : أئمة الكفر : ورؤساء الكفرة : رَبَّنا هؤُلاءِ الكفرة الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ أي : دعوناهم إلى الشرك وسوّلناه لهم ، قد غووا غيا كما مثل ما غَوَيْنا يقولون : إنا لم نغو إلا باختيارنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلا ، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء اللّه لهم إلى الإيمان ، بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب ، وهذا كقوله : وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ... إلى قوله : وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ... «٢».

ثم قالوا : تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم فيما اختاروه من الكفر ، ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ، بل كانوا يعبدون أهواءهم ،

ويطيعون شهواتهم. فتحصّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم غرّوا الضعفاء ، وتبرءوا من أن يكونوا آلهتهم ، فلا تناقض. انظر ابن جزى. وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين للجملة الأولى.

وَقِيلَ للمشركين : ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ أي : الأصنام «٣» لتخلصكم من العذاب ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، فلم يجيبوهم لعجزهم عن الإجابة والنصرة. وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ لمّا رأوا ذلك العذاب ، وقيل : «لو» للتمنى ، أي : تمنوا أنهم كانوا يهتدون.

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ الذي أرسلوا إليكم؟ أي : بماذا أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى ، أولا ، ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما تقوله الشياطين ، أو : أئمة الكفر عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين ، أو الرؤساء ، استغووهم ، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم بآلهتهم وعجزهم عن نصرتهم. ، ثم ما يبكّتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل. قال تعالى :

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل : خفى عليهم الجواب ، فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب.

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٣) وكذلك كل ما أشرك مع اللّه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٩

قال البيضاوي : وأصله : فعموا عن الأنباء ، لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج ، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره ، والمراد بالأنباء : ما أجابوا به الرسل ، أو : ما يعمها وغيرها ، فإذا كانت الرسل يتلعثمون فى الجواب عن مثل ذلك من الهول ، ويفوضون إلى علم اللّه تعالى فما ظنك بالضلال من البهم؟. هـ.

فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة ، أو : عن العذر والحجة ، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. فَأَمَّا مَنْ تابَ من الشرك وَآمَنَ بربه وبمن جاء من عنده ، وَعَمِلَ صالِحاً أي : جمع بين الإيمان والعمل ، فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ من الفائزين عند اللّه بالنعيم المقيم. و«عسى» ، من الكرام ، تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام ، وترغيب للكافرين فى الإيمان.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : قال الذين حق عليهم القول بالانحطاط عن درجة المقربين ، والبقاء مع عامة أهل اليمين ، وهم الصادّون الناس عن الدخول فى طريق القوم : ربنا هؤلاء الذين أغوينا زينا لهم البقاء مع الأسباب ، والوقوف مع العوائد ، أغويناهم كما غوينا ، فحيث لم نقو على مقام أهل التجريد ، قوينا سوادنا بهم ، تبرأنا إليك لأنا لم نقهرهم ، ولكن وسوسنا لهم ذلك ، ما كانوا إيانا يعبدون ، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم : ادعوا ما كنتم تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا عذاب القطيعة ، لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية ما وقعوا فى ذلك. ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم الداعين ، الذين أرسلتهم فى كل زمان ، يدعون إلى اللّه ، ويرفعون الحجاب بينهم وبين ربهم ، فعميت عليهم الأنباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين ، لغيبتهم عنهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن اللّه تعالى بعض صفاته الحسنى ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، لا موجب عليه ، ولا مانع له ، وفيه دلالة على خلق الأفعال. وَيَخْتارُ ما يشاء ، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوي : وظاهره : نفى الاختيار عنهم رأسا ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٠

والأمر كذلك عند التحقيق فإنّ اختيار العبد مخلوق للّه ، منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل : المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه ، فلذلك خلا عن العاطف ، يعنى قوله : ما كانَ .. إلخ ، ويؤيده : ما روى أنه نزل فى قولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١» هـ. ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أي : ليس لهم أن يختاروا مع اللّه شيئا ما ، وله الخيرة عليهم. والخيرة : من التخير ، تستعمل مصدرا بمعنى التخير ، وبمعنى المتخيّر ، ومنه : محمد خيرة اللّه من خلقه ، ولم يدخل العاطف فى ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ لأنه مقرر لما قبله ، وقيل : «ما» :

موصولة ، مفعول بيختار ، والراجع إليه : محذوف ، أي : ويختار الذي كان لهم منه الخيرة والصلاح.

هـ. وبحث فيه النسفي بأن فيه ميلا إلى الاعتزال ، ويجاب : بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب ، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

سُبْحانَ اللَّهِ ، أي : تنزيها له عن أن ينازعه أحد ، أو يزاحم اختياره اختيار. وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أي : تعاظم عن إشراكهم ، أو : عن مشاركة ما يشركون به.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ : تضمر صُدُورُهُمْ من عداوة الرسول – عليه الصلاة والسلام – وحسده ، وَما يُعْلِنُونَ من مطاعنهم فيه ، وقولهم : هلّا اختير عليه غيره فى النبوة. وَهُوَ اللَّهُ المستأثر بالألوهية المختص بها ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، تقرير له ، كقولك : الكعبة قبلة ، لا قبلة إلا هى. لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى أي :

فى الدنيا ، وَالْآخِرَةِ لأنه المولى للنعم كلها ، عاجلها وآجلها ، يحمده المؤمنون فى الدنيا ، ويحمدونه فى الآخرة بقولهم : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ «٢» ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ «٣» ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٤» ، والتحميد تم على وجه التلذذ لا الكلفة. وَلَهُ الْحُكْمُ القضاء بين عباده ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالبعث والنشور. وباللّه التوفيق.

الإشارة : فى الآية تحضيض على ترك التدبير والاختيار ، مع تدبير الواحد القهار ، وهو أصل كبير عند أهل التصوف ، أفرد بالتأليف ، وفى الحكم : «أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت عن نفسك».

وقال سهل رضي اللّه عنه : ذروا التدبير والاختيار ، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : ذروا التدبير ، وإن كان ولا بد من التدبير ، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم : هو ما فيه للنفس حظ ، كتدبير أسباب الدنيا ، وما تحصل بها من شهواتها ، إذا صحبه عزم أو تكرير ، وأمّا ما كان فيما يقرب إلى اللّه تعالى فهو النية الصالحة ، أو لم يصحبه تصميم بأن كان عزمه محلولا ،

---

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف ، وانظر تفسير البغوي (٦/ ٢١٨)

(٢) من الآية ٣٤ من سورة فاطر. [.....]

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

(٤) الآية ٧٥ من سورة الزمر.

أو علقه بمشيئة اللّه ، أو كان خاطرا غير ساكن ، فلا بأس به. قال القشيري – بعد كلام فى وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى : لأنه لو لم تنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العزّ لأن من نفى عن مراده لا يكون إلا ذليلا ، والاختيار للحق نعت عز ، والاختيار للخلق صفة نقص ، ونعت ملام وقصور ، فاختيار العبد عليه غير مبارك له لأنه صفة غير مستحقّ لها ، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح ، قال قائلهم :

ومعان إذا ادّعاها سواهم «١» لزمته جناية السّرّاق

والطينة إذا ادّعت صفة للحقّ أظهرت رعونتها ، فما للمختار «٢» والاختيار؟! وما للملموك والملك؟! وما للعبيد فى دست الملوك؟! قال تعالى : ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ. هـ. وقال آخر فى هذا المعنى :

العبد ذو ضجر ، والربّ ذو قدر والدهر ذو دول ، والرزق مقسوم

والخير أجمع : فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه : اللوم والشّوم.

فإذا علمت ، أيها العبد ، أن الحق تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار ، لم يبق لك مع اللّه اختيار ، فالحالة التي أقامك فيها هى التي تليق بك ، ولذلك قيل : العارف لا يعارض ما حلّ به ، فقرا كان أو غنى «٣». قال اللجائى فى

---

(١) فى القشيري : ومعان إذا ادعاها سواه ...

(٢) أي : الذي اختاره اللّه ..

(٣) قلت : هذه منزلة ، وهناك منزلة أعلى وأحلى ، نفهمها إذا قررنا أصلا ، وهو : أن حكم اللّه واختياره ، ثلاثة أنواع :

الأول : حكم اللّه الديني ، الشرعي ، واختياره ، ومراده الديني .. وهذا موقفنا منه الخضوع والتسليم ، والرضا والقبول ، والعمل.

الثاني : حكم اللّه الكونى ، القدري ، الذي لا اختيار لنا فيه ، كمصيبة الموت ، وجائحة فى مال ، وإذاية ظالم لا نقدر عليه ، وما أشبه ذلك ، وهذا موقفنا منه التسليم ، والصبر ، وفوقه : الرضا بهذا القضاء ، الذي لا اختيار لنا فيه.

الثالث : حكم اللّه الكونى القدري ، واختياره الكونى القدري – الذي لنا فيه قدرة واختيار ، كمرض يمكن دفعه بالدواء ، وفقر يمكن دفعه بالتكسب وطلب الغنى ، وهزيمة يمكن دفعها بالجهاد والكفاح .. إلخ ، وهذا موقفنا منه : هو المنازعة ، والمبالغة ، والمدافعة ، وانتبه معى لقول سيدنا عبد القادر الجيلاني – الشيخ القدوة ، العارف ، قال ما ملخصه : (الناس إذا ذكر القدر أمسكوا ، إلا أنا ، فقد انفتحت لى فيه روزنة [طاقة – نافذة] فنازعت أقدار الحق ، بالحق ، للحق). فهذا فى النوع الثالث من حكم اللّه واختياره ، ننازعه ، بالحق ، للحق ، والشيخ القدوة ، لم يبتدع ذلك ، وحاشاه ، رحمه اللّه

وقدس روحه – بل هو انتزعه من حديث نبوى شريف ، أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤٢١) والترمذي فى (الطب ، باب ٢١ ، ٤/ ٣٤٩ ، ح ٢٠٦٥) وابن ماجه فى (الطب ، باب ١ ، ٢/ ١١٣٧ ، ح ٣٤٣٧) من حديث أبى خزامة قال : سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم : أرأيت [يعنى : أخبرنا عن] – رقىّ نسترقيها ، وأدوية نتداوى بها : أترد من قدر اللّه؟ قال : «هي من قدر اللّه» اللّه أكبر : فقدر المرض ، ننازعه بقدر العلاج والدواء ، وقدر الفقر المالى ننازعه بقدر الكسب وإصلاح المال ، وقدر الهزيمة ننازعه بقدر الجهاد والاستعداد ، وقدر التخلف الحضارى ننازعه بقدر الفعالية الحضارية ، وقدر انتشار الوباء كالطاعون ، والكوليرا – ننازعه بقدر الاحتماء ، والتطعيم العام .. إلخ ، كما فعل سيدنا عمر : مع طاعون الشام ، فلم يدخل الشام – عند ما سمع بانتشار الطاعون فيها ، وكان ذاهبا إليها ، فقيل له : أتفر من قدر اللّه؟! قال : (نعم ، نفر من قدر اللّه إلى قدر اللّه) فالمؤمن العارف يصول بالحق للحق.

(٤/٢٧١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٢

كتاب قطب العارفين : الراضي شبه ميت ، لا نفس له ، يختار لها ، فالفقر والغنى حكمان من حكيم واحد ، وهو أعلم سبحانه بعبيده ، وما يصلحون به ، فمنهم من يصلح للفقر ولا يصلح للغنى ، ومنهم من يصلح للغنى ولا يصلح للفقر ، ومنهم من يصلح بالمنع ولا يصلح بالعطاء ، ومنهم من يصلح بالعطاء ولا يصلح بالمنع ، ومنهم من يصلح بالبلاء ولا يصلح بالصحة ، ومنهم من يصلح بالصحة ولا يصلح بالبلاء ، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعا ، وهى أعلى رتبة يشار إليها فى غاية هذا الشأن ، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ .. الآية ، ففى هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض عن اللّه تعالى ، لكن لا يعقلها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم برهن على انفراده بالخلق والاختيار ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧١ الى ٧٥]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

قلت : (سرمدا) : مفعول ثان لجعل ، وهو من السرد ، أي : التتابع ، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم :

ثلاثة سرد وواحد فرد ، والميم زائدة ، فوزنه : فعمل.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً دائما بإسكان الشمس تحت الأرض ، أو : بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض ، أو بإخفاء نورها ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ ، وحقه : هل إله غير اللّه ، وعبّر ب «من» على زعمهم أن غيره آلهة ، أي : هل يقدر أحد على هذا؟ أَفَلا تَسْمَعُونَ سماع تدبر واستبصار؟
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ بإسكانها فى وسط السماء ، أو : بتحريكها فوق الأفق فقط ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل : بنهار

(٢٧٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٣
تتصرفون فيه ، كما قال : بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، بل ذكر الضياء ، وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، وليس هو التصرف فى المعاش وحده ، والظلام ليس هو بتلك المنزلة ، ومن ثم قرن بالضياء.
أَفَلا تَسْمَعُونَ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر ، من ذكر منافعه ، ووصف فوائده ، وقرن بالليل أَفَلا تُبْصِرُونَ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.
وَمِنْ رَحْمَتِهِ تعالى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ فى الليل وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج : يجوز أن يكون معناه : لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من اللّه فيهما ، ويكون المعنى : جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي : ولكى تعرفوا نعمة اللّه فى ذلك فتشركوه عليها.
ثم قرّعهم على الإشراك ، بعد هذا البيان التام ، بقوله : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ، وكرر التوبيخ على الشرك ليؤذن ألّا شيء أجلب لغضب اللّه تعالى من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل فى مرضاته من توحيده. وقال القرطبي : أعاد هذا لاختلاف الحالين ، ينادون مرة ، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم ، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكنون ، وهو توبيخ وزيادة خزى.
ثم طرق كون المناداة من اللّه ، أو ممن يأمره بذلك ، لقوله : وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ «١» ، ويحتمل : ولا يكلمهم بعد قوله : اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ «٢» أو : ولا يكلمهم كلام رضا. هـ «٣».
وَنَزَعْنا وأخرجنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، وهو نبيهم ، يشهد عليهم بما كانوا عليه لأن الأنبياء شهداء على أممهم ، فَقُلْنا للأمم : هاتُوا بُرْهانَكُمْ على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ، فَعَلِمُوا

حينئذ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ فى الألوهية ، لا يشاركه فيها غيره ، وَضَلَّ عَنْهُمْ غاب غيبة الشيء الضائع ما كانُوا يَفْتَرُونَ من ألوهية غير اللّه وشفاعة أصنامهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : دوام ليل القبض يمحق البشرية ، ودوام نهر البسط يطغى النفس ، وتخالفهما على المريد رحمة ، وإخراجه عنهما عناية ، وفى الحكم : «بسطك كى لا يتركك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشيء دونه». وقال فارس رضي اللّه عنه : القبض أولا ، ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود ، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

---

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٣) بتصرف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٤

ولما قال تعالى : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ذكر من متّعه بها وغرته ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٦ الى ٧٧]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)

قلت : «قارون» : غير مصروف للعجمة والتعريف ، ولو كان «فاعولا» من قرنت الشيء ، لا نصرف لخروجه عن العجمة. إِذْ قالَ : ظرف لبغى ، أي : طغى حين وعظ ، ولم يقبل ما وعظ به ، أو : يتعلق بمقدر ، أي : أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه : لا تفرح. و«ما» : موصولة ، و«إنّ مفاتحه» : صلته ، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى كان إسرائيليا ، ابن عم لموسى وابن خالته ، فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمى «المنور» لحسن صورته «١» ، وكان آمن بموسى ، وكان أحفظ الناس للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامري.

فَبَغى عَلَيْهِمْ ، من البغي ، أي : الظلم : قيل : ملّكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. أو : من البغي ، أي : الكبر ، أي : تكبر عليهم بكثرة ماله وولده ، وزاد عليهم فى الثياب شبرا ، فطلب الفضل عليهم

وأن يكونوا تحت يده.

وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما الذي إِنَّ مَفاتِحَهُ جمع مفتح ، بمعنى المقلد ، أي : إن مقاليده لَتَنُوأُ أي : تثقل بِالْعُصْبَةِ ، الباء للتعدية ، يقال : ناء به الحمل : أثقله حتى أماله. والعصبة : الجماعة الكثيرة ، وكانت مفاتح خزائنه وقر ستين بغلا ، لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود ، أي : مغاليقها.

وقيل : معنى تنوء : تنهض بتكلّف ، ويكون حينئذ فى الكلام قلب إذ العصبة هى التي تنوء بالمفاتح ، لا العكس ، قيل : وسميت أمواله كنوزا لأنه كان لا يؤدى زكاتها ، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ لا تبطر بكثرة المال فرح إعجاب لأنه يقود إلى الطغيان. أو : لا تفرح بالدنيا إذ لا يفرح بها إلا من لا عقل له ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ : البطرين المفتخرين بالمال ، أو : الفرحين بزخارف الدنيا ، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوي : الفرح بالدنيا مذموم مطلقا لأنه نتيجة حبها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩).

والرضا بها ، والذهول عن ذهابها ، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارق لا محالة ، يوجب التوخي «١» لا محالة ، كما قيل :

أشدّ الغمّ عندى فى سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا

وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ من المال والثروة الدَّارَ الْآخِرَةَ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم ، وتصرفه فى أنواع الخير ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيل : معناه : واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها لأنها مزرعة الآخرة ، فيها تكتسب الحسنات وترفع الدرجات ، أي : لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة ، وَأَحْسِنْ إلى عباد اللّه كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ فيما أنعم به عليك ، أو : أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام ، كما أحسن إليك بسوابغ الإنعام. وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ بالظلم والبغي وإنفاق المال فى المعاصي إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ لا يرضى فعلهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها ، بل الفرح بكل ما يفنى : كلّه مذموم. قال فى

الإحياء : الفرح بالدنيا والتنعم بها سمّ قاتل ، يسرى فى العروق ، فيخّرج من القلب الخوف والحزن ، وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب ، والعياذ باللّه ، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لمواتاة الدنيا ، وعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم ، والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، فقطعوا النفس عن ملاذها ، وعودوا الصبر عن شهواتها ، حلالها وحرامها ، وعلموا أن حلالها حساب ، وهو نوع عذاب ، ومن نوقش الحساب عذّب ، فخلّصوا أنفسهم من عذابها ، وتوصلوا إلى الحرية والملك فى الدنيا والآخرة ، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها ، والأنس بذكر اللّه تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.

وقال يمن بن رزق : اعلم أنى لم أجد شيئا أبلغ فى الزهد فى الدنيا من ثبات حزن الآخرة فى القلب ، وعلامة ثبات حزن الآخرة فى القلب : أنس القلب بالوحدة. هـ. قلت : وهذا مذهب العباد والزهاد ، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جعلنا اللّه من خواصهم ، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر جواب قارون ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٨]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

---

(١) فى البيضاوي : [الترح] وهو أنسب بالسياق ، . ولعل ما فى أعلى تصحيفا عن : التوقي ، أي : الحذر والتحوط.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٦

يقول الحق جل جلاله : قالَ قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ أي : المال عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أي : على استحقاق منى ، لما فىّ من العلم الذي فضلت به الناس ، وهو علم التوراة ، وكان أعلم الناس به بعد ، موسى وهارون ، وكان من العباد ، ثم كفر بعد ذلك. وذكر القشيري أنه كان منقطعا فى صومعة للعبادة ، فصحبه إبليس على العبادة ، واستمر معه على ذلك ، وهو لا يشعر ، إلى أن ألقى إليه : إن ما هما عليه ، من الانقطاع عن التكسب ، وكون أمرهما على أيدى الناس ، ليس بشيء ، فرده إلى الكسب بتدريج ، إلى أن استحكم فيه حب الدنيا والجمع والمنع ، ثم تركه. هـ. وقيل : المراد به علم الكيمياء ، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا. أو : العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة ، أو : العلم بكنوز يوسف «١».

قال تعالى : أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، أي : أو لم يكن فى علمه ، من جملة العلم الذي عنده ، أن اللّه قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه وأقوى وأغنى ، وأكثر جمعا للمال ، أو أكثر جماعة وعددا ، وهو توبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه فى التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ. أو : نفى لعلمه بذلك لأنه لمّا قال : أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي قيل له :

أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع ، الذي هو الاعتبار بمن هلك قبله ، حتى يقى نفسه مصارع الهالكين.

وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ، لعلمه تعالى بعملهم ، بل يدخلهم النار بغتة. أو : يعترفون بها بغير سؤال ، أو : يعرفون بسيماهم فلا يسألون ، أو : لا يسألون سؤال توبيخ ، أو لا يسأل المجرمون من هذه الأمة عن ذنوب الماضين. قال محمد بن كعب : هو كلام متصل بما قبله ، والضمير فى (ذنوبهم) عائد على من أهلك من القرون ، أي : أهلكوا ، ولم يسأل غيرهم بعدهم عن ذنوبهم ، بل كل أحد إنما يعاتب على ما يخصه. هـ. وإذا قلنا هو فى القيامة فقد ورد فى آيات أخر أنهم يسألون ، ويوم القيامة مواطن وطوائف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا خص اللّه عبدا بخصوصية فلا ينسبها لنفسه ، أو لحوله وقوته ، أو لكسبه ومجاهدته ، بل يشهدها منّة من اللّه عليه ، وسابق عناية منه إليه ، قال سهل رضي اللّه عنه : ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح ، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله ، وفتح له سبيل رؤية منّة اللّه عليه ، فى جميع الأفعال والأقوال. والشقي منّ زيّن له فى عينه أفعاله وأقواله وأحواله ، ولأفتح له سبيل رؤية منّة اللّه عليه ، فافتخر بها وادعاها لنفسه ، فشؤمه أن يهلكه كما خسف بقارون ، لمّا أدعى لنفسه فضلا. هـ.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩ – ٤٠٠) وتفسير البغوي (٦/ ٢٢٢).

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ

المُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢)

قلت : (فى زينته) : حال ، (ويكأنه) : مذهب الخليل وسيبويه : أن «وى» : حرف تنبيه منفصلة عن كأن ، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة : «ويك» هى «ويلك» حذفت اللام منها لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة : «ويكأن» بجملتها : كلمة. قاله الثعلبي ، وقال البيضاوي : ويكأن ، عند البصريين ، مركب من : «وى» للتعجب ، و«كأن» ، للتشبيه. هـ. وقال سيبويه : «وى» : كلمة تنبيه على الخطأ وتندّم ، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله : فَخَرَجَ قارون عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قال جابر : كانت زينته القرمز ، وهو صبغ أحمر معروف. قيل : إنه خرج فى الحمرة والصفرة ، وقيل : خرج يوم السبت على بغلة شهباء ، عليها الأرجوان ، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه ، وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام ، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحلىّ والديباج.

قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ، قيل : كانوا مسلمين ، وإنما تمنوا ، على سبيل الرغبة فى اليسار ، كعادة البشر ، وقيل : كانوا كفارا ، ويرده قوله : لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا .. إلخ. يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ من المال والجاه ، قالوه غبطة. والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه ، من غير أن تزول عنه ، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له ، دونه. وهو كقوله تعالى : وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ «١» ، وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل تضر الغبطة؟ فقال : «لا ..» الحديث «٢». إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ من الدنيا ، والحظ : الجدّ ، وهو البخت والدولة.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٢) لفظ الحديث : سأل صلى اللّه عليه وسلم : هل يضر الغبط؟ قال : «لا ، إلا كما يضر العضاة الخبط ، قال ابن حجر فى الكافي : ذكره ثابت السرقسطي فى الغريب ، هكذا بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣/ ٤٣٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٨

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا ، أو : أوتوا العلم باللّه ، فيؤخذ منه : أن متمنى الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس إذ لا يتمناها إلا المحب لها ، وهى رأس الفتنة. فأىّ علم يبقى مع فتنة الدنيا؟! قالوا فى وعظهم لغابطى قارون : وَيْلَكُمْ هلاكا لكم ، فأصل ويلك : الدعاء بالهلاك ، ثم

استعمل فى الزجر والردع على ترك ما لا يرضى. وقال فى التبيان فى إعراب القرآن : هو مفعول بفعل محذوف ، أي : ألزمتكم اللّه ويلكم ، ثَوابُ اللَّهِ فى الآخرة ، خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً مما أوتى قارون ، بل من الدنيا وما فيها ، وَلا يُلَقَّاها أي : لا يلقى هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء ، وهى ثواب اللّه خير ، إِلَّا الصَّابِرُونَ. أو : لا يلقى هذه القوة والعزيمة فى الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفى حديث الترمذي : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من ترك اللباس – أي : الفاخر – تواضعا للّه تعالى ، وهو يقدر عليه ، دعاه اللّه على رؤوس الخلائق ، حتى يخيّره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها» «١». وفيه أيضا عنه عليه الصلاة والسلام : «ليس لابن آدم حقّ فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء» «٢». أي : ليس معه إدام.

قال تعالى : فَخَسَفْنا بِهِ بقارون وَبِدارِهِ الْأَرْضَ ، كان قارون يؤذى موسى عليه السّلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة ، فصالحه : على كل ألف دينار دينار ، وعلى كل ألف درهم درهم ، فحاسبه فاستكثره ، فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل ، وقال له : قد أطعتم موسى فى كل شىء ، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا فمرنا بما شئت ، قال : نجعل لفلانة البغي جعلا حتى تقذف موسى بنفسها ، فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار ، أو : طستا من ذهب ، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيبا ، فقال : من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة ، ومن زنى وله امرأة رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت ، فناشدها بالذي خلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق ، فقالت : جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي ، فخرّ موسى ساجدا يبكى ، وقال : اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى ، فأوحى اللّه تعالى إليه : مر الأرض بما شئت فيه ، فإنها مطيعة لك ، فقال : يا بنى إسرائيل : إن اللّه بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم

---

(١) أخرجه الترمذي فى (صفة القيامة ، باب ٣٩ ، ٤/ ٥٦١ ح ٢٤٨١) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٦١) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث معاذ بن أنس. [.....]

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٦٢) ، والترمذي وصححه فى (الزهد ، باب ٣٠ ، ٤/ ٤٩٤ ، ح ٢٣٤١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي اللّه عنه وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «وجلف الخبز» أي : ليس معه إدام. انظر : النهاية فى غريب الحديث (١/ ٨٧).

مكانه ، ومن كان معى فليعتزل ، فاعتزلوا جميعا غير رجلين. ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ، ويناشدونه باللّه وبالرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال : خذيهم ، فانطبقت عليهم. فقال اللّه تعالى : يا موسى استغاث بك مرارا فلم ترحمه ، فوعزتى لو استرحمنى مرة لرحمته «١».

روى أنه يخسف كل يوم قامة ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، فقال بعض بنى إسرائيل : إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه ، فدعى اللّه تعالى فخسف بداره وكنوزه ، وأوحى اللّه تعالى إلى موسى : إنى لا أعبّد الأرض أحدا بعدك أبدا ، أي : لا آمرها تطيع أحدا بعدك.

فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ جماعة يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يمنعونه من عذاب اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ من عذاب اللّه ، أو : من المنتقمين من موسى.

وَأَصْبَحَ أي : وصار الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ أي : منزلته من الدنيا بِالْأَمْسِ : متعلق بتمنوا. ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت القريب ، استعارة. يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ أي : اعجب مما صنع بقارون ، لأن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ، وهو عنده ممقوت ، وَيَقْدِرُ أي :

يضيقه على من يشاء ، وهو عنده محبوب. لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ، لَخَسَفَ بِنا معه ، كما فعل بالرجلين ، وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أي : اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضى : كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون ، فقال له : عجبا منك ، فسئل : لم تتعجب منه؟ فقال : إنه لا يفلح الكافرون ، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز : ويكأن اللّه معناه : ألم تر أن اللّه. واقتصر عليه البخاري «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية ترهيب من التعمق فى زينة الدنيا ، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها ، وترغيب فى الزهد فيها ، وإيثار الفقر على الغنى ، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارف سيدى عبد الرحمن بن يوسف اللجائى فى كتابه : اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلّت فى قلب عبد ، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا ، ويتمنى أن ينال منها ما نال ، فإن كل انسان يعظم ما اشتهت نفسه.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٢٤) وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١).

قلت : وهذه الرواية تجعل سبب الخسف بقارون هو غضب سيدنا موسى لنفسه ، لكن القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة تبرهن على أن سبب الخسف به هو التكبر على اللّه تعالى ، والتكبر على الناس.

(٢) انظر فتح الباري (كتاب التفسير ، سورة القصص ، باب. إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ٨/ ٣٦٩).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٠

وهذه صفة عبيد الدنيا ، وعبيد أهوائهم. وهى صفة من أسكرته الغفلة ، وخرجت عظمة اللّه عز وجل من قلبه ، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى : قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا .. الآية. فكل محب للدنيا ، مستغرق فى حبها ، فهو لا حق بالذين تمنوا زينة قارون. واعلم أن الدنيا إذا رسخت فى القلب ، واستوطنت ، ظهر ذلك على جوارح العبد ، بتكالبه عليها ، وشدة رغبته فيها ، فيسلبه اللّه تعالى لذة القناعة ، ويمنعه سياسة الزاهدين ، ويبعده عن روح العارفين فإن القلب إذا لم يقنع – لو ملك الدنيا بحذافيرها – لم يشبع. وقال بعض الحكماء : القناعة هى الغنى الأكبر ، ولن تخفى صفة القانعين. هـ.

ومآل الراغبين فى الدنيا هو مآل قارون ، من الفناء والذهاب تحت التراب ، وأنشدوا :

إن كنت تسّموا إلى الدّنيا وزينتها فانظر إلى مالك الأملاك قارون

رمّ الأمور فأعطته مقادتها وسخّر النّاس بالتّشديد واللّين

حتّى إذا ظنّ ألّا شيء غالبه ومكّنت قدماه أىّ تمكين

راحت عليه المنايا روحة تركت ذا الملك والعزّ تحت الماء والطّين

ثم ذكر عاقبة المتواضعين ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

قلت : (تلك) : مبتدأ ، و(نجعلها) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ أي : تلك الدار التي سمعت بذكرها ، وبلغك خبرها.

ومعنى البعد فى الإشارة ، لبعد منزلتها وعلو قدرها ، نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أي : تكبرا وقهرا كحال فرعون ، وَلا فَساداً عملا بالمعاصي ، أو : ظلما على الناس ، كحال قارون ، أو : قتل النفس ، أو :

دعاء إلى عبادة غير اللّه ، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، أدرك ذلك

بالفعل أم لا. وعن على رضي اللّه عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها.
وعن الفضيل : أنه قرأها ، ثم قال : ذهبت الأمانى هاهنا. وعن عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه أنه كان يرددها حتى قبض. وَالْعاقِبَةُ المحمودة لِلْمُتَّقِينَ ما لا يرضاه اللّه من العلو والفساد وغير ذلك.
مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ذاتا وقدرا ووصفا ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ ما لا يرضاه اللّه تعالى ، فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ، أصله : فلا يجزون ، وضع الظاهر موضع المضمر لما فى إسناد السيئات إليهم من تقبيح رأيهم وتسفيه أحلامهم ، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين ، إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلا جزاء عملهم فقط ، ومن فضله العظيم ألا يجزى السيئة إلا مثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة.
الإشارة : جعل اللّه الدار الآخرة للمتواضعين ، أهل الذل والانكسار ، والعاقبة المحمودة – وهى الوصول إلى الحضرة – للمتقين الشهرة والاستكبار ، وفى الحكم : «ادفن نفسك فى أرض الخمول فما نبت ممّا لم يدفن لا يتمّ نتاجه». قال فى التنبيه : لا شىء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لأن ذلك من أعظم حظوظه ، التي هو مأمور بتركها ، ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ. هـ.
وكان شيخ شيخنا يقول : نحب المريد أن يكون قدمه أعظم من صيته ، ولا يكون صيته أعظم من قدمه. هـ.
وقال إبراهيم بن أدهم رضي اللّه عنه : ما صدق اللّه من أحب الشهرة. وقال بعضهم : طريقتنا هذه لا تصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال أيوب رضي اللّه عنه : ما صدق عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه. وقال فى القوت : ومتى ذل العبد نفسه ، واتضع عندها ، فلم يجد لذلته طعما ، ولا لضعته حسما ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق لوجود النقص فى نفسه ، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة فى نفسه. فصارت الذلة والضعة صفة لا تفارقه ، لازمة لزوم الزبالة للزبال ، والكساحة للكساح ، هما صنعتان له كسائر الصنائع. وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما. فهذه ولاية عظيمة له من ربه ، قد ولّاه على نفسه ، وملّكه عليها ، فقفرها بعزه ، وهذا مقام محبوب ، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال : ومن كان حاله مع اللّه تعالى الذل طلبه واستحلاه ، كما يطلب المتكبر العز ، ويستحليه إذا وجده ، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله ، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لأن ذلك عيش نفسه. هـ.
قلت : وهذا مقام من المقامات ، والعارف الكامل لا يتغير قلبه على فقد شىء إذ لم يفقد شيئا بعد أن وجد اللّه ، (ماذا فقد من وجدك). والذي ذكره فى القوت هو حال السائرين الصادقين. وباللّه التوفيق.
«١»

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاه اللّه السكندرى ، انظر الحكم بتويب المتقى الهندي/ ٤٢.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٢

ثم ذكر عاقبة سيد المتقين ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨٥ الى ٨٨]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

قلت : (و لا يصدنك) : مجزوم بحذف النون ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله ، لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أي : أوجب عليك تلاوته وتبليغه ، والعمل بما فيه ، لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ عظيم ، وهو المعاد الجسماني لتقوم المقام المحمود ، الذي لا يقوم فيه أحد غيرك ، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو : لرادك إلى معادك الأول ، وهو مكة ، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها لأنها مولده ومولد آبائه ، وقد ردّه إليها يوم الفتح ، وإنما نكّره لأنه كان فى ذلك اليوم معاد له شأن ، ومرجع له اعتداد لغلبته – عليه الصلاة والسلام – ونصره ، وقهره لأعدائه ، ولظهور عز الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه.

والسورة مكية ، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة ، لا بمكة ولا بالمدينة «١» ، وفى الآية وعد بالنصر ، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبى صلى اللّه عليه وسلم لا يختص بالآخرة ، بل يكون فى الدنيا له ولمتّبعيه ، ولكن بعد الابتلاء والامتحان ، كما فى صدر السورة الآتية بعدها ، وبهذا يقع التناسب بينهما ، فإنها كالتعليل لما قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له : قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى أي : يعلم من جاء بالحق ، يعنى : نفسه صلى اللّه عليه وسلم مع ما يستحقه من النصر والثواب ، فى معاده ، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وهم المشركون ، مع ما يستحقونه من العقاب فى معادهم.

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ أي : القرآن ، فكما ألقى إليك الكتاب ، وما كنت ترجوه كذلك يردك إلى معادك الأول ، من غير أن ترجوه ، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لكن ألقاه إليك رحمة منه

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢ – ٤٠٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٣

إليك ، ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى ، كأنه قال : وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً معينا لِلْكافِرِينَ على دينهم بمداراتهم والتحمل عنهم ، والإجابة إلى طلبتهم. وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ أي : لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات اللّه وتبليغها وإظهارها ، بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أي : بعد وقت إنزالها ، وإِذْ : مضاف إليه أسماء الزمان ، كقولك : حينئذ ويومئذ. وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إلى توحيده وعبادته ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، نهاه تنفيرا لغيره من الشرك.

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، قال ابن عباس رضي اللّه عنه : الخطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد به أهل دينه. قال البيضاوي : وهذا وما قبله تهييج ، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ : استئناف ، مقرر لما قبله ، كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أي : ذاته ، فالوجه يعبّر به عن الذات ، أي : كل شيء فان مستهلك معدوم ، إلا ذاته المقدسة ، فإنها موجودة باقية. وقال أبو العالية : إلا ما أريد به وجه اللّه ، من علم وعمل ، فإنه لا يفنى. قال عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه : يجاء بالدنيا يوم القيامة ، فيقال : ميزوا ما كان للّه تعالى منها ، فيميز ، ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النار. هـ. وقال الضحاك : كل شيء هالك إلا اللّه والجنة والنار والعرش.

لَهُ الْحُكْمُ القضاء النافذ فى خلقه ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء والفصل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أهل الاشتياق يروّحون أرواحهم بهذه الآية ، فيقولون لها : إن الذي فرض عليك القرآن ، أن تعمل به فى الدنيا ، لرادك إلى معاد جسمانى روحانى ، فتتصل نضرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب ، من غير عذول ولا رقيب ، على سبيل الاتصال ، من غير تكدر ولا انفصال ، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية فيقولون :

رَبِّي أَعْلَمُ الآية .. وما كنت ترجو أن تلقى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين المنكرين لها ، معينا لهم على إذاية من انتسب إليها ، ولا يصدنك عن معرفة آيات اللّه الدالة عليه ، بعد إذ أنزلت إليك ، أي : لا يمنعك الناس عن صحبة أولياء اللّه ، الدالين عليه ، وادع إلى ربك ، أي : إلى معرفة ذاته ووحدانيته ، ولا تكونن من المشركين بشهود شيء من السّوى ، فإن كل شيء هالك ، أي : معدم فى الماضي والحال والاستقبال ، إلا وجهه : إلا ذاته ، فلا موجود معها ، وفى ذلك يقول الشاعر :

اللّه قل ، وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكلّ ، دون اللّه ، إن حقّقته ، عدم على التّفصيل والإجمال
واعلم بأنّك ، والعوالم كلّها ، لولاه ، فى محو وفى اضمحلال

(٢٨٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٤
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده ، لولاه ، عين
محال فالعارفون فنوا ، ولم يشهدوا شيئا سوى المتكبّر الم
تعال ورأوا سواه على الحقيقة هالكا فى الحال والماضي والاستقبال.
وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

(٢٨٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٥
سورة العنكبوت
مكية ، إلا صدرها العشر الآيات ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة ، وإلا قوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا إلى : الْمُنافِقِينَ «١» فإنها نزلت فى المتخلفين عن الهجرة. وهى كالتعليل لخاتمة ما قبلها من البشارة بالنصر لأنه لا يكون فى الغالب إلا بعد الامتحان ، كما قال تعالى :
[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١ الى ٣]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣)
قلت : الحسبان : قوة أحد النقيضين على الآخر ، كالظن ، بخلاف الشك ، فهو الوقوف بينهما. والعلم : هو القطع بأحدهما ، ولا يصح تعلقهما بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل ، فلا أقول : حسبت زيدا ، وظننت الفرس ، بل حسبت زيدا قائما ، والفرس جوادا. والكلام الدال على المضمون ، الذي يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا مع قوله :
وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أي : أحسبوا تركهم غير مفتونين لأن يقولوا : آمنا.

يقول الحق جل جلاله : الم الألف : لوحدة أسرار الجبروت ، واللام : لفيضان أنوار الملكوت ، والميم : لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته ، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره ليظهر صدقه أو كذبه ، وهذا معنى قوله : أَحَسِبَ النَّاسُ أي : أظن الناس أَنْ يُتْرَكُوا غير – مفتونين ومختبرين ، أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أظنوا أن يدّعوا الإيمان ولا يختبرون عليه ليظهر الصادق من الكاذب ، بل يمتحنهم اللّه بمشاق التكليف من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، ورفض الشهوات ، ووظائف الطاعات ، وبالفقر ، والقحط ، وأنواع المصائب فى الأموال والأنفس ، وإذاية الخلق ليتميز المخلص من المنافق ، والثابت فى الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالى الدرجات ، فإن مجرد الإيمان ، وإن كان عن خلوص قلب ، لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب ، وما

---

(١) الآيات : ٩ – ١١.

ينال العبد من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات ، مع ما فى ذلك من تصفية النفس وتهذيبها ، لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان.

روى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قد جزعوا من أذى المشركين ، وضاقت صدورهم من ذلك ، وربما استنكر بعضهم أن يمكّن اللّه الكفرة من المؤمنين. فنزلت مسلّية ومعلمة أن هذه هى سيرة اللّه فى عباده اختبارا لهم.

قال تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بأنواع المحن فمنهم من كان يوضع المنشار على رأسه ، فيفرق فرقتين ، وما يصرفه ذلك عن دينه ، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد ، ومنهم من كان يطرح فى النار ، وما يصده ذلك عن دينه. فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ بذلك الامتحان الَّذِينَ صَدَقُوا فى الإيمان بالثبات ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ بالرجوع عنه.

ومعنى علمه تعالى به ، أي : علم ظهور وتمييز. والمعنى : وليميّزنّ الصادق منهم من الكاذب ، فى الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء : يتبيّن صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر فى أيام الرخاء ، وصبر فى أيام البلاء ، فهو من الصادقين ، ومن بطر فى أيام الدنيا ، وجزع فى أيام البلاء ، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة : سنّة اللّه تعالى فى أوليائه : أن يمتحنهم فى البدايات ، فإذا تمكنوا من معرفة اللّه ، وكمل

تهذيبهم ، أعزهم ونصرهم ، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول ، حتى يلقوه على ذلك وهم عرائس الملكوت ، ضنّ بهم أن يظهرهم لخلقه. والامتحان يكون على قدر المقام ، وفى الحديث : «أشدّ الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلبا ، اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقّة ، ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة» «١».

وقال صلى اللّه عليه وسلم : «أشدّ الناس بلاء فى الدنيا : نبى أو صفى». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «أشدّ الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر ، حتى ما يجد إلا العباءة يحوّيها فيلبسها ، ويبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشدّ فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء» «٢». من الجامع. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء ، ٤/ ٥٢٠ ، ح ٣٩٨) ، وابن ماجه فى (الفتن ، باب الصبر على البلاء ، ٢/ ١٣٣٤ ، ح ٤٠٢٣) ، والإمام أحمد فى المسند (١/ ١٧٤) من حديث مصعب بن سعد ، بن أبى وقاص رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى الموضع السابق ذكره. (٤/ ١٣٣٥ ، ح ٤٠٢٤) وابن أبى الدنيا فى (المرض والكفارات/ ١) ، والحاكم (٤/ ٣٠٧) وصححه ، من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه. وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «يحوّيها» فى النهاية : التحوية : أن يدير كساء حول سنام البعير ، ثم يركبه ، والاسم : الحويّة.

انظر النهاية (حوا ١/ ٤٦٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٧

ثم ذكر المؤذين لهم ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤ الى ٧]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أي : الشرك والمعاصي وإذاية المسلمين ، أَنْ يَسْبِقُونا أي : يفوتونا ، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. و«أم» : منقطعة ، ومعنى الإضراب فيها : أن

هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يظن أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساوئه ، وشبهته أضعف ، ولذلك عقّبه بقوله : ساءَ ما يَحْكُمُونَ ، أي : بئس ما يحكمون به حكمهم فى صفات اللّه أنه مسبوق ، وهو القادر على كل شيء ، فالمخصوص محذوف.

ثم ذكر الحامل على الصبر عند الامتحان ، وهو رجاء لقاء الحبيب ، فقال : مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أي :

يأمل ثوابه ، أو يخاف حسابه ، أو ينتظر رؤيته ، فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ المضروب للغاية لَآتٍ لا محالة. وفيه تبشير بأن اللقاء حاصل لأنه لأجل آت ، وكل آت قريب. وكل غاية لها انقضاء ، فليبادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله. وَهُوَ السَّمِيعُ لما يقوله عباده ، الْعَلِيمُ بما يفعلونه ، فلا يفوته شيء.

وَمَنْ جاهَدَ نفسه ، بالصبر على مشاق الطاعات ، ورفض الشهوات ، وإذاية المخلوقات ، وحبس النفس على مراقبة الحق فى الأنفاس واللحظات ، فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ لأن منفعة ذلك لها ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ وعن طاعتهم ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى رحمة لهم ، ومراعاة لصلاحهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ مع غنانا عنهم ، أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أي : أحسن جزاء أعمالهم بالفضل والكرم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أم حسب الذين ينكرون على أوليائى ، المنتسبين إلىّ ، أن يسبقونا؟ بل لا بد أن نعاقبهم فى الدنيا والآخرة ، إما فى الظاهر بمصيبة تنزل بهم ، أو فى الباطن ، وهو أقبح ، كقساوة فى قلوبهم ، أو : كسل فى بدنهم ، أو :

شك فى يقينهم ، أو : بعد من ربهم ، فإن من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب. ثم بشّر المتوجهين الذين يؤذون فى جانبه ، بأن لقاءه حاصل لهم إن صبروا ، وهو الوصول إلى حضرته ، والتنعم بقربه ومشاهدته ، جزاء على صبرهم ومجاهدتهم ، وهو الغنى بالإطلاق.

(٢٨٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٨

ثم حذّر من طاعة من يرد عن التوحيد والإخلاص ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٨ الى ٩]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

قلت : «وصى» : حكمه حكم «أمر» ، يقال : وصيت زيدا بأن يفعل خيرا ، كما تقول : أمرته بأن يفعل خيرا ، ومنه :

وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ «١» ، أي : أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ أمرناه بإيتاء والديه حُسْناً أي : فعلا ذا حسن ، أو : ما هو فى ذاته حسن لفرط حسنه ، كقوله : وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً «٢» أو : وصينا الإنسان بتعاهد والديه ، وقلنا له : أحسن بهما حسنا ، أو : أولهما حسنا. وَإِنْ جاهَداكَ أي : حملاك بالمجاهدة والجد لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي : لا علم لك بالإلهية ، والمراد نفي العلم نفى المعلوم ، وكأنه قيل : لتشرك بي شيئا لا يصح أن يكون إلها ، وقيل : ما ليس لك به حجة لأنها طريق العلم ، فهو قوله : لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ «٣» ، بل هو باطل عقلا ونقلا ، فَلا تُطِعْهُما فى ذلك إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، من آمن منكم ومن أشرك ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأجازيكم حق جزائكم. وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك ، وحث على الثبات والاستقامة فى الدين. روى أن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يرتد ، فشكى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية والتي فى لقمان «٤».

وَالَّذِينَ آمَنُوا ثبتوا على الإيمان وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أي : فى جملتهم ، والصلاح من أبلغ صفة المؤمنين ، وهو متمنى الأنبياء ، فقال سليمان عليه السّلام : وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ «٥». وقال يوسف عليه السّلام : تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «٦» أو : فى مدخل الصالحين ، وهو الجنة.

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون.

(٤) أي : قوله تعالى : وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما الآية «١٥» ونزول الآية فى شأن سعد بن أبى وقاص رضي اللّه عنه ، أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فى فضل سعد بن أبى وقاص ، ٤/ ١٨٧٧ ح ١٧٤٨) وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(٥) من الآية ١٩ من سورة النمل.

(٦) من الآية ١٠١ من سورة يوسف. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٩

الإشارة : قد وصى اللّه تعالى بطاعة الوالدين فى كل شىء ، إلا فى شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلى والخفي ، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدهما من صحبته ، ليتطهر من شركه ، فلا يطعهما ، وسيأتى فى لقمان دليل ذلك ، إن شاء اللّه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر شأن من امتحن فافتضح ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ، فيدخل فى جملة المسلمين ، فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ أي : مسّه أذى من الكفرة بأن عذبوه على الإيمان ، جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ أي : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب اللّه ، فيصرف عن الإيمان. وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ فتح أو غنيمة ، لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أي : متابعين لكم فى دينكم ، ثابتين عليه بثباتكم ، فأعطونا نصيبا من المغنم. والمراد بهم : المنافقون ، أو : قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى : أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أي : هو أعلم بما فى صدور العالمين. ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق ، وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص.

الإشارة : منافق أهل الإيمان هو الذي يظهر الإيمان فى الرخاء ويرجع عنه فى الشدة ، ومنافق الصوفية هو الذي يظهر الانتساب فى السعة والجمال ، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم ، فإذا أوذى فى اللّه جعل فتنة الناس كعذاب اللّه بالقطيعة والحجاب ، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز ، ليقولن : إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيرا من هذا النوع ، دخلوا فى طريق القوم ، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان رجعوا القهقرى ، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، وعند الحملة يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيري : المحن تظهر جواهر الرجال ، وتدلّ على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من فوات الدنيا ، أو نقص نصيبه فيها ، أو بموت قريب أو فقد حبيب ، فحقير قدره ، وكثير فى الناس مثله. ومن كانت محنته فى اللّه وللّه ، فعظيم قدره ، وقليل مثله ، فى العدد قليل ، ولكن فى القدر والخطر جليل. هـ. قلت : معنى كلامه : أن

العامة يمتحنهم اللّه ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم ، فإن جزعوا فقدرهم حقير ، وإن صبروا فأجرهم كبير ، وأما الخاصة فيمتحنهم اللّه بسبب نسبتهم إلى اللّه ، وإقبالهم عليه ، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فيؤذون فى جانب اللّه ، فمنهم من يسجن ، ومنهم من يضرب ، ومنهم من يجلى من بلده ، فهؤلاء قدرهم عند اللّه كبير. ثم قال :

والمؤمن من يكفّ الأذى ، والولي من يتحمل من الناس الأذى ، من غير شكوى ، ولا إظهار دعوى. هـ.

ولما وقعت الإذاية من الكفار للمسلمين طمعوا فيهم ، كما قال تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من صناديد قريش ، لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا الذي نسلكه ، وهو الدخول فى ديننا ، وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ إن كان ذلك خطيئة فى زعمكم. أمروهم باتباع سبيلهم ، وهى طريقتهم التي كانوا عليها ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم ، فعطف الأمر على الأمر ، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول. والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، أي : إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش ، كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن كان ذلك فإنا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى : وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ أي : ما هم حاملين شيئا من أوزارهم ، إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ادعوا لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفى قلوبهم نية الخلف. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أي : أثقال أنفسهم بسبب كفرهم ، وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أي : أثقالا أخر غير التي ضمنوا للمؤمنين حملها ، وهى أثقال الذين كانوا سببا فى ضلالهم ، كقولهم : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «١» ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ من الأكاذيب والأباطيل التي أضلوا بها.

الإشارة : كل من عاق الناس عن الدخول فى طريق التصفية والتخليص : تصدق عليه هذه الآية ، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التي بقيت فيهم ، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النحل.

ثم سلّى رسوله – عليه الصلاة والسلام – ومن أوذى معه ، بما جرى للأنبياء قبله ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٤ الى ١٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً يدعوهم إلى اللّه ، وهم يؤذونه بالشتم والضرب حتى نصر ، فاصبر كما صبر ، فإن العاقبة للمتقين.

روى أنه عاش ألفا وخمسين سنة ، وقيل : إنه ولد فى حياة آدم ، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاما. وقيل :

إلا أربعين. ذكره الفاسى فى الحاشية. والمشهور : أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروى أنه بعث على رأس أربعين ، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين «١». وعن وهب : أنه عاش فى عمره ألفا وأربعمائة ، وقيل : وستمائة ، فقال له ملك الموت : يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا؟ قال : كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل : تسعمائة وخمسين سنة لأنه ، لو قيل ذلك ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل هنا ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين كاملة وافية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظا ، ولأن القصة سيقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السّلام من أمته ، وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا – عليه الصلاة والسلام – فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وجيء ، أولا : بالسّنة ثم بالعام لأن تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة.

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ طوفان الماء ، وهو ما طاف وأحاط ، بكثرة وغلبة ، من سيل ، أو ظلام ليل ، أو نحوها ، وَهُمْ ظالِمُونَ أنفسهم بالكفر والشرك ، فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ ، وكانوا ثمانية وسبعين نفسا ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، أولاد نوح : سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم ، ومن آمن من غيرهم ، وَجَعَلْناها أي :

السفينة ، أو الحادثة ، أو القصة ، آيَةً عبرة وعظة لِلْعالَمِينَ يتعظون بها.

الإشارة : كل ما سلّى به الأنبياء يسلّى به الأولياء ، فكل من أوذى فى اللّه ، أو لحقته شدة من شدائد الزمان ، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر ، ويتسلى بهم ، ولينظر إلى لطف اللّه وبره وإحسانه ، فإن لطفه لا ينفعك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : العارف هو الذي يغرق «٢» إساءته فى إحسان اللّه إليه ، ويغرق «٣» شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من اللّه عليه فاذكروا آلاء اللّه لعلكم تفلحون.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٧).
(٢ ، ٣) فى نسخة (يعرف) والمثبت من النسخة الأم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٢
ثم ذكر قصة إبراهيم ، فقال :
[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٦ الى ١٨]
وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)
قلت : (إبراهيم) : عطف على (نوح) ، أو متعلق باذكر ، و(و إذ قال) : ظرف زمان لأرسلنا ، أو : بدل اشتمال من (إبراهيم) إن نصب باذكر لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.
يقول الحق جل جلاله : وَإِبْراهِيمَ أي : وأرسلنا إبراهيم إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أي : أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره ، وبلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه ، ويأمرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبو حنيفة : بالرفع. أي : ومن المرسلين إبراهيم ، قال فى وعظه : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مما أنتم عليه من الكفر ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.
إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً أصناما وَتَخْلُقُونَ : تختلقون وتكذبون ، أو تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسّلمى : «وتخلّقون» بالكسر والشد. من خلّق للمبالغة. إِفْكاً : وقرئ «أفكا» بفتح الهمزة «١» ، وهو مصدر ، نحو كذب ولعب. واختلاقهم الإفك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء للّه.
إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً : لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ كلّه فإنه هو الرزاق وحده ، لا يرزق غيره. وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ أي :
متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وَإِنْ تُكَذِّبُوا أي : تكذبونى فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ رسلهم ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ الذي يزول معه الشك. والمعنى : وإن تكذبونى فلا تضرونني بتكذيبكم فإن الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم ، وما ضروهم ، وإنما ضروا أنفسهم ، حيث حلّ بهم العذاب. وأما الرسول فقد أدى ما

(١) فى الأصول [بفتح الفاء]. وانظر : البحر المحيط (٧/ ١٤١). فقد قال أبو حيان : «قرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان. (أفكا) بفتح الهمزة وكسر الفاء ، وهو مصدر مثل الكذب».

عليه حين بلغ البلاغ المبين ، الذي لم يبق معه شك ، حيث اقترن بآيات اللّه ومعجزاته. أو : وإن كنت مكذّبا فيما بينكم ، فلى فى سائر الأنبياء أسوة ، حيث كذّبوا ، وعلى الرسول أن يبلّغ ، وما عليه أن يصدّق ولا يكذّب.

وهذه الآية من قوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا إلى قوله : فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ : يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السّلام لقومه ، والمراد بالأمم قبله : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وأن تكون من كلام اللّه فى شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وشأن قريش ، معترضة بين أول قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قلت : الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ، فلا تقول : مكة ، وزيد قائم ، خير بلاد اللّه؟ قلت : قد وقع الاتصال ، وبيانه : أن إيراد قصة إبراهيم عليه السّلام إنما هو تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه ، وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا يا معشر قريش محمدا ، فقد كذب إبراهيم قومه ، وكل أمة كذبت نبيها لأن قوله : فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك ، وتوهين قواعده ، وصفة قدرة اللّه وسلطانه ، ووضوح صحته وبرهانه. قاله النسفي.

قال ابن جزى : وَإِنْ تُكَذِّبُوا يحتمل أن يكون وعيدا للكفار وتهديدا لهم ، أو يراد به تسلية النبي عن تكذيب قومه ، بالتأسى بغيره من الأنبياء الذين كذّبهم قومهم. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ : قال سهل رضي اللّه عنه : معناه : اطلبوا الرزق فى التوكل ، لا فى الكسب ، فإن طلبه بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء اللّه : اطلبوا الرزق فى الطاعة والإقبال على العبادة. وقال القشيري : وقدّم ابتغاء الرزق لتوقف القيام بالعبادة عليه ، ثم أمر بالشكر على الكفاية. هـ.

ثم أمرهم بالاعتبار ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٩ الى ٢٣]

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

(٢٩٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٤

قلت : يقال : بدأ اللّه الخلق ، وأبداه : بمعنى واحد ، وقد جاءت اللغتان فى هذه السورة. وقوله : (يعيده) : عطف على الجملة ، لا على (يبدئ) لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة ، فإنها تعلم بالنظر والاستدلال ، وهم لا يقرونها لعدم النظر. وقد قيل : إنه يريد إعادة النبات وإبداءه ، وعلى هذا تكون (ثم يعيده) : عطفا على (يبدئ).

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : كفار قريش كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ أي : يظهره من العدم ، أي : قد رأوا ذلك وعلموه ، ثُمَّ يُعِيدُهُ بالبعث للجزاء بالعذاب والثواب.

قال القشيري : الذي داخلهم فيه الشكّ هو بعث الخلق ، فاحتجّ عليهم بما أراهم من فصول السنة بعد نقضها ، وإعادتها على الوجه الذي كان فى العام الماضي. وكما أن ذلك سائغ فى قدرته ، كذلك بعث الخلق. هـ. ونحوه لابن عطية وغيره. كما هو مشهود فى الثمار ، من كونها تبدأ ، فتجنى ، ثم تفنى ، ثم تعيدها مرة أخرى. وكذلك يبدئ خلق الإنسان ، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا ، وخلق من الولد ولدا آخر ، وكذا سائر الحيوان. وهذا يرشح صحة عطف «يعيد» على «يبدئ». إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة اللّه تعالى.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أي : قل يا محمد ، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره : وأوحينا إليه أن قل : سيروا فى الأرض ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ على كثرتهم ، واختلاف أحوالهم وألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وتفاوت هيئاتهم ، لتعرفوا عجائب قدرة اللّه بالمشاهدة ، ويقوى إيمانكم بالبعث ، وهو قوله : ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ أي : البعث ، وهذا دليل على أنهما نشأتان : نشأة الاختراع ونشأة الإعادة ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء ، والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال : كيف بدأ اللّه الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ، وإنما عدل عنه لأن الكلام معهم وقع فى الإعادة ، فلما قررهم فى الإبداء ، بأنه من اللّه ، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا يعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فللتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ. قاله النسفي.

إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يعجزه شيء. يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ بعدله ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ بفضله ، أو :

يعذب من يشاء بالخذلان ، ويرحم بالهداية للإيمان ، أو : يعذب من يشاء بالحرص ، ويرحم من يشاء بالقناعة ، أو : يعذب بالتدبير والاختيار ، ويرحم بالرضا والتسليم لمجارى الأقدار ، أو : يعذب بالإعراض عنه ، ويرحم

(٤/٢٩٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٥

بالإقبال عليه ، أو : بالاستتار والتجلي ، أو : بالقبض والبسط ، أو : بالمجاهدة والمشاهدة ، إلى غير ذلك. وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ تردون للحساب والعقاب.

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أي : بفائتين ربكم إن هربتم من حكمه وقضائه ، فِي الْأَرْضِ الفسيحة ، وَلا فِي السَّماءِ التي هى أفسح منها وأبسط ، لو كنتم فيها. وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يتولى أموركم ، وَلا نَصِيرٍ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ بدلائله على وحدانيته ، أو كتبه ، أو معجزاته ، وَلِقائِهِ وكفروا بلقائه ، أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي جنتى ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع. وباللّه التوفيق.

الإشارة : أو لم ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحقّ تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، ثم يبطنها ، فيردها لأصلها من اللطافة ، ثم ينشئها النشأة الثانية ، تكون معانيها أظهر من حسها ، وقدرتها أظهر من حكمتها ، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى ، وإنما يبطن ما ظهر ، ويظهر ما بطن ، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لا يدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال ، وهو لب العلم ، وخالصة طريقة ذكر اللّه ، والتفرغ عن كل ما يشغل عن اللّه ، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جواب قوم إبراهيم ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥)

قلت : مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ : من نصبها : فله وجهان أحدهما : على التعليل ، أي : لتوادوا بينكم ، والمفعول الثاني محذوف ، أي : اتخذتم أوثانا آلهة. والثاني : على المفعول الثاني لاتخذتم ، كقوله : اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ «١». و(ما) :

كافة ، أي : اتخذتم الأوثان سبب المودّة ، على حذف مضاف ، أو : اتخذتموها مودودة بينكم.
و(بينكم) : نصب على

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٦
الظرفية نعت لمودة ، أي : حاصلة بينكم. ومن رفع : فله وجهان إما خبر إن ، و(ما) موصولة ، أو : عن مبتدأ محذوف ، أي : هى مودة بينكم ، و(بينكم) : مضاف إليه ما قبله.
يقول الحق جل جلاله : فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى اللّه إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، قاله بعضهم لبعض ، أو : قاله واحد منهم ، وكان الباقون راضين ، فكانوا جميعا فى حكم القائلين. فاتفقوا على تحريقه ، فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ حين قذفوه فيها بأن جعلها بردا وسلاما. وتقدم فى الأنبياء تمام القصة.
إِنَّ فِي ذلِكَ فيما فعلوه به وفعلناه لَآياتٍ دالة على عظم قدرته لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها. روى أنه لم ينتفع بها فى تلك الأيام أحد لذهاب حرها لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.
وَقالَ إبراهيم لقومه : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً أصناما آلهة مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لتوادوا بينكم فى الحياة الدنيا ، وتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، واتفاقكم عليها ، كما تنفق الناس على مذهب أو طريق ، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو : إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة ، أو اتخذتموها مودودة ومحبوبة بينكم ، أو : إن التي اتخذتموها أوثانا تعبدونها هى مودة بينكم فى الدنيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أي : تتبرأ الأصنام من عابديها كقوله : يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا «١» ، أو : ينكر بعضكم بعضا ، ويقع بينكم التباغض كقوله : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «٢».
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، فتلعن الأتباع الرؤساء وَمَأْواكُمُ النَّارُ أي : مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع.
وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ يحصنونكم منها.
الإشارة : الإنكار على أهل الخصوصية سنّة اللّه فى خلقه ، فلا يأنف منها إلا جاهل ، والاجتماع على التودد على غير ذكر اللّه ومحبته وما يقرب إليه ، كله يؤدى إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، وهم المتحابون فى اللّه ، المجتمعون على ذكر اللّه والعلم به. واللّه تعالى أعلم.

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٧

يقول الحق جل جلاله : فَآمَنَ لإبراهيم ، أي : انقاد لَهُ لُوطٌ ، وكان ابن أخيه ، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. وَقالَ إبراهيم : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة ، وهو الشام ، فخرج من «كوثى» ، وهى من سواد الكوفة ، إلى حرّان ، ثم منها إلى فلسطين «١» ، وهى من برية الشام ، ونزل لوط بسدوم ، ومن ثمّ قالوا : لكل نبى هجرة ، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه ، فى هجرته ، لوط وسارة زوجته.

وقيل : القائل : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي هو لوط ، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقي : أن أول من هاجر منا فى الإسلام بأهله : عثمان. ورفع الحديث إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأنه قال : إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط. هـ. يعنى : الهجرة إلى الحبشة. وكانت – فيما ذكر الواقدي – سنة خمس من البعثة ، وأما الهجرة إلى المدينة ففى البخاري عن البراء : أول من قدم المدينة من الصحابة مهاجرا ، مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم جاء عمّار ، وبلال ، وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢» ، .

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الذي يمنعنى من أعدائى ، الْحَكِيمُ الذي لا يأمرنى إلا بما هو خير لى.

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ولدا ، وَيَعْقُوبَ ولد ولد ، ولم يذكر إسماعيل لشهرته ، أو : لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجوز عاقر ، فعظمت المنة به. وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ أي : فى ذرية إبراهيم ، فإنه شجرة الأنبياء ، وَالْكِتابَ يريد به الجنس ليتناول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا أي : الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر ، ومحبة أهل الملل له ، أو : هو بقاء ضيافته عند قبره ، وليس ذلك لغيره ، أو : المال الحلال ، واللفظ عام. وفيه دليل على أن اللّه تعالى قد يعجل لأوليائه بعض الأجر فى الدنيا ، ولا يخل بعلو منصبهم. وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لحضرتنا ، والسكنى فى جوارنا. أسكننا اللّه معهم فى فسيح الجنان. آمين.

الإشارة : الهجرة سنّة الخواص ، وهى على قسمين : هجرة حسية ، وهجرة معنوية ، فالحسية هى هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن اللّه ، أو الإذاية والإنكار ، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية : هى هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة ، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة ، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة ، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية ، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعاني ، وهذه نهاية الهجرة.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه المدينة ، ح ٣٩٢٥) من حديث البراء بن عازب – رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٨

قال القشيري : لا تصحّ الهجرة إلى اللّه إلا بالتبرّى بالقلب عن غير اللّه ، والهجرة بالنفس يسيرة بالنسبة إلى الهجرة بالقلب ، وهى هجرة الخواص ، وهى الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمع ، والجمع بين التعريج فى أوطان التفرقة والكون فى مشاهدة الجمع متناف. هـ. وقال فى قوله تعالى : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ أي :

للدنوّ والقربة والتخصيص بالزلفة. هـ.

ثم ذكر قصة لوط ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٨ الى ٣٥]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢)

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : الفعلة البالغة فى القبح ، وهى اللواطة ، ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ : جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعلة ، كأن قائلا قال : لم كانت فاحشة؟ فقال : لأن أحدا ممن قبلهم لم يقدم عليها ، قالوا : لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط.

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أي : تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال ، كما هو شأن قطاع الطريق ، وقيل : اعتراضهم السابلة لقصد الفاحشة ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ فى مجالسكم الغاصة بأهلها ، ولا يقال

(٢٩٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٩

للمجلس : ناد ، إلا مادام فيه أهله ، الْمُنْكَرَ فعلهم الفاحشة بالرجال ، أو : المضارطة ، أو : السباب والفحش فى المزاح ، أو : الحذف بالحصى ، أو : مضغ العلك ، أو الفرقعة.

وعن أم هانئ – رضى اللّه عنها – أنها سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قوله : وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ؟ فقال : «كانوا يحذفون من يمّر بهم الطريق ، ويسخرون منهم»»

. وقال معاوية : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم ، وعند كل رجل قصعة من الحصى ، فإذا مر بهم عابر قذفوه ، فأيهم أصابه كان أولى به» «٢».

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تعدنا من نزول العذاب ، أو فى دعوى النبوة ، المفهومة من التوبيخ ، قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بإنزال العذاب عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها ، وسنّها لمن بعدهم. وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب ، وإشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى ، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم بالولد ، والنافلة إسحاق ، ويعقوب ، أي : مروا عليه ، حين كانوا قاصدين قوم لوط ، قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ سدوم ، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السّلام ، قالوا : إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم ، قاله النسفي. إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ ، تعليل للإهلاك ، أي : إن الظلم قد استمر منهم فى الأيام السالفة ، وهم عليه مصرّون ، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. قالَ إبراهيم : إِنَّ فِيها لُوطاً أي : أتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم ، أو : وفيهم نبى بين أظهرهم؟ قالُوا أي : الملائكة : نَحْنُ أَعْلَمُ منك بِمَنْ فِيها ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم ، فقال : وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ

بِهِمْ أي : ساءه مجيئهم وغمه ، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. و«أن» : صلة لتأكيد الفعلين ، وترتيب أحدهما على الآخر ، كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لمّا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب.

وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي : ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه وطاقته ، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ٣٤١) ، والترمذي وحسّنه فى (التفسير ، سورة العنكبوت ، ٥/ ٣١٩ ، ح ٣١٩٠) ، وصححه الحاكم (٢/ ٤٠٩) ، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطبري (٢٠/ ١٤٥) ، والبغوي فى التفسير (٦/ ٢٣٩).

(٢) انظر تفسير البغوي (٦/ ٢٤٠).

فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع ، إذا كان مطيقا للأمور ، والأصل فيه : أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير ، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

وَقالُوا ، لمّا رأوا فيه أثر الضجر والخوف : لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ على تمكنهم منا ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ أي : وننجى أهلك ، فالكاف فى محل الجر ، و«أهلك» : نصب بفعل محذوف ، إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ. فى الكلام حذف يدل عليه ما فى هود «١» ، أي : لا تخف ولا تحزن من أجلنا ، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك ، بل يهلكون جميعا ، وأما أنت فإنا منجوك .. إلخ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر : إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا : إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً عذابا مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ بسبب فسقهم.

وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها من القرية آيَةً بَيِّنَةً ، هى حكايتها الشائعة ، أو آثار منازلهم الخربة ، وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض ، حيث بقيت أنهارهم مسودة ، وقيل : الحجارة المسطورة ، فإنها بقيت بعدهم آية لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال القشيري : من جملة المنكر : تخلية الفسّاق مع فسقهم ، وترك القبض على أيديهم ، ومن ذلك : ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر. هـ. وقال فى قوله تعالى : إِنَّ فِيها لُوطاً ، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط ، تكلم فى شأن لوط ، إلى أن قالوا : لَنُنَجِّيَنَّهُ .. إلخ ، فدلّ ذلك على أن اللّه تعالى لو أراد إهلاك لوط ، ولو كان بريئا ، لم يكن ظلما ، لو

كان ذلك قبيحا لما كان إبراهيم – مع وفر علمه – يشكل عليه ، حتى كان يجادل عنه ، بل للّه أن يعذّب من يعذّب ويعافى ، من يعافى بلا حجر هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسى فى حاشيته : وما ذكره واضح من حيث العقيدة ، وإن كانت الآية ، وقول إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «٢». والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى :

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ «٣» الآية. هـ. قلت : ظاهر قوله تعالى : يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ «٤» أن مجادلته كانت عن قومه فقط لغلبة الشفقة عليه ، كما هو شأنه ، ولذلك

---

(١) فى قوله تعالى : قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ .. الآية ٨١.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ١٧ من سورة المائدة. [.....]

(٤) من الآية ٧٤ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠١

قال تعالى : إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ... حتى قال له تعالى : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا «١» لمّا تحتّم عليهم العذاب ، فتأمله.

ثم ذكر قصة شعيب ، فقال

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أي : خافوه ، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه ، وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قاصدين الفساد ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ الزلزلة الشديدة ، أو : الصيحة من جبريل عليه السّلام لأن القلوب رجفت بها ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ بلدهم وأرضهم ، جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين.

الإشارة : العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلة ، لا جدوى لها ، كأنها عادة ، وخوف العواقب ، من غير استعداد لها ، خذلان ، والاجتهاد فى العمل ، مع ارتقاب العواقب الغيبية ، فلاح ،

من شأن أهل البصائر ، كما قال تعالى فى حق من مدحهم من أكابر الرسل : أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ «٢».

ثم ذكر قوم هود وصالح وموسى – عليهم السلام – فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

---

(١) الآيتان : ٧٥ – ٧٦ من سورة هود.

(٢) الآيتان : ٤٥ – ٤٦ من سورة «ص».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٢

يقول الحق جل جلاله : وَعاداً وَثَمُودَ أي : اذكر عادا وثمودا ، أو أهلكنا عادا ، وثمودا ، يدل عليه فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لأنه فى معنى الإهلاك ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ما وصفنا من إهلاكهم مِنْ مَساكِنِهِمْ الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررتم بها خالية. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ من الكفر والمعاصي ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ عن الطريق الذي أمروا بسلوكه ، وهو الإيمان باللّه ورسوله. وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ متمكنين من النظر والاستبصار وتمييز الحق من الباطل ، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل بظهور دلائله ، لكنهم عاندوا ، حسدا. يقال : استبصر : إذا عرف الشيء على حقيقته. أو : متيقنين أن العذاب لا حق بهم بإخبار الرسول ، لكنهم لجّوا. أو : مستبصرين فى ضلالتهم معجبين بها. وقال الفراء : عقلاء ذوو بصائر ، يعنى : علماء فى أمور الدنيا ، كقوله : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ... «١»

الآية. وقال مجاهد : حسبوا أنهم على الحق ، وهم على الباطل. هـ.

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ ، أي : أهلكناهم ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ فائتين ، بل أدركهم أمر اللّه فلم يفوتوه. يقال : سبق طالبه : فاته ، فَكُلًّا أَخَذْنا عاقبناه بِذَنْبِهِ ، فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب. قاله النسفي ، وهو جائز عقلا فى حقه تعالى ، لكنه لم يقع لإظهار عدله. فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً أي : ريحا عاصفة فيها حصباء أو : ملكا رماهم بها.

قال ابن جزى : فيحتمل عندى أنه أراد به المعنيين لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة ، وعادا هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد نقض ذكر الآخر ، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد فى معنيين ، ويقوى ذلك أن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ كمدين وثمود ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ كقارون ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا كقوم نوح ، وفرعون وقومه ، وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فيعاقبهم بغير ذنب إذ ليس ذلك من عادته – عز وجل – ، وإن جاز فى حقه ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان ، وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

الإشارة : الاستبصار فى أمور الدنيا ، والتحديق فى تدبير شؤونها ، حمق وبطالة «١» ، وقد وسم به الحق تعالى الكفرة بقوله : وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ، والاستبصار فى أمور اللّه تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه ، والفحص عن ذلك ، والتفكر فى عواقب الأمور من شأن العقلاء الأكياس ، قال صلى اللّه عليه وسلم «ألا وإن من علامات العقل :

التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور» ، وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم :

«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه الأمانى» «٢» ، وقيل للجنيد رضي اللّه عنه : متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال : إذا كان للأمور متميزا ، ولها متصفحا ، وعما يوجبه عليه العقل باحثا ، فيتخير بذلك طلب الذي هو أولى ليعمل به ، ويؤثره على ما سواه. ثم قال : فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يفنى وينقضى ، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا ، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ، ويسير حائل ، يصده التشاغل به ، والعمل له ، عن أمور الآخرة ، التي يدوم نعيمها ونفعها ، ويتأبد سرورها ، ويتصل بقاؤها .. إلخ كلامه.

وقد ضرب اللّه مثلا لمن ركن إلى غير اللّه ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ

لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)

---

(١) الاستبصار فى أمور الدنيا فرض لازم للأمة .. ينبغى أن تتعاون الأمة لإقامته فى كل أمر من أمور الدنيا ، وشأن من شئونها ، وعلى العاقل – ما لم يكن مغلوبا على عقله – أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي وحسّنه فى (صفة القيامة والرقائق ، باب ٢٥ ح ٢/ ١٤٢٣ ح ٤٢٦٠) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، ٢/ ١٤٢٣ ح ٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٤

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ أصناما يعبدونها ، أي : مثل من أشرك باللّه الأوثان فى الضعف ، وسوء الاختيار ، كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، أي : كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإنه لا يدفع الحر والبرد ، ولا يقى ما تقى البيوت ، فكذلك الأوثان ، لا تنفعهم فى الدنيا والآخرة ، بل هى أو هى وأضعف ، فإن لبيت العنكبوت حقيقة وانتفاعا عاما ، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ أي : أضعفها لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لا بيت أوهن من بيته إذ أضعف شىء يسقطها. عن عليّ رضي اللّه عنه : «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت ، فإن تركه يورث الفقر».

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، ويجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب.

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ لعلموا أن هذا مثلهم ، وأنّ ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج :

تقدير الآية : مثل الدين اتخذوا من دون اللّه أولياء ، لو كانوا يعلمون ، كمثل العنكبوت. وقيل : معنى الآية : مثل المشرك يعبد الوثن ، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد اللّه ، مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرّ وجص ، أو جص وصخور ، فكما أن أوهن البيوت ، إذا استقرأتها بيتا بيتا ، بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان ، إذا تتبعتها دينا دينا ، عبادة الأوثان.

وقال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها ، فلو علموا أن عبادة الأوثان ، فى عدم الغنى ، كما ذكرنا فى المثل ، لما عبدوها ، ولكنهم لا يعلمون ، بل اللّه يعلم ضعف ما تعبدون من دونه وعجزه ، ولذلك قال : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ «١» مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، أي : يعلم حاله ، وصفته ، وحقيقته ،

وعدم صلاحيته لما تؤملونه منه ، فما :
موصولة ، مفعول «يعلم» ، وهى تامة ، أي : يتعلق علمه بجميع ما يعبدونه من دونه ، أىّ شىء كان. أو ناقصة ، والثاني محذوف ، أي : يعلمه وهيا وباطلا. وقيل : استفهامية معلقة ، وأما كونها نافية فضعيف ، و«من» ، الثانية للبيان ، ومن قرأ بالخطاب فعلى حذف القول ، أي : ويقال للكفرة : إن اللّه يعلم ما تعبدونه من دونه من جميع الأشياء ، أو : أىّ شىء كان.
وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب الذي لا شريك له ، الْحَكِيمُ فى ترك المعاجلة بالعقوبة ، وفيه تجهيل لهم ، حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شىء ، الحكيم الذي لا يفعل إلا لحكمة وتدبير.
وَتِلْكَ الْأَمْثالُ الغريبة ، أي : هذا المثل ونظائره نَضْرِبُها لِلنَّاسِ نبيّنها لم تقريبا لما بعد عن أفهامهم. كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : يدعون بياء الغيب. وقرأ الباقون بالخطاب. انظر : الإتحاف ٢/ ٣٥١.

ذلك ، فلذلك قال تعالى : وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ ، أي : باللّه وصفاته وأسمائه ، وبمواقع كلامه وحكمه ، أي :
لا يعقل صحتها وحسنها ، ولا يفهم حكمتها ، إلا هم لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى طرق إلى المعاني المستورة ، حتى يبرزها ويصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه الذي بيّن فيه حال المشرك وحال المؤمن. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه تلا هذه الآية ، وقال : «العالم : من عقل عن اللّه ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه» «١» ، ودلّت هذه الآية على فضل العلم وأهله.
خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ أي : محقا ، لم يخلقها عبثا ، كما لم يضرب الأمثال عبثا ، بل خلقها لحكمة ، وهى أن تكون مساكن عباده ، وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته ، بدليل قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لأنهم هم المنتفعون بها. وقيل : بالحق : العدل ، وقيل : بكلامه وقدرته ، وذلك هو الحق الذي خلق به الأشياء. وخص السموات والأرض لأنها المشهودات. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : من اعتمد على غير اللّه ، أو مال بالمحبة إلى شىء سواه ، كان كمن اعتمد على خيط

العنكبوت ، فعن قريب يذهب ويفوت ، يا من تعلق بمن يموت قد تمسّكت بأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه : الأشياء الحسية جعل اللّه فيها القوى والضعيف ، والعزيز والذليل ، والفقير والغنى لحكمة ، وأما أسرار المعاني القائمة بها فكلها قوية عزيزة غنية ، فالأشياء ، بهذا الاعتبار – أعنى : النظر لحسها ومعناها – كلها قوية فى ضعفها ، عزيزة فى ذلها ، غنية فى فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شيء أقوى شيء ، وينصر بأذل شيء على أقوى شيء. روى أنه لما نزل قوله تعالى : وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ شكى العنكبوت إلى اللّه تعالى ، وقال : ربّ خلقتنى ضعيفا ، ووصفتني بالإهانة والضعف ، فأوحى اللّه تعالى إليه : انكسر قلبك من قولنا ، ونحن عند المنكسرة قلوبهم من أجلنا ، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش ، وأغنينا محمدا عن كل ركن كثيف ، فقال : يا رب حسبى أن خلقت فى ذلى عزتى ، وفى إهانتي قوتى. هـ. ذكره فى اللباب.

ثم أمره بالاشتغال بالتلاوة والصلاة تسلية وغيبة عمن آذاه ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤٥]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (٤٥)

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩٦) : «رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل ، ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والثعلبي ، والواحدي ، والبغوي – فى التفسير (٦/ ٢٤٣) – من حديث جابر. وأورده ابن الجوزي فى الموضوعات ، وكتاب العقل ، لداود ، كله موضوع ، وانظر أيضا : تنزيه الشريعة ، لابن عراق (١/ ٢١٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٦

يقول الحق جل جلاله : اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ تنعّما بشهود أسرار معانيه ، وبشهود المتكلم به ، فتغيب عن كل ما سواه ، واستكشافا لحقائقه ، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وقد كان من السلف من يبقى فى السورة يكررها أياما ، وفى الآية يرددها ليلة وأكثر ، كلما رددها ظهر له معان أخر.

وَأَقِمِ الصَّلاةَ أي : دم على إقامتها ، بإتقانها فعلا وحضورا وخشوعا ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ الفعلة القبيحة كالزنى ، والشرب ، ونحوهما ، وَالْمُنْكَرِ ، وهو ما ينكره الشرع والعقل. ولا شك أن

الصلاة ، إذا صحبها الخشوع والهيبة فى الباطن ، والإتقان فى الظاهر ، نهت صاحبها عن المنكر ، لا محالة ، وإلا فلا.

روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول اللّه الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ، فوصف حاله له صلى اللّه عليه وسلم فقال : «إن صلاته تنهاه» ، فلم يلبث أن تاب. هـ «١».

وأما من كان يصليها فلم تنهه فهو دليل عدم قبولها ، ففى الحديث : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللّه إلا بعدا» «٢» رواه الطبراني. وقال الحسن : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة ، وهى وبال عليه. وقال ابن عوف : إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. هـ. فخص النهى بكونه مادام فيها ، وعليه حمله المحلّى.

قال المحشى : يعنى : أن من شأنها ذلك ، وإن لم يحصل ذلك فلا تخرج عن كونها صلاة ، كما أن من شأن الإيمان التوكل ، وإن قدر أن أحدا من المؤمنين لا يتوكل فلا يخرج ذلك عن الإيمان. وقيل : الصلاة الحقيقة : ما تكون لصاحبها ناهية عن ذلك ، وإن لم ينته فالصلاة ناهية على معنى : ورود الزواجر على قلبه ، ولكنه أصر ولم يطع. [ويقال : بل الصلاة الحقيقة ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن كان] «٣» ، وإلا فصورة الصلاة ، لا حقيقتها. انظر القشيري.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٢٨) : «لم أجده» ، وأخرج الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٤٤٧) ، والبزار (كشف الأستار ١/ ٣٤٦) عن أبى هريرة : (جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : إن فلانا يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، فقال : «إن صلاته ستنهاه».

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (٢٠/ ١٥٥) عن ابن عباس وابن مسعود موقوفا ، وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ٢٧٩) للطبرانى ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس مرفوعا. وانظر : الكافي الشاف (ص ١٢٧).

(٣) المثبت بين المعكوفتين من لطائف الإشارات للقشيرى (٣/ ٩٩). وهو ضرورى.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٧

وقال ابن عطية : إذا وقعت على ما ينبغى من الخشوع ، والإخبات لذكر عظمة اللّه ، والوقوف بين يديه ، انتهى عن الفحشاء والمنكر ، وأما من كانت صلاته لا ذكر فيها ولا خشوع ، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان. هـ.

فائدة : ذكر فى اللباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السّلام ، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط ، فلما نزل ، وجنّه الليل خرّ مغشيا ، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين ، شكرا. وأول من صلى الظهر إبراهيم ، لما فدى ولده ، وقد كان نزل به أربعة أهوال ، هم الذبح ، وهم الولد ، وهم والدته ، وهم مرضاة الرب ، فصلى أربع ركعات شكرا للّه تعالى.

وأول من صلى العصر سليمان عليه السّلام ، لمّا رد اللّه عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السّلام ، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السّلام ، ولعله هذا الوقت الذي نبذ فيه بالعراء. وأول من توضأ آدم كفارة لأكله. هـ. مختصرا بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية لتحوز فضائل تلك الشرائع لأنه صلى اللّه عليه وسلم جامع لما افترق فى غيره.

ثم قال تعالى : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، أي : ولذكر اللّه ، على الدوام ، أكبر ، فى النهى عن الفحشاء والمنكر ، من الصلاة لأنها فى بعض الأوقات. فالجزء الذي فى الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة ، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة ، وهو أعظم ، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر للّه ، مراقب له ، وثواب ذلك الذكر أن يذكره اللّه تعالى لقوله : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ «١». ومن ذكره حفظه ورعاه. أو : لذكر اللّه أكبر أجرا ، من الصلاة ، ومن سائر الطاعات ، كما فى الحديث : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : وما ذلك يا رسول اللّه؟ قال : ذكر اللّه» «٢». وسئل : أىّ الأعمال أفضل؟ قال : «أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللّه» «٣».

قيل : المراد بذكر اللّه هو الصلاة نفسها ، أي : وللصلوات أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبّر عنها بذكر اللّه ليشعر بالتعليل ، كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر اللّه. وعن ابن عباس : ولذكر اللّه لكم إياكم ، برحمته ، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء : ذكر اللّه لكم أكبر من ذكركم له لأن ذكره بلا علة ، وذكركم مشوب بالعلل والأمانى ، ولأن ذكره لا يفنى ، وذكركم يفنى. أو : لذكر اللّه أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو : ذكر اللّه أكبر

---

(١) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الدعوات ، باب ٦ ، ٥/ ٤٢٨ ، ح ٣٣٧٧) ، وابن ماجة فى (الأدب ، باب فضل الذك ، ٢/ ١٢٤٥ ، ح ٣٧٩٠) ، والبيهقي فى الشعب (٥١٩) ، والحاكم وصححه فى المستدرك (١/ ٤٩٦) ، وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث أبى الدرداء.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه (٨١٥) ، والبراز (كشف الأستار ح ٣٠٥٩) ، من حديث معاذ بن جبل ، وقال الهيثمي فى المجمع :

(١٠/ ٧٤) : وإسناده حسن. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٨

من أن تبقى معه معصية. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلّقين بالجوارح الظاهرة ، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالعوالم الباطنة ، وهى المساوئ التي تحجب العبد عن حضرة الغيوب ، فإذا أكثر العبد من ذكر اللّه ، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل ، تنور قلبه ، وتطهر سره ولبه ، فاتصف بأوصاف الكمال ، وزالت عنه جميع العلل ، ولذلك جعلته الصوفية معتمدا أعمالهم ، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم ، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير ، بل قاموا فيه بالجد والتشمير ، فيذكرون أولا بلسانهم وقلوبهم ، ثم بقلوبهم فقط ، ثم بأرواحهم وأسرارهم ، فيغيبون حينئذ فى شهود المذكور عن وجودهم وعن ذكرهم ، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، ويصير العبد محوا فى وجود العيان ، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة ، وشهودا ونظرة ، وهو مقام العيان فى منزل الإحسان ، فيكون ذكر اللسان عندهم بطالة «١» ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى وقلبى وروحى ، عند ذكراك

حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك ، ويحك ، والتّذكار ، إيّاك

أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده؟ وواصل الكلّ ، من معناه ، معناك؟!

قال القشيري : ويقال : ذكر اللّه أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد ، فضلا أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان. هـ. وقال فى القوت على هذه الآية : الذكر عند الذاكرين : المشاهدة ، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين فى الآية. ثم قال : وروى فى معنى الآية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، وأشعرت المناسك ، لإقامة ذكر اللّه – عز وجل – » قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «٢» ، أي : لتذكرنى فيها. ثم قال : فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور ، الذي هو المقصود والمبتغى ، عظمة ولا هيبة ، ولا إجلال مقام ، ولا حلاوة فهم ، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول صلى اللّه عليه وسلم الصلاة قسما من أقسام الدنيا ، إذا كان المصلى على مقام من الهوى ، فقال : «حبب إلىّ من

---

(١) لا يكون ذكر اللسان بطالة. والنبي صلى اللّه عليه وسلم وقال : «لا يزال لسانك رطبا بذكر اللّه ..» واللّه عز وجل يقول : «أنا مع عبدى المؤمن ما ذكرنى وتحركت بي شفتاه» فكيف يكون هذا

بطالة!! مع تحقق السر بالذكر؟.

(٢) من الآية ١٤ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٩

دنياكم ..» «١» ذكر منها الصلاة ، فهى دنيا لمن كان همه الدنيا ، وهى آخرة لأبناء الآخرة ، وهى صلة ومواصلة لأهل اللّه – عز وجل – ، وإنما سميت الصلاة لأنها صلة بين اللّه وعبده ، ولا تكون المواصلة إلا لتقى ، ولا يكون التقى إلا خاشعا ، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام ، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر ، كما قال اللّه : إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ. هـ.

ثم ذكر ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر الدائم ، وهو الخلق الجميل ، فوصّى به ، حيث قال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤٦]

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا بالخصلة التي هى أحسن ، أي : ألطف وأرفق ، وهى مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، بأن تدعوه إلى اللّه تعالى برفق ولين ، وتبين له الحجج والآيات ، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة : فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجج ، وأصله : شدة الفتل ، ومنه قيل للصقر : أجدل لشدة فتل بدنه وقوة خلقه. والآية قيل : منسوخة بآية السيف «٢» ، وقيل : نزلت فى أهل الذمة.

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فأفرطوا فى الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النصح ، ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل : إلا الذين آذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو : إلا الذين أثبتوا الولد والشريك ، وقالوا : يد اللّه مغلولة. أو معناه : ولا تجادلوا الذين دخلوا فى الذمة ، المؤدين للجزية ، إلا بالتي هى أحسن ، إلا الذين ظلموا : فنبذوا الذمة ، ومنعوا الجزية ، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة فى الدين ، وعلى جواز تعلم علم الكلام ،

---

(١) أخرج أحمد فى المسند (٣/ ١٢٨ ، ٢٨٥) والنسائي فى سننه (كتاب عشرة النساء ٧/ ١٦١) والحاكم فى المستدرك (النكاح ٢/ ١٦٠) وصححه على شرط مسلم ، وأقره الذهبي ، وكذلك أخرج أبو يعلى فى مسنده (٦/ ١٩٩ – ٢٠٠ ح ٣٤٨٢) كلهم من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «حبب إلىّ من الدنيا : الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» قال

الحافظ ابن حجر : وليس فى شيء من طرقه : لفظ «ثلاث». انظر الفتح السماوي ١/ ٣٧٨ وعليه فالرسول لم يجعل الصلاة من أقسام الدنيا بل هى قرة عينه صلى اللّه عليه وسلم وهذه درجة رفيعة فوق الشيئين اللذين حببا إليه من الدنيا ، وهما الطيب والنساء ، فهذا الشيئان ليس قرة عين له صلى اللّه عليه وسلم ، لأنهما من الدنيا

(٢) قلت : كل ما هو من مكارم الأخلاق ، لا يجرى عليه النسخ ، فتمسك بهذا الأصل ، فحتى لو قاتلنا أهل الكتاب فى جهاد شرعى صحيح ، بشروطه. فنحن مأمورون بالعمل بهذه الآية حين نجادلهم ، إلا من ظلم .. فنعامله بما يستحق حتى يزول ظلمه ، فإن جادلناهم فبالتى هى أحسن أيضا.

(٣٠٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٠

الذي به تتحقق المجادلة. قاله النسفي. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ هذا من حسن المجادلة. قال صلى اللّه عليه وسلم : «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا باللّه وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم» «١». وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ مطيعون له خاصة ، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه.

الإشارة : المناظرة بين العلماء ، والمذاكرة بين الفقراء ، ينبغى أن تكون برفق ولين عن قلب سليم ، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب ، أو تنبيه عن الغفلة ، أو ترقية فى المنزلة ، من غير ملاححة ، أو مخاصمة ، ولا قصد مغالبة لأن العلم النافع ، وذكر اللّه الحقيقي ، يهذب الطبع ، ويحسن الأخلاق.

قال فى الحاشية : ثم تذكّر حسن رده صلى اللّه عليه وسلم للقائلين له : السام عليكم ، ورفقه ، وقوله لعائشة : «متى عهدتنى فاحشا»؟ يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة فى الآية مع ما قبلها ، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة ، الذاكرين اللّه حقيقة ، وأنهم على خلق جميل وحلم وسمت ، لا يستفزهم شيء من العوارض لما رسخ فى قلوبهم من نور القرب الذي محى الطبع وفحشه. واللّه تعالى أعلم. هـ.

ثم ذكر برهان حقيّة القرآن الذي أنزل إلينا ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإنزال البديع أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ مصدقا لسائر

الكتب السماوية وشاهدا عليها ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ التوراة والإنجيل ، يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وهم عبد اللّه بن سلام ومن آمن معه ، وأصحاب النجاشي ، أو : من تقدم عهد الرسول صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب ، وَمِنْ هؤُلاءِ من أهل مكة ، مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، أو : فالذين آتيناهم الكتب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره ، ومن هؤلاء

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٣٦) ، وأبو داود فى (العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب ٤/ ٥٩ - ٦٠ ح ٣٦٤٤) ، وابن حبان فى صحيحه (موارد ح ١١٠ ص ٥٨) ، والطبراني فى الكبير (٢٢/ ٣٤٩) ، والبيهقي فى الكبرى (٢/ ١٠) ، عن أبى نملة الأنصاري. وأصل الحديث فى صحيح البخاري ، فى (كتاب الاعتصام ، باب قول النبي : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ح ٧٣٦١). من حديث أبى هريرةرضي اللّه عنه.

الذين أدركوا زمانك من يؤمن به. وإذا قلنا : إنّ السورة كلها مكية ، يكون إخبارا بغيب تحقق وقوعه ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا ، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، إِلَّا الْكافِرُونَ إلا المتوغلون فى الكفر ، المصممون عليه ، ككعب بن الأشرف وأضرابه ، أو كفار قريش ، إذا قلنا : الآية مكية.

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، بل كنت أميا ، لم تقرأ ولم تكتب ، فظهور هذا الكتاب ، الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة ، على يد أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خرق عادة ، قاطعة لبغيته. وذكر اليمين لأن الكتابة ، غالبا ، تكون به ، أي : ما كنت قارئا كتابا من الكتب ، ولا كاتبا إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أي : لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا : تعلمه ، والتقطه من كتب الأقدمين ، وكتبه بيده. أو : يقول أهل الكتاب : الذي نجده فى كتابنا أمي لا يكتب ولا يقرأ ، وليس به. وسماهم مبطلين ، لإنكارهم النبوة ، أو : لارتيابهم فيها ، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا ، وكونه صلى اللّه عليه وسلم أميا كمال فى حقه صلى اللّه عليه وسلم ، مع كونه أميا أحاط بعلوم الأولين والآخرين ، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية ، من غير مدارسة ولا مطالعة ، وهو ، مع ذلك ، يخبر بما مضى ، وبما يأتى إلى قيام الساعة ، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفاذ من أحبارهم ، الذي يقطع عمره فى مدارسته وتعلمه ، وهذا كله فى جاهلية جهلاء ، بعد فيها العهد بالأنبياء ، وبدّل الناس ، وغيّروا فى كتب اللّه تعالى بالزيادة والنقصان ، ففضحهم صلى اللّه عليه وسلم وقرر الشرائع الماضية ، فهذا كله كاف فى صحة نبوته ، فكانت أميته

صلى اللّه عليه وسلم وصف كمال فى حقه ، ومعجزة دالة على نبوته لأنه صلى اللّه عليه وسلم ، مع كونه أميا ، ظهر عليه من العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، ما يعجز عنه العقول ، ولا تحيط به النقول ، مع إحكامه لسياسة الخلق ، ومعالجتهم مع تنوعهم ، وتدبير أمر الحروب ، وإمامته فى كل علم وحكمة.

وأيضا : المقصود من القراءة والكتابة : ما ينتج عنهما من العلم لأنهما آلة ، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما.

والمشهور أنه صلى اللّه عليه وسلم لم يكتب قط. وقال الباجى وغيره : إنه كتب ، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبي :

مامات النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى : بَلْ هُوَ أي : القرآن آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أي : فى صدور العلماء وحفاظه ، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور ، بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ، ولم تكن تقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس : بَلْ هُوَ أي : محمد ، والعلم بأنه أمي ، آياتٌ بَيِّناتٌ فى صدور أهل العلم من أهل الكتاب ، يجدونه فى كتبهم. هـ «١». و(بل) : للإضراب عن

---

(١) ذكر الطبري القولين (٢١/ ٥ - ٦) ورجح القول الثاني لأن قوله تعالى : بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ بين خبرين من إخبار اللّه عن رسول اللّه سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم. فهو بأن يكون خبرا عنه أولى من أن يكون خبرا عن الكتاب.

محذوف ، ينساق إليه الكلام ، أي : ليس الأمر مما يمكن الارتياب فيه ، بل هو آيات واضحات.

و(فى صدور) : متعلق ببينات ، أو : خبر ثان لهو. وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا الواضحة إِلَّا الظَّالِمُونَ المتوغلون فى الظلم. قال ابن عطية :

الظالمون والمبطلون هم كل مكذب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، ولكن عظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة : كم من وليّ يكون أميا ، وتجد عنده من العلوم والحكم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء.

ما اتخذه اللّه وليا جاهلا إلا علّمه. ولقد سمعت من شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه علوما وأسرارا ، ما رأيتها فى كتاب ، وكان يتكلم فى تفسير آيات من كتاب اللّه على طريق أهل الإشارة ، قلّ أن تجدها عند غيره ، وسمعته يقول : واللّه ما جلست بين يدى عالم قط ، ولا قرأت شيئا من العلم الظاهر. قال القشيري : قلوب الخواص من العلماء باللّه خزائن الغيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبينات سرّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ، فقانون الحقائق فى قلوبهم ، وكلّ شيء يطلب من موطنه ومحله ، فالدر يطلب من الصدف لأنه مسكنه ، كذلك المعرفة ، ووصف الحق يطلب من قلوب خواصه «١» لأن ذلك قانون معرفته ، ومنها ترفع نسخة توحيده. هـ.

ثم رد اقتراحهم للآيات ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢)

---

(١) إنما يرجع إلى وصف اللّه فى قلوب خواصه ، لأنهم عرفوا اللّه بالرجوع إلى وحيه ، (الكتاب والسنة) فلا طريق لمعرفة اللّه ، إلا ما أوحاه اللّه ، ابتداء ، وانتهاء.

ثم اعلم رحمك اللّه : أن معرفة القراءة والكتابة ليست شرطا فى الولاية ، وحفظ كلام اللّه تعالى ، ومعرفة أسرار التوحيد والإيمان ، ، والإسلام .. وهاك مثلا واحدا : وهو سيدنا «حماد بن مسلم الدباس» ، أستاذ الشيخ القدوة ، عارف زمانه ، الإمام عبد القادر الجيلاني ، وهو حماد بن مسلم بن ددّوه ، الشيخ القدم ، علم السالكين ، أبو عبد اللّه الدباس ، الرحبي – نسبة إلى رحبة مالك بن طوق ، «نشأ ببغداد ، وكان من أولياء اللّه ، أولى الكرامات ، انتفع بصحبته خلق ، وكان يتكلم على الأحوال ، وكتبوا من كلامه نحوا من مئة جزء ، وكان أميا ، وكان يتكلم على آفات الأعمال ، والإخلاص ، والورع ، قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات ، وزوال أكثر المهن والصنائع ، فى طلب الحلال ، وكان مكاشفا. فعنه قال : إذا أحب اللّه عبدا أكثر همه فيما فرّط ، وإذا أبغض عبدا أكثر همه فيما قسمه له. وقال : العلم محجة ، فإذا طلبته لغير اللّه ، صار حجة .. مات سنة ٥٢٥ هـ. وكان الشيخ عبد القادر من تلامذته :

«انظر : شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء : (١٩/ ٥٩٤ – ٥٩٦) تحقيق وتعليق : شعيب الأرنؤوط ، ط ١١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م. وراجع أيضا فى هذه القضية : الفتوحات الإلهية للشيخ المفسر/ ٢٠١ – ٢٠٤.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ «١» مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص : بالجمع «آيات» ، كثيرة ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ، ينزل منها ما شاء متى شاء ، ولست أملك منها شيئا ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ إنما كلفت بالإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات ، وليس من شأني أن أقول : أنزل على آية كذا دون آية كذا ، مع علمي أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتي ، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك.

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ، أي : أو لم يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات ، إن كانوا طالبين للحق ، غير متعنتين ، وهو هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل زمان ومكان ، فلا يزال معهم آية ثابتة ، لا تزول ولا تنقطع ، كما انقطع غيره من الآيات ، وفي ذلك يقول البوصيري : دامت لدينا ففاقت كلّ معجزة من النّبيّين إذ جاءت ولم تدم

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : في هذه الآية الموجودة في كل زمان إلى آخر الدهر ، لَرَحْمَةً لنعمة عظيمة ، وَذِكْرى وتذكرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ دون المتعنتين. قال يحيى بن جعدة : إن ناسا من المسلمين أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما يقول اليهود ، فألقاها ، وقال : كفى بها حماقة ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم ، فنزل : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ... إلخ «٢».

قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً أي : شاهدا بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن عليّ ، وتكذيبكم ، يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فهو مطلع على أمري وأمركم ، وعالم بحقي وباطلكم ، فلا يخفى عليه شيء. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وهو ما يعبد من دون اللّه ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وبآياته منكم أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ المغبونون في صفقتهم ، حيث اشتروا الكفر المؤدى إلى النيران ، بالإيمان المؤدى إلى الخلود في الجنان. روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا : من يشهد لك بأنك رسول اللّه؟ فنزل : قُلْ كَفى ... إلخ.

الإشارة : اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق إذ ليس بيد النبي أو الولي شيء من ذلك ، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على اللّه ، والدعاء إليه ، والكرامة لا تدلّ على كمال صاحبها ، «ربما رزق الكرامة من لم تكمل له

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو بكر ، وهمزة ، والكسائي «آية» بالتوحيد على إرادة الجنس ، وقرأ الباقون بالجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥١).

(٢) أخرجه الدارمي فى (المقدمة ، باب من لم ير كتابة الحديث ١/ ١٣٤ ، ح ٤٧٨) ، وأبو داود فى المراسيل (باب ما جاء فى العلم) ، وابن جرير فى التفسير (٢١/ ٧) من حديث يحيى بن جعدة ، مرسلا.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٤

الاستقامة» «١» ، ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه «٢». وقد تظهر الكرامات فى البدايات وتخفى فى النهايات ، والكرامة العظمى هى الاستقامة وكشف الحجاب بين اللّه وعبده حتى يشاهده عيانا ، ويذهب عنه الأوهام والشكوك ، وأما غير هذا فقد يكون استدراجا لمن يقف معه. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا لم تظهر آية كما اقترحوا ، استعجلوا العذاب ، استهزاء ، كما قال تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، كقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى المضروب لعذاب كل قوم ، أو : القيامة ، أو : يوم بدر ، أو : وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى : ولو لا أجل قد سمّاه اللّه وعيّنه فى اللوح المحفوظ ، لَجاءَهُمُ الْعَذابُ عاجلا. والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ العذاب فى الأجل المسمى بَغْتَةً : فجأة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أي : لتحيط بهم ، أو : هى كالمحيطة بهم ، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصي. واللام للعهد ، على وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على موجب الإحاطة ، وهو الكفر ، أو الجنس ، فيدخل المخاطبون دخولا أوليا. وتكرير استعجالهم لاختلاف ما يترتب على كل واحد ، فرتب على الأول حكمة تأخيره ، وعلى الثاني تهديدهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى : يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، هذا وقت إحاطتها بهم ، أي : تحيط من جميع جوانبهم ، كقوله : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ «٣». وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي : باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة : ما قيل فى حق من استعجل العذاب من الأنبياء ، يقال فى حق من استعجله من الأولياء ،

بحيث يؤذيهم ويقول : ليظهروا ما عندهم ، فهذا حمق كبير ، ولا بد أن يلحقه وبال ذلك ، عاجلا ، أو آجلا ، إما ظاهرا

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٧ ، حكمة ١٧٨).

(٢) انظر الحكم (ص ٢٦ حكمة ١١١).

(٣) من الآية ١٦ من سورة الزمر.

أو باطنا ، وقد لا يشعر ، وقد يسرى ذلك إلى عقبه فيصيبه ذلك الوبال ، كما أصاب أباه ، والعياذ باللّه من التعرض لأوليائه.

ثم أمر بالهجرة من الأرض التي تكثر فيها الإذاية فى الدين ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٩]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ ، فإذا لم يتيسر لكم إقامة دينكم فى بلد ، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم ، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيرا ، والناس مختلفون ، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التي يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم ، كالمدن والقرى الكبار ، التي يكثر فيها العلم وأهله. وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التي تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل ، أينما وجدوها عمروها ، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رضي اللّه عنه : إذا ظهرت المعاصي والبدع فى أرض ، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من فرّ بدينه من أرض ، إلى أرض ، وإن كان شبرا ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام» «١».

فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

أي : فخصونى بالعبادة. وإياى : مفعول لمحذوف ، ومفعول «اعبدوني» : الياء المحذوفة ، أي : فاعبدوا إياى ، فاعبدونى. والفاء : جواب الشرط ، محذوف ، إذ المعنى : إن أرضى واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض ، فاخلصوا لى فى غيرها.

ثم شجّع المهاجرين بقوله : كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ، أي : واجدة مرارته وكربه لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها. ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ بالموت ، فتجازون على ما أسلفتم. ومن علم أن هذا عاقبته ينبغى أن يجتهد فى الاستعداد له ، فإن لم يتهيأ فى أرض فليهاجر منها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لننزلنهم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً علالى ، عالية ، وقرأ حمزة والكسائي : لنثوينهم لنقيمنهم ، من الثّوى ، وهو الإقامة ، وثوى : غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة الهمزة ، لم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. انظر الكافي الشاف (٣/ ٤٦١).

يجاوز مفعولا واحدا. والوجه فى تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إما إجراؤه مجرى «لننزلنهم» ، أو :

بحذف الجار ، وإيصال الفعل ، أو : شبه الظرف المؤقت ، بالمبهم ، أي : لنقيمنهم فى غرف تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ أجرهم هذا. وهم الَّذِينَ صَبَرُوا على مفارقة الأوطان وأذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، ومشاق الطاعات ، وترك المحرمات ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، أي : لم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على اللّه ، فكفاهم شأنهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل من لم يتأتّ له جمع قلبه فى بلده فليهاجر منها إلى غيره ، وليسمع قول سيده : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ

،

فإن شق عليه مفارقة الأوطان ، فليذكر مفارقته للدنيا فى أقرب زمان. وكان الصدّيق رضي اللّه عنه لمّا هاجر إلى المدينة ، وأصابته الحمى ، يتسلى بذكر الموت ، وينشد :

كلّ امرئ مصبّح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وقد أكثر الناس فى الوعظ بالموت وهجومه ، نظما ونثرا ، فمن ذلك قول الشاعر :

الموت كأس ، وكلّ الناس شاربه والقبر باب ، وكلّ الناس داخله

وقال آخر :

اعلم بأنّ سهام الموت قاطعة بكلّ مدّرع فيها ومترّس

ركوبك النعش ينسيك الرّكوب إلى ما كنت تركب من نعل ومن فرس

ترجو النّجاة ، ولم تسلك طريقتها إنّ السّفينة لا تجرى على يبس
إلى غير ذلك مما يطول.
ولما أمر بالهجرة خافوا العيلة ، فأنزل اللّه تعالى :
[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٠ الى ٦٣]
وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٧
يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ أي : وكم من دابة من دواب الأرض ، عاقلة وغير عاقلة ، لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ، اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ أي : لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا اللّه ، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا اللّه ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها لكنتم أعجز من الدواب. وعن الحسن : لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا : لا تدخره ، إنما تصبح خماصا «١» ، فيرزقها اللّه. وقيل : لا يدخر من الحيوان قوتا إلا ابن آدم والفأرة والنملة «٢». وَهُوَ السَّمِيعُ لقولكم : نخشى الفقر والعيلة إن هاجرنا ، الْعَلِيمُ بما فى ضمائركم من خوف فوات الرزق.
ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين وغيرهم مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ على كبرهما وسعتهما ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يجريان فى فلكهما ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لا يجدون جوابا إلا هذا ، لإقرارهم بوجود الصانع ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن توحيد اللّه؟
مع إقرارهم بهذا كله ، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ هاجر أو أقام فى بلده ، وَيَقْدِرُ لَهُ ويضيق عليه ، أقام أو هاجر ، فالضمير فى لَهُ لمن يشاء لأنه مبهم غير معين ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم ، فمنهم من يصلحه الفقر ، ومنهم من يفسده ، ففى الحديث القدسي : «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك» «٣». ذكره النسفي.
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ معترفين بأنه الموجد

للكائنات بأسرها ، أصولها وفروعها ، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي هو أضعف الأشياء. قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على إظهار قدرته ، حتى ظهرت لجميع الخلق ، حتى أقرت بها الجاهلية الجهلاء. أو : على ما عصمك مما هم عليه ، أو : على تصديقك وإظهار حجتك ، أو : على إنزاله الماء لإحياء الأرض ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ لا عقول لهم ، فلا يتدبرون فيما يريهم من الآيات ويقيم عليهم من الدلالات. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) «خماصا» جياعا ، جمع خميص. [.....]

(٢) قاله سفيان فيما ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٥٣).

(٣) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٨٠٩٨ ، ٨١٠٠) من حديث عمر ، وأنس – رضى اللّه عنهما.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٨

الإشارة : الرزق مضمون بيد من أمره بين الكاف والنون ، لا يزيد بحرص قوى ، ولا ينقص بعجز ضعيف ، بل قد ينعكس الأمر ، كما قال الشاعر :

كم قويّ قويّ فى تقلبه [ترى عنه أمر الرّزق ينحرف] «١»

وكم ضعيف ضعيف فى تصرفه كأنه من خليج البحر يغترف

وقد يبسطه اللّه لأهل الغفلة والبعد ، ويقدره لأهل الولاية والقرب ، كما قال القائل :

اللّه يرزق قوما لا خلاق لهم مثل البهائم فى خلق التّصاوير

لو كان عن قوّة أو عن مغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وقال عليه الصلاة والسلام – فى بعض خطبه – : «أيها الناس ، إن الرزق مقسوم ، لن يعدو امرؤ ما كتب له ، فاتقوا اللّه ، وأجملوا فى الطلب. وإن الأمر محدود ، لن يجاوز أحد ما قدر له ، فبادروا قبل نفود الأجل ، وإن الأعمال محصاة ، لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة ، فأكثروا من صالح الأعمال ...» الحديث. وقال صلى اللّه عليه وسلم : «لو توكلتم على اللّه حقّ توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» «٢».

ثم حقّر الدنيا وعظّم الآخرة ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٦]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي

الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ أي : وما هى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ، إلا كما يلعب الصبيان ساعة ، ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها ، وكيف لا يحقرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو : ما يتلذذ به الإنسان ، فيلهيه ساعة ، ثم ينقضى. وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ ، أي : الحياة الحقيقية لأنها دائمة. والحيوان : مصدر ، وقياسه : حييان ، فقلب الياء

---

(١) فى الأصول الخطية [ترى أمر الرزق عنه ينحرف].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٠ - ٥٢) والترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى التوكل على اللّه ، ٤/ ٤٩٥ ، ح ٢٣٤٤) وقال : حديث حسن صحيح وابن ماجه فى (الزهد ، باب التوكل واليقين ، ٢/ ١٣٩٤ ، ح ٤١٦٤) والحاكم وصححه (٤/ ٣١٨) من حديث سيدنا عمر رضي اللّه عنه.

الثانية واوا. ولم يقل : لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب. وفى المصباح : الحيوان :

مبالغة فى الحياة ، كما قيل : للموت الكثير : موتان. هـ. لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي.

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ، هو مرتب على محذوف ، دل عليه ما وصفهم به قبل ، والتقدير : هم على ما هم عليه من الشرك والعناد ، وإذا ركبوا فى الفلك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، أي : كائنين فى صورة من يخلص الدين للّه من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا اللّه ، ولا يدعون معه إلها آخر ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ، وأمنوا من الغرق ، إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ، أي : عادوا إلى حال الشرك ، لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من النعمة ، وَلِيَتَمَتَّعُوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها. واللام فيهما : إما لام كى ، أي : يعودون إلى شركهم ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ ، لا غير ، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين ، فإنهم يشكرون نعمة اللّه إذا أنجاهم ، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى توحيده وطاعته ، لا إلى التلذذ والتمتع. أو : لام الأمر ، على وجه التهديد ، كقوله : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «١» ، ويقويه : قراءة من سكّن الثانية «٢» ، أي : ليكفروا وليتمتعوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة : الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد ، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق ، ويترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل ولا يحيط بها نقل ، لأن فى هذه الدار : عرفه من عرفه ، وجهله من جهله. والترقي عند العارفين فيها أكثر لأنه يسير بين جلاله وجماله ، وهناك ليس إلا الجمال ، والترقي بين الضدين أعظم ، فإذا مات بقي يترقى فى أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. واللّه أعلم.

فتحصل أن الدنيا فى حق أهل الغفلة لعب ولهو لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة اللّه والوصول إليه ، ولذلك حذّر منها صلى اللّه عليه وسلم ، فقد قال فى بعض خطبه : «أيها الناس ، لا تكونوا ممن خدعته العاجلة ، وغرته الأمنية ، واستهوته الخدعة ، فركن إلى دار سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال إذ لن يبقى من دنياكم هذه فى جنب ما مضى إلا كإناخة راكب ، أو درّ حالب ، فعلام تعرجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم ، واللّه ، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا ، كأن لم يكن ، وما تصيرون إليه من الآخرة ، لم يزل ، فخذوا فى الأهبة لأزوف النقلة ، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أن كل امرئ على ما قدّم قادم ، وعلى ما خلّف نادم». وفى حق أهل الجد جد وحق لأنها مزرعة للآخرة ، ومتجر من أسواق اللّه ، فيها ربحهم وغنيمتهم. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي (و ليتمتعوا) بسكون اللام ، على أنها للأمر ، وقرأ الباقون بكسرها ، إما للأمر ، أو لام كى ، والأصل فى كل الكسر. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٣) والبحر المحيط (٧/ ١٥٥).

ثم ذكّرهم بما أنعم عليهم ، ليشكروا ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٧ الى ٦٨]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أهل مكة أَنَّا جَعَلْنا بلدهم حَرَماً أي : ممنوعا مصونا من الهبب ، آمِناً يأمن كل من دخله ، أو آمنا أهله من القتل والسبي ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أي : يخطف بعضهم بعضا ، قتلا وسبيا ، إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ أبعد

هذه النعمة العظمى يؤمنون بالأصنام ويعبدونها ، أو : الشيطان ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ حيث أشركوا به غيره ، أو بمحمد صلى اللّه عليه وسلم إذ هو النعمة المهداة ، أو : الإسلام. وتقديم المعمولين للاهتمام ، أو للاختصاص.

وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن جعل له شريكا ، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو : الكتاب ، لَمَّا جاءَهُ أي : لم يتلعثموا فى تكذيبه لمّا سمعوه ، وفى «لمّا» المقتضية للاتصال ، تسفيه لرأيهم ، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً مقاما لِلْكافِرِينَ ، وهو تقرير لمثواهم فى جهنم ، لأن همزة الإنكار ، إذا دخلت على النفي ، صار إثباتا ، كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا «١» أي : أنتم خير من ركب المطايا ، والتقدير : ألا يستوجبون الثوى فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة ، كذبوا على اللّه وكذّبوا بالحق الذي جاء من عنده ، أو : ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين؟ حين اجترءوا مثل هذه الجرأة ، بل لهم فيها مثوى وإقامة. وهذه الآية فى مقابلة قوله : لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً «٢». لا سيما فى قراءة الثاء. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) هذا شطر بيت .. وبقيته : وأندى العالمين بطون راح؟

(٢) من الآية ٥٨ من سورة العنكبوت.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢١

الإشارة : الحرم الآمن ، فى هذه الدار ، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها ، والتجريد من أسبابها ، فمن دخله أمن ظاهرا وباطنا ، ومن هجرها ، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهارجون عليها ، وهو يتفرج عليهم ، فالدنيا جيفة والناس كلابها ، فإن خالطتهم ناهشوك ، وإن تركت لهم جيفتهم سلمت منهم ، فمن كذّب بهذا فقد كذّب بالحق وآمن بالباطل ، فلا أحد أظلم منه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مآل أهل الجد والاجتهاد ممن تبتل وانقطع إلى اللّه فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٩]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ، أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ، أي : جاهدوا نفوسهم فى طلبنا ، أو فى حقنا ، ومن أجلنا ، ولوجهنا ، خالصا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أي : طرق السير إلينا ، والوصول إلى حضرتنا ، أو

لنسهلنهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جنابنا.

وعن الداراني : والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا ، لنهدينهم إلى علم ما لم يعلموا. وقال الفضيل : والذين جاهدوا فى طلب العلم ، أي : للّه ، لنهدينهم سبل العمل. وقال سهل : والذين جاهدوا فى إقامة السنّة ، لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عطاء : جاهدوا فى إرضائنا لنهدينهم سبل الوصول إلى محل الرضوان. وقال ابن عباس : جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وقال الجنيد : جاهدوا فى التوبة ، لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو : جاهدوا فى خدمتنا لنمنحنهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بالنصر والمعونة فى الدنيا ، وبالثواب والمغفرة فى العقبى. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : المجاهدة ، على قدرها تكون المشاهدة ، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له. وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم ، وبها تحقق سير السائرين ، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم من الجاه والغنى وغيره ، والخصوص خالفوا نفوسهم ، ورفضوا حظوظهم ، وخرقوا عوائدهم ، فخرقت لهم العوائد ، وانكشفت عنهم الحجب ، وشاهدوا المحبوب. فجاهدوا أولا فى ترك الدنيا ، وتحملوا مرارة الفقر ، حتى تحققوا بمقام التوكل ، ثم جاهدوا فى ترك الجاه والرئاسة ، فتحققوا بالخمول ، وهو أساس الإخلاص ، ثم جاهدوا فى مخالفة النفس ، فحمّلوها كل ما يثقل

(٣٢١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٢

عليها ، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها ، وارتكبوا فى ذلك أهوالا وأحوالا صعابا ، حتى ماتت نفوسهم موتات ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم ، وأشرفت على البحر الزاخر ، بحر التوحيد الخاص ، فغابت ظلال الأكوان حين أشرقت شمس العيان ، ففنى من لم يكن ، وبقي من لم يزل ، فدخلوا جنة المعارف ، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف لأنها منطوية فيها. ولا بد من صحبة شيخ كامل ، قد سلك هذه المسالك ، يلقيه زمام نفسه ، حتى يوصله إلى ربه ، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.

وقوله تعالى : وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ تهوين وتسهيل على السائرين أمر نفوسهم ومجاهدتها ، إذا علموا أن اللّه معهم ، هان عليهم كل صعب ، وقرب كل بعيد. وباللّه التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(٣٢٢/٤)

سورة الرّوم

مكية اتفاقا ، وقيل : إلى قوله : فَسُبْحانَ اللَّهِ .. «١» إلخ. وهى تسع وخمسون ، أو ستون ، آية.
ومناسبتها لما قبلها : أن نتيجة المعية التي ذكرها بقوله : وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ هى النصر والعز الذي بشر به المؤمنين فى صدر السورة بقوله : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .. إلخ. قال تعالى :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧)

يقول الحق جل جلاله : بعد التسمية : الم أي : أيها المصطفى ، أو : المرسل ، غُلِبَتِ الرُّومُ أي : غلبت فارس الروم فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أي : فى أقرب أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم ، أي : غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم ، وهى أطراف الشام. أو : أراد أرضهم ، على إنابة اللام مناب المضاف إليه ، أي : فى أدنى أرضهم إلى عدوّهم. قال ابن عطية : قرأ الجمهور : «غلبت» بضم الغين. وقالوا : معنى الآية : أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم بأذرعات ، وهى أدنى أرض الروم إلى مكة ، فسر لذلك كفار قريش ، فبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله : وَهُمْ أي : الروم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ، وقرئ : بسكون اللام كالحلب والحلب ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : وهم من بعد غلبة فارس إياهم سَيَغْلِبُونَ فارس ، وتكون الدولة لهم.

---

(١) الآية ١٧ من السورة.

وذلك فِي بِضْعِ سِنِينَ ، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفي : قيل : احتربت الروم [وفارس] «١» ، بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، والملك بفارس ، يومئذ ، كسرى «أبرويز» ، فبلغ الخبر مكة ، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين لأنّ فارس مجوس لا كتاب لهم ، والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون [وشمتوا] «٢» ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن

وفارس أمّيّون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرنّ نحن عليكم ، فنزلت الآية. فقال أبو بكر : واللّه ليظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبيّ بن خلف :

كذبت ، فناحبه – أي : قامره – على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : «زد فى الخطر وأبعد فى الأجل» ، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أبيّ من جرح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، أو : يوم بدر ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ ، فقال عليه الصلاة والسلام – : «تصدّق به» «٣».

وهذه آية بينة على صحة نبوته ، وأن القرآن من عند اللّه لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار ، [عن] «٤» قتادة. ومذهب أبى حنيفة ومحمد – رضى اللّه عنهما – : أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره ، جائز فى دار الحرب بين المسلمين والكفار ، واحتجا بهذه القصة. هـ. زاد البيضاوي : وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار. هـ. وقرئ : «غلبت» بالفتح ، و«سيغلبون» بالضم ، ومعناه : أن الروم غلبوا على ريف الشام ، وسيغلبهم المسلمون ، وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ، وفتحوا بعض بلادهم ، وعلى هذا يكون إضافة الغلب إلى الفاعل.

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أي : من قبل كل شيء ، ومن بعد كل شيء. أو : من قبل الغلبة وبعدها ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين – وقبله : هو وقت كونهم مغلوبين – ومن بعد كونهم مغلوبين – وهو وقت كونهم غالبين ، يعنى : أن كونهم مغلوبين أولا ، وغالبين آخرا ، ليس إلا بأمر اللّه وقضائه. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «٥». وَيَوْمَئِذٍ أي : ويوم تغلب الروم فارس ، ويحل ما وعده اللّه من غلبتهم ، يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، وتغلب من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته من تفسير النسفي.

(٢) فى الأصول : [شتموا].

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢١/ ١٧ – ١٨) عن عكرمة ، وجاءت القصة بسياقات وروايات متعددة. أخرجها أحمد (١/ ٢٧٦ – ٣٠٤) ، والترمذي فى (تفسير سورة الروم ، ٥/ ٣٢١ ح ٣١٩٣ – ٣١٩٤) ، وابن جرير (٢١/ ١٦ – ١٨) ، والطبراني فى الكبير (١٢/ ٢٩ ح ١٢٣٧٧) والحاكم (٢/ ٤١٠) ، وانظر الدر المنثور (٥/ ٢٨٩ – ٢٩٢).

(٤) فى الأصول [قال] ، والمثبت من تفسير النسفي.

(٥) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران. [.....]

وقيل : نصر اللّه : هو إظهار صدق المؤمنين ، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ : الغالب على أعدائه الرَّحِيمُ : العاطف على أوليائه.

وَعْدَ اللَّهِ أي : وعد ذلك وعدا ، فسينجزه لا محالة ، فهو مصدر مؤكّد لما قبله لأن قوله : سَيَغْلِبُونَ وعد ، لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ لامتناع الكذب عليه تعالى ، فلا بد من نصر الروم على فارس. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ صحة وعده ، وأنه لا يخلف ، أو : لا يعلمون أن الأمور كلها بيد اللّه لجهلهم وعدم تفكرهم. وإنما يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ما يشاهدونه منها ومن التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها : ما يعرفه الجهّال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء : إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار ، فإنها مجمع الأكدار ، ومنبع المضار ، وسجن الإبرار ، ومجلس الأشرار ، الدنيا كالحية ، تجمع سموم نوائبها ، وتفرغه فى صميم قلوب أبنائها. هـ. وباطنها : أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتنكير (ظاهرا) : مفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها. وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ لا تخطر ببالهم ، ولا يتفكرون فى أهوالها وتوائبها. فهم ، الثانية : مبتدأ ، و(غافلون) : خبره ، والجملة : خبر الأولى ، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرّها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما تقع الدولة بين الأشباح ، تقع بين النفوس والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح ، فتحجبها عن اللّه ، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس ، فتستر ظلمة حظوظها ، ويرتفع الحجاب بين اللّه وعبده. الم ، غلبت أنوار الأرواح بظلمة كثائف النفوس ، فى أدنى أرض العبودية ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة ، على ظلمة النفوس الظلمانية ، وذلك فى بضع سنين ، مدة المجاهدة ، والبضع : من ثلاث إلى عشر ، على قدر الجد والاجتهاد ، وعلى قدر تفاوت النفوس والطبع ، فمنهم من يظفر بنفسه فى مدة يسيره ، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. للّه الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر اللّه ، حيث نصرهم على نفوسهم ، فظفروا بها. ينصر من شاء حيث يشاء ، وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.

وقال الورتجبي : قوله : غُلِبَتِ الرُّومُ .. الآية ، إشارة إلى أن الأرواح ، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة ، والشياطين الكافرة امتحانا من اللّه ، وتربية لها بمباشرة القهريات ، فإنها تغلب على النفوس ، من حين تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيري : قوله تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا : استغراقهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم بما منعهم عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ علمه كما فى الأثر عن علىّ رضي اللّه عنه. قال :

وقيمة كلّ امرئ ما كان يتقنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٦

فأهل الدنيا فى غفلة عن الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة ، هم بوجودها ، فى غفلة عن اللّه. هـ. قلت : وأهل المعرفة باللّه لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالتفكر ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٨]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨)

قلت : «فى أنفسهم» : يحتمل أن يكون ظرفا ، أي : أولم يحدثوا التفكر فيها ، وأن تكون صلة للتفكر ، نحو : تفكر فى الأمر : أجال فيه فكره. والأول أظهر.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي : أولم يثبتوا التفكر فى أنفسهم ، أي : فى قلوبهم الفارغة ، فيتفكروا بها فى مصنوعات اللّه ، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثا ، والتفكر لا يكون إلا فى القلوب ، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقوله : اعتقده فى قلبك. أو : أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، التي هى أقرب إليهم من غيرها ، وهم أعلم بأحوالها ، فيتدبروا ما أودعها اللّه تعالى ، ظاهرا وباطنا ، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه ، على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا ، عند ذلك ، أن سائر الخلائق مثلها ، وأنه لا بدّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، فيعلموا أن ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى أي : ما خلقها باطلا وعبثا من غير حكمة ، ولا لتبقى خالدة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة البالغة ، وتنتهى إلى أجل مسمى ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، بالثواب والعقاب ، فيخرب هذا العالم ، ويقوم عالم آخر ، لا انتهاء لوجوده.

قال فى الحاشية الفاسية : وبالجملة : فخلق السموات والأرض للدلالة على التوحيد بوجودهما ، وعلى الآخرة بفنائهما ، وانقضاء أجلهما. ثم قال : والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضى جزاء أوليائه ، وتعذيب أعدائه. وقد نصب تعالى القلب شاهدا ومنزلا منزلة الآخرة ، والقالب منزلة الدنيا ، وكما أن عمل القالب يعود نفعه ، إذا فعل الطاعة ، على القلب بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية ، ويعود ضرره عليه ، إذا فعل ضد ذلك ، كما يعرفه أهل القلوب ، وأنه مزرعة للقلب ، ولا بقاء له ، وإنما خلق لقضاء ذلك ، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة ، وإنما خلقت لذلك ، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة ، فاعتبر ذلك. هـ.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٧

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ بالبعث والجزاء لَكافِرُونَ : لجاحدون.

الإشارة : قد تقدم الكلام على فضل التفكر فى آل عمران «١». وقوله تعالى : إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ما خلق الكائنات إلا بالحق ، من الحق إلى الحق ، فهى من تجليات الحق ، ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق ، فافهم.

ثم قال زيادة فى الأمر بالاعتبار ، أو : تقول : لمّا ذكر علمهم بظاهر الحياة الدنيا ، ذكر أن من قبلهم كانوا أعلم بها ، ولم ينفعهم مع التكذيب ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٩ الى ١٠]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)

قلت : من رفع «عاقبة الذين أساءوا» فالسوأى : منصوب خبر كان ، ومن نصب «عاقبة» فالسّوأى : مرفوع اسمها ، أو : مصدر لأساءوا. انظر البيضاوي. والسّوأى : تأنيث أسوأ. و(أن كذبوا) : مفعول من أجله ، أو : بدل ، على أن معنى (أساءوا) : كفروا.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا أي : أعموا ولم يسيروا فِي الْأَرْضِ ، ثم قرره بقوله : فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : فينظروا إلى آثار الذين من قبلهم كيف دمرهم اللّه ، وأخلا بلادهم ، وبقيت دراسة بعدهم ، كعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم العاتية ، والجبابرة الطاغية ، كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً حتى كان منهم من يفتل الحديد بيده ، وَأَثارُوا الْأَرْضَ قلبوا وجهها بالحراثة ، واستنباط المياه ، واستخراج المعادن ، وغير ذلك. وَعَمَرُوها أي : عمر المدمّرون الأرض أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها أي : أهل مكة ، فأكثر : صفة لمصدر محذوف. و(ما) : مصدرية ، أي : عمارة هؤلاء ، فإنهم أهل واد غير ذى زرع ، ولا تبسط لهم فى غيرها. وفيه تهكم بهم من حيث إنهم عمروا الأرض ، مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالا فيها

---

(١) راجع تفسير الآيات : ١٩١ – ١٩٤ من سورة آل عمران ، ص ٤٥١ – ٤٥٢ من المجلد الأول.

إذ مدار أمرها على التبسّط فى البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف فى أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجأون إلى واد لا نفع فيه. قال البيضاوي.

وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحات ، فلم يؤمنوا فأهلكوا ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بأن دمرهم بلا سبب ، أو : من غير إعذار ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم.

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا بالكفر والمعاصي السُّواى أي : العقوبة السوأى ، والأصل : ثم كان عاقبتهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم ، وهو إساءتهم. والمعنى : أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ، ثم كان عاقبتهم فى الآخرة العقوبة التي هى أسوأ العقوبات ، وهى النار التي أعدت للكافرين. لأجل أَنْ كَذَّبُوا أو : بأن كذّبوا بِآياتِ اللَّهِ الدالة على صدق رسله ، أو : على وحدانيته.

وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ حيث قابلوها بالتكذيب ، أو : غفلوا عن التفكر فيها. أو : ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة السّوآء أن طبع اللّه على قلوبهم ، حتى كذّبوا بالآيات ، واستهزءوا بها. أو : ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السوأى ، وهو أن كذّبوا واستهزءوا ، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة ، فخبر كان ، على هذا : محذوف للتهويل.

و(أن كذبوا) : بيان ، أو : بدل من السوأى. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : السير إلى اللّه على أقسام : سير النفوس : بإقامة عبادة الجوارح لطلب الأجور ، وسير القلوب :

بجولانها فى ميادين الأغيار ، للتبصر والاعتبار طلبا للحضور ، وسير الأرواح : بجولان الفكرة فى ميادين الأنوار طلبا لرفع الستور ودوام الحضور ، وسير الأسرار : الترقي فى أسرار الجبروت ، بعد التمكن من شهود أنوار الملكوت على سبيل الدوام. قال القشيري : سير النفوس فى أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات ، وسير القلوب بجولان الفكر فى جميع المخلوقات ، وغايته : الظّفر بحقائق العلوم التي توجب ثلج الصدور – ثم تلك العلوم على درجات – وسير الأرواح فى ميادين الغيب : بنعت خرق سرادقات الملكوت. وقصاراه : الوصول إلى ساحل الشهود ، واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير الأسرار : بالترقي – أي : الغيبة – عن الحدثان بأسرها ، والتحقق ، أولا ، بالصفات ، ثم بالخمود ، بالكلية ، عمّا سوى الحق. هـ.

وقال فى قوله : ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى : من زرع الشوك لم يحصد الورد ، ومن استنبت الحشيش لم يقطف البهار ، ومن سلك سبيل الغىّ لم يحلل بساحة الرشد. هـ.

ثم ذكر شأن البعث الذي هو عاقبة المسيء والمحسن : فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١١ الى ١٦]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

(٣٢٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٩

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ينشئهم ، ثُمَّ يُعِيدُهُ يحييهم بعد الموت ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء بالثواب والعقاب. والالتفات إلى الخطاب للمبالغة فى إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح : بالغيب ، على الأصل. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ : ييأس ويتحير الْمُجْرِمُونَ المشركون يقال : ناظرته فأبلس ، أي : أفحم وأيس من الحجة ، أو : يسكتون متحيرين ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ التي عبدوها من دون اللّه شُفَعاءُ يشفعون لهم ويجيرونهم من النار ، وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ جاحدين لها ، متبرئين من عبادتها ، حين أيسوا من نفعها. أو : كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتها.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ أي : المسلمون والكافرون ، بدليل قوله : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ، أي : بستان ذى أزهار وأنهار ، وهى الجنة. والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه ، يُحْبَرُونَ : يسرّون ، يقال : حبره ، إذا سرّه سرورا تهلّل به وجهه ، وظهر فيه أثره.

ووجوه المسار كثيرة ، فقيل : يكرمون ، وقيل : يحلّون. وقيل : هو السماع فى الجنة. قاله غير واحد. قال أبو الدرداء : كان عليه الصلاة والسلام يذكّر الناس بنعيم الجنان فقيل : يا رسول اللّه هل فى الجنة من سماع؟ قال :

«نعم ، إنّ فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانة ، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعيم أهل الجنّة.» قال الراوي : فسألت أبا الدرداء : بم يتغنين؟ قال : بالتسبيح إن شاء اللّه «١».

والخمصانة : المرهفة الأعلى ، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبي. وذكر غيره أن هذا السماع يكون فى نزهة تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر ، وقد ذكرناها فى شرحنا الكبير على الفاتحة.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ بالبعث فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ : مقيمون ، لا يغيبون عنه. عائذا باللّه من غضبه.

(١) ذكره القرطبي فى التفسير (٦/ ٥٢٤٣) ، وعزاه للثعلبى ، من حديث أبى الدرداء ، وأخرجه ، بنحوه ، البيهقي فى البعث والنشور (٤٢٥) من حديث أبى هريرة موقوفا.

الإشارة : من اعتمد على غير اللّه ، أو ركن إلى شيء سواه ، فهو مجرم عند الخصوص ، وذلك الشيء الذي ركن إليه صنم فى حقه ، يتبرأ منه يوم القيامة ، ويبلس من نفعه ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ : الآية.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فريق هم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل القطعة ، فريق فى المنة ، وفريق فى المحنة ، فريق فى السرور ، وفريق فى الشبور ، فريق فى الثواب ، وفريق فى العقاب ، فريق فى الفراق ، وفريق فى التلاق. قاله القشيري. وإذا كان الأمر هكذا ، فجدّ ، أيها المؤمن ، فى طاعة مولاك ، وأكثر من ذكره ، صباحا ومساء ، وليلا ونهارا لتنال ذلك الوعد ، وتنجو من الوعيد ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١٧ الى ١٩]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

قلت : «فسبحان» : مصدر لمحذوف ، أي : سبحوا سبحان. و(حين) : متعلق بذلك المحذوف ، وجملة : (و له الحمد) : معترضة بين معطوفات الظروف. و(فى السموات) : حال من الحمد ، أي : وله ، على عباده ، الحمد كائنا فى السموات .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : فَسُبْحانَ اللَّهِ أي : فسبّحوا اللّه ونزّهوه تنزيها يليق به فى هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتجدد فيها نعمه ، وهى حِينَ تُمْسُونَ تدخلون فى السماء ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ تدخلون فى الصباح. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : وله ، على المميّزين كلّهم ، من أهل السموات والأرض ، أن يحمدوه ، وَعَشِيًّا أي : وسبحوه عشيا آخر النهار ، وَحِينَ تُظْهِرُونَ تدخلون فى وقت الظهيرة.

قال البيضاوي : وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر ، وتخصيص الحمد بالعشي – الذي هو آخر النهار ، من عشى العين إذا نقص نورها – والظهيرة – التي هى وسطه لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون عَشِيًّا معطوفا على حِينَ تُمْسُونَ ، وقوله : وَلَهُ الْحَمْدُ ..

إلخ – اعتراضا. وعن ابن عباس : الآية جامعة للصلوات الخمس ، (تمسون) : صلاتا المغرب والعشاء ، (تصبحون) : صلاة الفجر ، (و عشيا) : صلاة العصر ، (و تظهرون) : صلاة الظهر «١». ولذلك زعم الحسن أنها مدنيّة لأنه كان يقول :

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢١/ ٢٩) ، والطبراني فى الكبير (١٠/ ٣٠٤ ح ١٠٥٩٦) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٠١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي.

كان الواجب عليه بمكة ركعتين ، فى أي وقت اتفقت ، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، الطائر من البيضة ، والإنسان من النطفة ، أو : المؤمن من الكافر ، والعالم من الجاهل. وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، البيضة من الطائر ، والنطفة من الإنسان ، أو : الكافر من المؤمن ، والجاهل من العالم. وَيُحْيِ الْأَرْضَ بالنبات بَعْدَ مَوْتِها بيبسها ، وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ ، والمعنى : أن الإبداء والإعادة متساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الحي من الميت ، وعكسه.

روى عن ابن عباس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من قرأ فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلى الثلاث آيات ، وآخر سورة الصافات : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ .. إلخ .. دبر كلّ صلاة ، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء ، وقطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وتراب الأرض. فإذا مات أجرى له بكل لفظ عشر حسنات فى قبره» «١» نقله الثعلبي والنسفي. وعنه – عليه الصلاة والسلام : «من قال حين يصبح : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلى قوله :

وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قاله حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته» «٢». رواه أبو داود.

وقال الضحاك : من قال : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلخ كان له كعدل مائتى رقبة من ولد إسماعيل. هـ.

زاد كعب : ولم يفته خير كان فى يومه ، ولا يدركه شر كان فيه. وإن قالها فى المساء فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السّلام يقرأها ست مرات فى كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة : أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح فلأنّ المجوس كانوا يسجدون للشمس فى هذين

الوقتين تسليما وتوديعا ، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عمن يستحق العبادة معه ، وأما العشى فلأنه وقت غفلة الناس فى جمع حوائجهم ، وأما وقت الظهيرة فلأن جهنم تشتعل فيه كما فى الحديث ، وأمر بحمده والثناء عليه فى كل وقت لما غمره من النعم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري : فمن كان صباحه باللّه بورك له فى يومه ، ومن كان مساؤه باللّه بورك له فى ليلته ، وأنشدوا :

وإنّ صباحا نلتقى فى مسائه صباح على قلب الغريب حبيب «٣»

---

(١) انظر : تفسير النسفي (٢/ ٦٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح ، ٥/ ٣١٦ ، ح ٥٠٧٦) ، والطبراني فى الكبير (١٢/ ٢٣٩ ح ١٢٩٩١) ، وابن السّنّي فى عمل اليوم والليلة (ح ٥٥) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٢٨) : إسناده جيد.

(٣) البيت : لإبراهيم بن المهدى ، يذكر ابنه. انظر الكامل للمبرد (٢/ ٣١٤) ، وفيه : صباح إلى قلبى ، الغداة ، حبيب.

شتّان بين عبد : صباحه مفتتح بعبادته ، ومساؤه مختتم بطاعته ، وبين عبد : صباحه مفتتح بمشاهدته ، ورواحه مختتم بعزيز رؤيته. قلت : الأول من عامة الأبرار ، والثاني من خاصة العارفين الكبار ، وبقي مقام الغافلين ، وهو :

من كان صباحه مفتتح بهم نفسه ، ومساؤه مختتم برؤية حسه ، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس فى الآية ، كما تقدم – ثم قال : وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية فى اليوم والليلة خمس مرات ، فيقف على بساط المناجاة ، ويستدرك مافاته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ يخرج الذاكر من الغافل ، والغافل من الذاكر ، والعارف من الجاهل ، والجاهل من العارف ، ويحيى أرض النفوس باليقظة والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والجهل ، وكذلك تخرجون من قبوركم على مامتم عليه ، من معرفة أو جهل ، من يقظة أو غفلة ، يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل البعث والخروج ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على قدرته ، الشاملة للبعث وغيره ، أو : ومن علامات ربوبيته : أَنْ خَلَقَكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ لأن أصل الإنشاء منه ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ أي : ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين فى الأرض ، آدم وذريته. وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها لأن حواء خلقت من ضلع آدم ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو : من شكل أنفسكم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين – إذ كانا من جنس واحد – من الألفة والمودة والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه : إذا مال إليه. وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً أي : جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن : المودة كناية عن الجماع ، والرحمة هى الولد. وقيل : المودّة للشابة الجميلة ، والرحمة للعجوز ، وقيل : المودة والرحمة من اللّه ، والفرك من الشيطان – أي : البغض من الجانبين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيعلمون ما فى ذلك من الحكم ، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

(٣٣٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣٣

الإشارة : أصل نشأة البشرية من الطين ، وأصل الروح من نور رب العالين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين ، فكان همها الطين ، وهوت إلى أسفل سافلين ، فلا تجد فكرتها وحديثها ، فى الغالب ، إلا فى عالم الحس ، ويكون عملها كله عمل الجوارح ، يفنى بفنائها. وإذا غلبت الروح على الطينة وذلك بدخول مقام الفناء ، حتى تستولى المعاني على الحسيات. وتنخنس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة ، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار ، فلا تجد فكرتها إلا فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وعملها كله قلبى وسرى ، بين فكرة واعتبار ، وشهود واستبصار ، يبقى مع الروح ببقائها ، يجرى عليها بعد موت البشرية ، ويبعث معها ، كما تقدم فى الحديث : (يموت المرء ...) إلخ.

قال القشيري : يقال : الأصل تربة ، ولكن العبرة بالتربية لا بالتربة. هـ. قلت : إذ بالتربية تغلب الروح على البشرية ، ثم قال : اصطفى الكعبة ، فهى خير من الجنة ، مع أن الجنة جواهر ويواقيت ، والكعبة حجر ومدر ، أي :

كذلك المؤمن الكامل ، وإن كان أصله من الطين ، فهو أفضل من كثير من العوالم اللطيفة. ثم قال فى قوله تعالى :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً .. الآية : ردّ المثل إلى المثل ، وربط الشكل بالشكل ،

وجعل سكون البعض إلى البعض ، وذلك للأشباح والصّور ، والأرواح صحبت الأشباح كرها لا طوعا ، وأما الأسرار فمعتقة ، لا تساكن الأطلال ، ولا تتدنس بالأغيار. هـ.

قلت : وكأنه يشير إلى أن المودة التي انعقدت بين الزوجين إنما هى نفسية ، لا روحانية ، ولا سرية إذ الروح والسر لا يتصور منهما ميل إلى غير أسرار الذات العلية إذ محبة الحق جذبتها عن الميل إلى شيء من السّوى.

واختلف الصوفية : هل تخلّ هذه المودة التي بين الزوجين بمحبة الحق ، أم لا؟ فقال سهل رضي اللّه عنه : لا تضر الروح لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «حبب إليّ من دنياكم ثلاث ..» «١» فذكر النساء ، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة ، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة : أنه لا يتغير عند فقدها ، ولا يحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. واللّه تعالى أعلم. «٢»

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٢ الى ٢٥]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

---

(١) لفظ «ثلاث» لم يرد – مطلقا فى روايات الحديث الصحيحة. قال الحافظ ابن حجر : وليس فى شيء من طرقه «لفظ ثلاث» وراجع تخريج هذا الحديث الشريف عند إشارة الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) انظر : مجمع الأمثال للميدانى ١/ ١٢٩.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣٤

قلت : (يريكم البرق) : فيه وجهان ، أحدهما : إضمار «أن» كما فى حرف ابن مسعود ، والثاني : تنزيل الفعل منزلة المصدر ، كما قيل فى قولهم ، فى المثل : «تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه». أي : إن تسمع ، أو : سماعك.

و(خوفا وطعما) : مفعولان له على حذف مضاف ، أي : إرادة خوف ، وإرادة طمع ، أو : على الحال ، أي : خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم) : شرطية ، و(إذا) ، الثانية فجائية ، نابت عن الفاء. و(من الأرض) : يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على باهر قدرته خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ. قال القشيري : السموات فى علّوها ، والأرض فى دنوّها ، هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها ، هذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومدرها ، واختلاف لغات أهلها فى الأرض ، واختلاف تسبيح الملائكة – عليهم السلام – الذين هم سكان السماء. هـ. وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ باختلاف اللغات ، وبأجناس النطق وأشكاله ، وَأَلْوانِكُمْ ، كالسواد والبياض وغيرهما ، حتى لا تكاد تجد شخصين متوافقين إلا وبينهما نوع تخالف فى اللسان واللون ، وباختلاف ذلك وقع التعارف والتمايز ، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت المصالح. وفى ذلك آية بينة ، حيث ولدوا من أب واحد ، وهم على كثرتهم متفاوتون. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ بفتح اللام وكسره «١». ويشهد للكسر قوله تعالى : وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «٢».

قال القشيري : واختصاص كلّ شىء من هذه ببعض جائزات حكمها شاهد عدل ، ودليل صدق ، يناجى أفكار المستيقظين ، وتنادى على أنفسها : أنها ، بأجمعها ، بتقدير العزيز العليم. هـ.

وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، أي : منامكم بالليل ، وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، أو : منامكم فى الزمانين ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، وهو حسن لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه ، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر ، بآذان واعية. قال القشيري :

غلبة النوم لصاحبه من غير اختيار ، وانتباهه بلا اكتساب ، يدلّ على موته ثم بعثه ، ثم فى حال منامه يرى ما يسرّه وما يضرّه يدل على حاله فى قبره. اللّه أعلم كيف حاله ، فى أمره ، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ. «٣»

---

(١) قرأ حفص : بكسر اللام قبل الميم ، جمع «عالم» ، ضد الجاهل ، وقرأ الباقون : بفتح اللام جمع «عالم». انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٦).

(٢) من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(٣) بالمعنى.

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، أي : خوفا من الصواعق ، وطمعا فى الغيث ، أو : خوفا للمسافر وطمعا للحاضر ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ

ماءً مطرا فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ : يتفكرون بعقولهم.
وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ بغير عمد وَالْأَرْضُ على ماء جماد بِأَمْرِهِ أي : بإقامته ، أو : تدبيره وقدرته. ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ للبعث دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ من قبوركم. وسبك الآية : ومن آياته قيام السماوات والأرض ، واستمساكها بغير عمد ، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة ، يا أهل القبور ، خرجتم بسرعة.
وإنما عطف هذا بثم بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، وإظهار اقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور ، قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كقوله : ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «١».
تنبيه : عبّر عن مودة الزوجين بيتفكرون لأن المودة قلبية ، لا تدرك إلا بتفكر القلب ، وعبّر عن خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالمين لأن أمر ذلك يدركه كل أحد ، ممن له عقل أو علم ، وعبّر عن النوم واليقظة بيسمعون لأن من كان فى الغفلة لا يسمع أمثال هذه المواعظ ، وإنما يسمعها من كان متيقظا ، وعبّر عن إظهار البرق ، وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ، بيعقلون لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكة من عقل سليم ، ويعلم أنه من اللّه بلا واسطة. واللّه تعالى علم.
الإشارة : ما نصبت هذه الكائنات لتراها ، بل لترى فيها مولاها ، فما هذه الأكوان الحسية إلا تجليات من تجليات الحق ، ومظاهر من مظاهره ، وأنوار من أنوار ملكوته ، متدفقة من بحر جبروته. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لا يعرف هذا إلا العارفون باللّه ، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها ، وباهر قدرته وحكمته ، فيقوى إيمانهم ويشتد إيقانهم.
قال فى الإحياء : وبحر المعرفة لا ساحل له ، والإحاطة بكنه جلال اللّه محال ، وكلما كثرت المعرفة باللّه سبحانه ، وبأفعال مملكته ، وأسرار مملكته ، وقويت ، كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن. وقال أيضا ، فى كتاب شرح عجائب القلب : ويكون سعة ملك العبد فى الجنة بحسب سعة معرفته باللّه ، وبحسب ما يتجلى له من عظمة اللّه سبحانه ، ومن صفاته وأفعاله. هـ.
ومن آياته خلق سماوت أرواحكم ، وأرض نفوسكم ، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية ، والنفوس بآداب العبودية ، واختلاف ألسنتكم فبعضها لا تتكلم إلا فى الفرق ، وبعضها إلا فى الجمع. وألوانكم بعضها ظهر فيها

---

(١) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

سيما العارفين ، وبهجة المحبين ، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم فى ليل الغفلة والبطالة ، وقت غفلتكم ، وابتغاؤكم من فضله بزيادة معرفته ، وقت يقظتكم. ومن آياته يريكم البرق ، أي : يلمع عليكم أسرار المعاني ، ثم تخفى عند الاستشراف على بحر الحقيقة ، خوفا من الاصطلام والرجوع ، وطمعا فى الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته ، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون ، فتعرجون بأرواحكم إلى سماء وصلته وتمكن معرفته. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال ملكه وعظمته ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وملكا ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أي : مطيعون ، كلّ لما أراد ، لا يستطيع التغير عن ذلك. أو : مقرّون بالعبودية ، أو : قائمون بالشهادة على وحدانيته.

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أي : ينشئهم ثم يعيدهم للبعث ، وَهُوَ أي : البعث أَهْوَنُ أيسر عَلَيْهِ عندكم لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء ، فلم أنكرتم الإعادة ، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره : أهون بمعنى «هيّن» كقوله : وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً «١» ، كما قالوا : أكبر ، بمعنى كبير. والإعادة فى نفسها عظيمة ، ولكنها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفا ، ثم علقا ، ثم مضغا ، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفي.

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : الوصف الأعلى ، الذي ليس لغيره ، وقد عرف به ، ووصف فى السموات والأرض ، على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة ، وغيرهما من المقدورات ، وَهُوَ الْعَزِيزُ أي : القاهر لكل مقدور ، الْحَكِيمُ الذي يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس : المثل الأعلى هو : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٢».

وعن مجاهد : هو قول : «لا إله إلا اللّه». ومعناه : وله الوصف الأرفع ، وهو اختصاصه بالألوهية فى العالم العلوي والسفلى ، ويعضده : ما بعده من ضرب المثل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣٧

الإشارة : الأشياء كلها ، من عرشها إلى فرشها ، حيها وجامدها ، قانتة وساجدة للّه تعالى ، من حيث حسّها الذي هو مقر العبودية ، وغنية عن السجود من حيث معناها لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد ، من حيث فرقه ، عبد خاضع ، ومن حيث جمعه : حر مطاع.

قال القشيري : قوله : وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أي : فى ظنّكم وتقديركم. وفى الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى والصفات العلى فى الوجود بحقّ القدم ، وفى وجوده – أي : للأشياء – بنعت الكرم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النظرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التعلق ، وفى الحكم بوجود التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العز والجلال ، وفى الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت : والحاصل أن المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته ، تعالى ، وصفاته وأفعاله.

ثم ضرب مثلا لقبح الشرك ، بعد بيان علو شأنه ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا لقبح الشرك وبشاعته ، منتزعا مِنْ أَنْفُسِكُمْ التي هى أقرب شىء إليكم ، وهو : هَلْ لَكُمْ ، معاشر الأحرار ، مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أي : من عبيدكم مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ من الأموال وغيرها. فمن ، الأولى : للابتداء ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. والمعنى : هل لكم ، من بعض عبيدكم ، شرك فيما رزقناكم ، أي : هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقناكم؟ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ فتكونون أنتم وهم ، فيما رزقناكم من الأموال ، سواء يتصرفون فيه كتصرفكم ، ويحكمون فيه كحكمكم ، مع أنهم بشر مثلكم ، حال كونكم تَخافُونَهُمْ أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أي : كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض – فيما هو مشترك بينهم – أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو : تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال ، أو : يرثونها بعدكم ، كما تخافون ذلك من بعضكم ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد ، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء فى استحقاق العبادة؟!

كَذلِكَ ، أي : مثل هذا التفصيل البديع ، نُفَصِّلُ الْآياتِ نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون فى ضرب الأمثال ، ويعرفون حكمها وأسرارها ، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم ، فقال : بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم بالشرك أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أي : تبعوا أهواءهم ، جاهلين ، ولو كان لهم علم لرجى أن يزجرهم ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ أي : لا هادى له قط ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يمنعونهم من العذاب ، أو : يحفظونهم من الضلالة ، أو : من الإقامة فيها.

الإشارة : ما قيل فى الشرك الجلى يجرى مثله فى الشرك الخفي فإن الحق تعالى غيور ، لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه ، وأنشدوا «١» :

لى محبوب إنما هو غيور يطلّ فى القلب كطير حذور ذا رأى شيئا امتنع أن يزور فكما أنك لا ترضى من عبدك أن يحب غيرك ، ويخضع له ، كذلك الحق تعالى لا يرضى منك أن تميل لغيره. قال القشيري : قوله : بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ : أشدّ الظلم متابعة الهوى لأنه قريب من الشّرك.

قال اللّه تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ «٢» ، ومن اتّبع هواه خالف رضا مولاه ، فهو ، بوضع الشيء فى غير موضعه ، صار ظالما ، كما أن العاصي ، بوضع المعصية فى موضع الطاعة ، صار ظالما ، كذلك بمتابعة هواه ، بدلا عن موافقة ومتابعة رضا مولاه ، صار فى الظلم متماديا. هـ.

ثم أمر بالتوحيد الخالص ، المقصود من ضرب المثل ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

---

(١) وهو الششترى ، كما ذكر الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم/ ٤٣٧.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

قلت : (حنيفا) : حال من (الدين) ، أو : من الأمور ، وهو ضمير (أقم) ، و(فطرة) : منصوب على

الإغراء.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه صلى اللّه عليه وسلم ، أو : لكل سامع : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أي : قوّم وجهك له ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا. وهو تمثيل لإقباله على الدين بكلّيته ، واستقامته عليه ، واهتمامه بأسبابه فإنّ من اهتم بالشيء توجه إليه بوجهه ، وسدّد إليه نظره ، حَنِيفاً أي : مائلا عن كل ما سواه من الأديان ، فِطْرَتَ اللَّهِ أي : الزموا فطرة اللّه. والفطرة : الخلقة : ألا ترى إلى قوله : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؟ فالأرواح ، حين تركيبها فى الأشباح ، كانت قابلة للتوحيد ، مهيّأة له ، بل عالمة به بدليل إقرارها به فى عالم الذر ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ، ومن غوى فإنما غوى منهم بإغواء شياطين الإنس والجن. وفى حديث قدسى : «كلّ عبادى خلقت حنيفا ، فاجتالتهم الشّياطين عن دينهم ، وأمروهم أن يشركوا بي غيرى» «١» ، وفى الصحيح : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه» «٢» قال الزجّاج : معناه : أن اللّه تعالى فطر الخلق على الإيمان به ، على ما جاء فى الحديث : «إن اللّه عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذرّ ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم ، فقالوا : بلى» «٣» ، وكل مولود فهو من تلك الذرية التي شهدت بأن اللّه تعالى ربّها وخالقها. هـ. قال ابن عطية : الذي يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة : أنها الخلقة والهيئة فى نفس الطفل ، التي هى مهيئة لمعرفة اللّه والإيمان به ، الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرض لهم العوارض على حسب ما جرى به القدر ، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر ، كما فى قوله تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٤» ، أي : خلقهم معدين لذلك ، فأمر من ساعده القدر ، وصرف عن ذلك من لم يوفّق لما خلق له. هـ.

فقوله فى الحديث : «كلّ مولود يولد على الفطرة» أي : على القابلية والصلاحية للتوحيد ، ثم منهم من يتمحض لذلك ، كما سبق فى القدر ، ومنهم من لم يوفق لذلك ، بل يخذل ويصرف عنه لما سبق عليه من الشقاء.

وقال فى المشارق : أي : يخلق سالما من الكفر ، متهيئا لقبول الصلاح والهدى ، ثم أبواه يحملانه ، بعد ، على ما سبق له فى الكتاب. هـ. قال ابن عطية : وذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هى كثيرة. ثم قال : وقد فطر اللّه

---

(١) أخرجه بنحوه ، مطولا ، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب الصفات التي يعرف بها ، فى الدنيا ، أهل الجنة وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ ، ح ٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعي. ولفظه : «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. الحديث.

(٢) أخرجه البخاري فى (القدر ، باب اللّه أعلم بما كانوا عاملين ح ٦٥٩٩) ، ومسلم فى (القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، ٤/ ٢٠٤٧ ، ح ٢٦٥٨) بزيادة فى آخره ، من حديث أبى هريرة – رضى اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٢٧٢) وقال فى مجمع الزوائد (٧/ ٢٥) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح.
(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٠
الخلق على الاعتراف بربوبيته ، ومن لازم ذلك توحيده ، وإن لم يوفّقوا لذلك كلّهم ، بل وحّده بعضهم ، وأشرك بعضهم ، مع اتفاق الكل على ربوبيته ضرورة أن الكلّ يشعر بقاهر له مدبر. قال فى الحاشية : والحاصل : أنه تعالى فطر الكل فى ابتداء النشأة ، على الاعتراف بربوبيته ، ولكن كتب منهم السعداء موحدين ، وكتب الأشقياء مشركين ، مع اعتراف الجميع بربوبيته ، ولم يوفق الأشقياء لكون الربوبية تستلزم الوحدانية ، فأشركوا ، فناقضوا لازم قولهم. هـ.
وهذا معنى قوله تعالى : الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ، أي : خلقهم فى أصل نشأتهم عليها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أي : ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو تغير. وقال الزجاج : معناه : لا تبديل لدين اللّه ، ويدل عليه قوله : ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أي : المستقيم ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ حقيقة ذلك. حال كونكم.
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أي : راجعين إليه ، فهو حال من ضمير : الزموا. وقوله : وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ : عطف على الزموا. أو : على (فأقم) لأن الأمر له – عليه الصلاة والسلام – أمر لأمته ، فكأنه قال : فأقيموا وجوهكم ، منيبين إليه ، وَاتَّقُوهُ أي : خافوا عقوبته ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أي : أتقنوها وأدّوها فى وقتها ، وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ممن يشرك به غيره فى العبادة.
مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ : بدل من «المشركين» بإعادة الجار ، أي : لا تكونوا من الذين جعلوا دينهم أديانا مختلفة باختلاف ما يعبدونه لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأخوان : (فارقوا) أي : تركوا دين الإسلام الذي أمروا به ، وَكانُوا شِيَعاً أي : فرقا ، كل فرقة تشايع إمامها الذي أضلها ، أي : تشيعه ، وتقوى سواده ، كُلُّ حِزْبٍ منهم بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ مسرورون ، ظنا بأنه الحق ، ثم يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ باللّه.
الإشارة : الفطرة التي فطر اللّه الأرواح عليها هى معرفة العيان لأنها كلها كانت عارفة باللّه لصفائها ولطافتها ، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كثافة الأبدان ، والاشتغال بحظوظها وهواها ، حتى نسيت تلك المعرفة. وفى ذلك يقول ابن البنا فى مباحثه «١» :
ولم تزل كلّ نفوس الأحيا لامة درّاكة للأشيا
وإنّما تعوقها الأبدان والأنفس النّزّع والشّيطان

فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ١١١.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤١

قال بعضهم : إنما حجب اللّه عنها تلك العلوم غيرة أن تكشف سر الربوبية فيظهر لغير أهله ، قال القشيري :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ أي : أخلص قصدك إلى اللّه ، واحفظ عهدك معه ، وأفرد عملك ، فى سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك ، له. حَنِيفاً أي : مستقيما فى دينه ، مائلا عن غيره ، معرضا عن سواه. والزم (فطرة اللّه التي فطر الناس عليها) ، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ راجعين إلى اللّه بالكلية ، من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفائه ، منحرفين بكل وجه عن خلافه ، متّقين صغير الإثم وكبيره ، وقليله وكثيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهرا ، متحققين بمرعاة فضلها سرا.

وقال فى قوله تعالى : مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ : أقاموا فى دنياهم فى دار الغفلة ، وعناد الجهل والفترة ، فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وثملوا بسكر غيّهم ، وظنوا أنهم على شيء ، فإذا انكشف ضباب وقتهم ، وانقشع سحاب هجرهم ، انقلب فرحهم ترحا ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرّجوا إلا فى أوطان الجهالة. هـ.

ثم ذكر حال أهل الغفلة ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

قلت : (إذا هم) : جواب (إن). و(إذا) الفجائية ، تخلّف الفاء ، لتآخيهما فى التعقيب.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ كمرض ، وفقر ، وشدة ، أو غير ذلك ، دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ راجعين إِلَيْهِ من دعاء غيره. ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً خلاصا من الشدة إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ شركا جليا أو خفيا ، أي : فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذي عافاهم ، لِيَكْفُرُوا إما : لام كى ، أو : لام

الأمر للوعيد والتهديد ، أي : أشركوا كى يكفروا بِما آتَيْناهُمْ من النعم ، التي من جملتها : نجاتهم وخلاصهم من كل شدة ، فَتَمَتَّعُوا بكفركم قليلا أمر تهديد ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وبال تمتعكم.

(٤/٣٤١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٢

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً حجّة على عبادة أصنامهم ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ، وتكلمه مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه : الشهادة ، كأنه قال : يشهد بصحة ما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ، فما :

مصدرية ، أي : بصحة كونهم باللّه يشركون ، أو : موصولة ، أي : بالأمر الذي بسببه يشركون.

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أي : نعمة من مطر ، أو : سعة رزق ، أو : صحة ، فَرِحُوا بِها فرح بطر وافتخار وغفلة. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بلاء من جدب ، أو ضيق ، أو مرض ، بِما بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من المعاصي ، أي : بشؤمها ، إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ ييأسون من رحمة اللّه ، وفرجه بعد عسره. يقال : قنط يقنط ، كفرح يفرح ، وكعلم.

الإشارة : الواجب على المؤمنين أن يتخلقوا بضد ما تخلق به الكافرون فإذا مسهم ضر أو شدة ، توجهوا إلى اللّه ، إما بالتضرع والابتهال عبودية ، منتظرين ما يفعل اللّه ، وإما بالصبر ، والرضا ، والسكون تحت مجارى الاقدار.

فإذا جاء الفرج والنعمة شكروا اللّه وحمدوه ، ونسبوا الفرج إليه وحده ، فإن كان وقع منهم سبب شرعى لم يلتفتوا إليه قط إذ لا تأثير له أصلا ، وإنما الفرج عنده لا به ، فلا يقولوا : فلان ولا فلانة ، وإنما الفاعل هو اللّه الواحد القهار.

وهذا الشرك الخفي مما ابتلى به كثير من الناس ، علماء وصالحين ، وخصوصا منهم من يتعاطى كتب الفلسفة ، كالأطباء وغيرهم ، إذا أصابهم شيء فزعوا ، فإذا فرّج عنهم قالوا : فلان داوانا ، وفلان فرّج عنا ، والدواء الفلاني هو شفانى ، فتعالى اللّه عما يشركون. فليشدّ العبد يده على التوحيد ، ولا يرى فى الوجود إلا الفرد الصمد ، الفعّال لما يريد.

ومن أوصاف أهل الغفلة : أنهم ، إذا أصابتهم نعمة ، فرحوا وافتخروا بها ، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسوا من روح اللّه ، والواجب : ألا يفرح بما هو عارض فإن ، ولا ييأس من روح اللّه عند الشدة ، بل ينتظر من اللّه الفرج ، فإنّ مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا. قال تعالى : ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ .. «١» الآية.

وباللّه التوفيق.

ثم برهن على توالى النعم والمحن على العبد ، مادام فى دار الدنيا ، فقال :

---

(١) الآيتان : ٢٢ – ٢٣ من سورة الحديد.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٣

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيق على من يشاء ، فينبغى للعبد أن يكون راجيا ما عند اللّه ، غير آيس من روح اللّه إذ دوام حال من قضايا المحال ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته ، ولا يقفون مع شىء دونه. قال النسفي : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط ، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه ، تائبين من معاصيهم ، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها ، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يحب أن يفعل وما يجب أن يترك ، يعنى : عند البسط فقال : فَآتِ ذَا الْقُرْبى أعط قريبك حَقَّهُ من البر والصلة مما بسط عليك. وَأعط الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ حقهما من الصدقة الواجبة أو التطوعية ، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه ، أو : للنبى – عليه الصلاة والسلام ، وغيره تبع. ذلِكَ أي : إيتاء حقوقهم الواجبة ، والتطوعية ، خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أي : ذاته المقدسة ، أي : يقصدون ، بمعروفهم ، إياه ، خالصا. وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل خير ، قد حصّلوا ، بما بسط لهم ، النعيم المقيم.

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ أي : وما أعطيتم من مال لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه ، كيفيّة أو كمّيّة ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ولا يبارك فيه ، بل يسحته ويمحقه ، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة إجماعا ، وقيل : وما أعطيتم من هدية لتأخذوا أكثر منها ، فلا يربو عند اللّه ، لأنكم لم تقصدوا به وجه اللّه.

وهذه هدية الثواب ، جائزة ، إلا فى حقه – عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ «١».

وقرأ ابن كثير : «أتيتم» بالقصر ، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع «٣» : «لتربوا» بالخطاب ، أي : لتصيروا [ذوى] «٢» ربا ، فتزيدوا فى أموالكم.

---

(١) الآية ٦ من سورة المدثر.

(٢) فى الأصول [ذا].

(٣) وكذا قرأ أبو جعفر ويعقوب. وقرأ الباقون بياء الغيب وفتحها. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٧).

وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ صدقة ، تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ تبتغون به وجهه خالصا ، لا تطلبون به زيادة ، ولا مكافأة ، ولا سمعة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ أي : ذوو الأضعاف من الحسنات ، من سبعمائة فأكثر. ونظير المضعف : المقوي ، والموسر ، لذى القوة واليسار. والالتفات إلى الخطاب فى (أولئك ...) إلخ فى غاية الحسن لما فيه من التعظيم ، كأنه خاطب الملائكة وخواص الخلق تعريفا بحالهم ، وتنويها بقدرهم ، ولأنه يفيد التعميم ، كأنه قيل : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولا بد من ضمير يعود إلى «ما» الموصولة ، أي :

المضعفون به. أو : فمؤتوه أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج : أي : فأهلها هم المضعفون ، أي : يضاعف لهم الثواب ، من عشر إلى سبعمائة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : البسط والقبض يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار. فالواجب على العبد : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فالبسط يشهد فيه المنّة من اللّه ، ومقتضى الحق منك الحمد والشكر. والقبض يشهده من اللّه امتحانا وتصفية ، ومقتضى الحق منك الصبر والرضا ، وانتظار الفرج من اللّه فإن انتظار الفرج ، مع الصبر ، عبادة. قال القشيري : الإشارة إلى ألا يعلّق العبد قلبه إلا باللّه لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا من اللّه ، وما يسرهم ليس وجوده إلا من اللّه. فالبسط ، الذي يسرهم ويؤنسهم منه ، وجوده ، والقبض ، الذي يسوءهم ويوحشهم منه ، حصوله. فالواجب : لزوم [عهوده بالإسرار] «١» ، وقطع الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال فى قوله : فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ : القرابة على قسمين قرابة النسب وقرابة الدين ، وهى أمسّ ، وبالمواساة أحقّ. وإذا كان الرجل مشتغلا بالعبادة ، غير متفرغ لطلب المعيشة ، فالذى له إيمان بحاله ، وإشراف على وقته ، يجب عليه أن يقوم بشأنه ، بقدر ما يمكنه ، مما يكون له عون على طاعته ، مما يشوش قلبه ، من حديث عياله ، فإن كان اشتغال الرجل بشيء من مراعاة القلب فحقّه آكد ، وتفقّده

أوجب ، ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، والمريد هو الذي يؤثر حقّ اللّه على حظّ نفسه. فإيثار الإخوان ، لمن يريد وجه اللّه ، أتمّ من مراعاة حال نفسه ، فهمّه بالإحسان لذوى القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وعيلته ، وما يهمه من نصيبه. هـ.

وقال فى قوله : يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ : لا تستخدم الفقير بما تريده به من رفق ، بل أفضل الصدقة على ذى رحم كاشح ، أي : قاطع حتى يكون إعطاؤه للّه مجردا عن كل نصيب لك. فهؤلاء هم الذين يتضاعف أجرهم بمجاهدتهم [لنفوسهم] «٢» ، حيث يخالفونها ، وفوزهم بالعوض من قبل اللّه. ثم الزكاة هى التطهير ، فتطهير المال

---

(١) فى القشيري [عقوة الأسرار].

(٢) فى الأصول [لنفسهم].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٥

معلوم ببيان الشريعة ، وزكاة البدن وزكاة القلب ، وزكاة السرّ ، كلّ ذلك يجب القيام به. هـ. قلت : فزكاة البدن :

إتعابه فى القيام بوظائف العبودية الظاهرة ، وزكاة القلب : تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل ، وزكاة السر :

صيانته من الميل إلى شيء من السّوى. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على وحدانيته ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٠]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

قلت : (اللّه) : مبتدأ ، و(الذي خلقكم) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أظهركم ثُمَّ رَزَقَكُمْ ما تقوم به أبدانكم ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند بعثكم ليجازيكم على فعلكم ، أي : هو المختص بالخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء. هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ أصنامكم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ أي : من الخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ، مِنْ شَيْءٍ أي : شيئا من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا ، عجزا ، فقال استبعادا وتنزيها : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. و«من» الأولى ، والثانية ، والثالثة : زوائد لتأكيد عجز شركائهم ،

وتجهيل عبدتهم.

الإشارة : ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها ، فأقر الناس بثلاثة ، وشكّوا فى الرزق ، وقالوا :

لا يكون إلا بالسبب ، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده فى حق العامة ارتفع فى حق الخاصة ، فيرزقهم بلا سبب ، لقوله تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١».

قال القشيري : حين قذفك فى بطن أمّك قد كنت غنيا عن الأكل والشراب بقدرته ، أو مفتقرا إليه ، فأجرى رزقه عليك مع الطمث ، على ما قالوا ، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فيسر لك أسباب الشرب والأكل من لبن الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان ، وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار ، وغير ذلك مما جرى ذكره. ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

---

(١) الآيتان : ٢ – ٣ من سورة الطلاق. [.....]

بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بحياة قلوبكم ، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ، ومنها ما هو شهود الرزاق. ويقال : لا مكنة لك فى تبديل خلقك ، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقك. فالموسّع عليه : رزقه بفضل ربه ، لا [بمناقب] «١» نفسه. والمقترّ عليه رزقه بحكم ربه ، لا بمعايب نفسه. هـ. وبعضه بالمعنى.

وقد يضيق رزقه على العباد لما يظهر فيهم من الفساد ، كما قال تعالى :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، أما الفساد فى البر فالقحط ، وقلة الأمطار ، وعدم الريع فى الزراعات والربح فى التجارات ، ووقوع الموتان فى الناس والدوابّ ، ومحق البركات من كل شىء.

وأما فى البحر فبكثرة الغرق ، وانقطاع صيده. بِما وذلك بسبب ما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ من الكفر

والمعاصي ، ولو استقاموا على الطاعة لدفع اللّه عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أي : ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، عن «قنبل ويعقوب» :

بنون التكلم. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَعما هم عليه من المعاصي.

قُلْ لكفار قومك : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ لتعاينوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم لأنه كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ فدمرناهم ، وخربنا ديارهم ، فانظروا : كيف كان عاقبتهم ، لعلكم ترجعون عن غيكم.

الإشارة : قال القشيري : الإشارة فى البر إلى النّفس ، وفى البحر إلى القلب ، وفساد البرّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات ، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة ، مثل سوء العزم ، والحسد والحقد ، وإرادة الفسوق ، وغير ذلك. وعقد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب ، كما أنّ العزم على الخيرات ، قبل فعلها ، من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد : التأويلات بغير حقّ ، والانحطاط إلى الرّخص من غير قيام بحق ، والإغراق فى الدعاوى من غير استحياء. هـ.

---

(١) فى الأصول [بمثاقبة] والمثبت من القشيري

قال الورتجبي : إن اللّه غلب الإنسانية على الكون طاعة ومعصية ، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها ، وإذا رزق المعصية فسد الحدثان بشؤم معصيته لأن طاعته ومعصيته من تواثير «١» لطفه وقهره ، علا بنعت الاستيلاء على الوجود ، فإذا فسادها يؤثر فى برّ النفوس وبحار القلوب ، ففساد برّ النفوس : فترتها عن العبودية ، وفساد بحر القلب : احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.

قلت : وقد يقال : ظهر الفساد فى بر الشريعة بذهاب حملتها ، ومن يحفظها ، ويذب عنها ، وفى بحر الحقيقة بقلة صدق من يطلبها ، وغربة أهلها ، واختفائها حتى اندرست أعلامها ، وخفى آثارها ، والبركة لا تنقطع. وذلك بسبب ما كسبت أيدى الناس من إيثار الدنيا على اللّه ليذيقهم وبال القطيعة لعلهم يرجعون إليه ، إما بملاطفة الإحسان ، أو بسلاسل الامتحان.

قال فى لطائف المنن : سأل بعض العارفين عن أولياء العدد ، هل ينقصون؟ فقال : لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها ، ولا أنبتت الأرض نباتها ، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص أمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد اللّه وقوع اختفائهم ، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل

الزمان معرضين عن اللّه ، مؤثرين لما سوى اللّه لا تنجح فيهم الموعظة ، ولا تميلهم التذكرة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء اللّه تعالى فيهم ، ولذلك قالوا :

أولياء اللّه عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون. هـ.

قال القشيري : (قل سيروا) بالاعتبار ، واطلبوا الحقّ بنعت الافتكار ، وانظروا : كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حكمكم فى جميع الأحوال ، (كان أكثرهم مشركين) : كان أكثرهم عددا ، ولكن أقل فى التحقيق وزنا وقدرا. هـ.

ثم أمر بالتأهب ليوم المعاد ، وبه يندفع عن الخلق الفساد ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥)

---

(١) هكذا فى الأصول ، وكذا فى الورتجبي. ولعلها : تآثير ، جمع تأثير.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٨

يقول الحق جل جلاله : فَأَقِمْ وَجْهَكَ أي : قوّمه ووجّهه لِلدِّينِ الْقَيِّمِ البليغ فى الاستقامة ، الذي لا يتأتى فيه عوج ولا خلل. وفيه ، من البديع ، جناس الاشتقاق. والخطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وأمته تبع ، أو : لكل سامع.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ وهو البعث ، لا مَرَدَّ لَهُ أي : لا يقدر أحد على رده ، ومِنَ اللَّهِ : متعلّق بيأتي ، أي :

من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يردّه أحد ، أو بمرد لأنه مصدر ، أي : لا مرد له من جهة اللّه ، بعد أن يجيء لتعلق الإرادة به حينئذ. يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ يتصدّعون ، فأدغم التاء فى الصاد. وفى الصحاح : الصدع : الشق ، يقال صدعته فانصدع ، أي : انشق. وتصدّع القوم : تفرقوا. هـ. أي : يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أشار إلى غناه عنهم ، فقال : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وبال كفره ، لا يحمله عنه غيره. وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أي : يسوون لأنفسهم فى قبورهم ، أو : فى الجنة ما يسوى لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه مضجعه. وتقديم الظرف فى الموضعين للاختصاص

، أي : فلا يجاوز عمل أحد لغيره.

ثم علل ما أمر به من التأهب ، فقال : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أظهر فى موضع الإضمار ، أي : ليجزيهم ليدل على أنه لا ينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن لصلاح عمله. أثابه ذلك مِنْ فَضْلِهِ أي : بمحض تفضله إذ لا يجب عليه شيء ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ، بل يبغضهم ويمقتهم ، وفيه إيماء إلى أنه يحب المؤمنين ، وهو كذلك ، ولا سيما المتوجهين.

الإشارة : أمر الحق تعالى بالتوجه إليه ، والتمسك بالطريق التي توصل إليه ، قبل قيام الساعة لأن هذه الدار هى مزرعة لتلك الدار ، فمن سار إليه هنا وعرفه عرفه فى الآخرة ، ومن قعد هنا مع هواه ، حتى مات جاهلا به بعث كذلك ، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل ، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه ، أو بعلمه ، أو بعقله انقطع لا محالة. قال القشيري : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ : أخلص قصدك ، وصدق عزمك ، بالموافقة للدين القيّم ، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع.

ومن لم يتأدب [بمن] «١» هو إمام وقته ، ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خسرانه أتمّ من ربحه ، ونقصانه أعمّ من نفعه. هـ.

---

(١) فى الأصول الخطية [ممن].

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٣٤٩

ثم ذكر دلائل القدرة على البعث وغيره ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٦]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)

قلت : (و ليذيقكم) : عطف على (مبشرات) على المعنى ، كأنه قيل : لتبشركم وليذيقكم ، أو : على محذوف ، أي : ليغيثكم وليذيقكم.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على كمال قدرته : أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ ، وهى الجنوب ، والصّبا ، والشمال ، والدّبور ، فالثلاث : رياح الرحمة ، والدبور : ريح العذاب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «اللهم اجعلها رياحا ، ولا تجعلها ريحا» «١». وقال : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢» ، وهى الريح العقيم. وقرأ ابن كثير والأخوان : بالإفراد ، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله : مُبَشِّراتٍ أي : أرسلها بالبشارة بالغيب وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ولإذاقة الرحمة ، وهى نزول المطر ، وحصول الخصب الذي يتبعه ، والرّوح الذي مع هبوب الريح ، وزكاء الأرض ، أي :

ربوها وزيادتها بالنبات ، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن : لو أمسك اللّه عن أهل الأرض الريح ساعة لماتوا غمّا.

وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فى البحر عند هبوبها بِأَمْرِهِ بتدبيره ، أو بتكوينه ، لقوله إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً ... «٣» الآية. قيل : إنما زاد بأمره لأنها قد تهب غير مواتية ، فتغرق ، وهى عند أمره أيضا ، فهى على حسب أمره ، ولأن الإسناد وقع للفلك مجازا ، فأخبر أنه بأمره ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، يريد به تجارة البحر ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم فيزيدكم من فضله.

الإشارة : ومن آيات فتحه على أوليائه : أن يرسل رياح الهداية أولا ، ثم رياح التأييد ، ثم رياح الواردات ، تحمل هدايا التّعرّفات ، مبشرات بالفتح الكبير ، والتمكين فى شهود العلى الكبير ، وليذيقكم من رحمته ، وهى حلاوة معرفته ، ولتجري سفن الأفكار فى ميادين بحار توحيده ، ولتبتغوا من فضله هو الترقي فى الكشوفات والعلوم والأسرار ، أبدا سرمدا ، ولعلكم تشكرون بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

---

(١) أخرجه الشافعي فى مسنده (ح ٥٠٢) ، وأبو يعلى فى مسنده (٤/ ٣٤١) ، والطبراني فى الكبير (١١/ ٢١٣ - ٢١٤ ح ١١٥٣٢) ، وابن عدى فى الكامل (٢/ ٧٦٣) من حديث ابن عباس. وانظر : مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥ - ١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء ، باب : قول النبي صلى اللّه عليه وسلم «نصرت بالصبا» ح ١٠٣٥) ومسلم فى (الاستسقاء باب فى ريح الصبا والدبور ، ٢/ ٦١٧ ، ح ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه. والصبا : ريح ، ومهبها المستوي أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدّبور : الريح التي تقابل الصبا ، وقال النووي : هى الريح الغربية.

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس.

قال القشيري : يرسل رياح الرجاء على قلوب العبّاد ، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد وغثاء النفس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق ، فتحملهم إلى بساط الجهد ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياح

البسط على أرواح الأولياء فتطهرها من وحشة القبض ، وتنشر فيه لذاذات الوصال ، ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء ، فتطهرها من آثار الأغيار ، وتبشرها بدوام الوصال. فذلك ارتياح به ، ولكن بعد اجتناح عنك. هـ. أي : بعد ذهاب عنك وزوال. واللّه تعالى أعلم.

ثم سلّى نبيه بمن قبله ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

قلت : (حقا) : خبر «كان» ، و(نصر) : اسمها. أو : (حقا) : خبر «كان» ، واسمها : ضمير الانتقام ، فيوقف عليه ، و(علينا نصر) : مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

بالمعجزات البينات الواضحات ، فكذبوهم انْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

بالتدمير ، كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

أي :

وكان نصر المؤمنين ، بإنجائهم من العذاب ، حقا واجبا علينا بإنجاز وعدنا إحسانا. أو : وكان الانتقام من المجرمين حقا لا شك فيه ، ثم علينا ، من جهة الإحسان ، نصر المؤمنين. قال البيضاوي : فيه إشعار بأن الانتقام لهم – أي : من عدوهم – إظهار لكرامتهم ، حيث جعلهم مستحقين على اللّه أن ينصرهم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنم» ، ثم تلا الآية «١». أي : كانَ حَقًّا عَلَيْنا ..

إلخ.

الإشارة : هكذا جرت سنّة اللّه تعالى ، مع خواصه ، أن ينتقم ممن آذاهم ، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام باطنا بنقص الإيمان وقساوة القلب ، وهو أقبح. قال القشيري : فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشوّشنا عليهم ما أمّلوا ، ونقصنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا. كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

، وطئهم

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٧٦) وأخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٦/ ٤٥٠) ، والترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى الذّب عن عرض المسلم ، ٤/ ٢٨٨ ح ١٩٣١) ، وحسنه من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه. وأخرجه الطبراني فى الكبير (٢٤/ ١٧٥ – ١٧٦ ، ح ٤٤٢) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية. وانظر الفتح السماوي (٢/ ٩٠٥ – ٩٠٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥١

أعداؤهم بأعقابهم ، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى رقّيناهم فوق رقابهم ، وخرّبنا أوطانهم ، وهدّمنا بنيانهم ، وأخمدنا نيرانهم ، وعطّلنا عليهم ديارهم ، ومحونا ، بقهر التدمير ، آثارهم ، فظّلت شموسهم كاسفة ، ومكيدة قهرنا لهم ، بأجمعهم ، خاسفة. هـ.

ثم برهن على ذلك ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ الأربع. وقرأ المكي : بالإفراد. فَتُثِيرُ أي : تزعج سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ أي : يجعله منبسطا ، متصلا بعضه ببعض فى سمت السماء ، كقوله : وَفَرْعُها فِي السَّماءِ «١» ، أي : جهته. فيبسطها فى الجو كَيْفَ يَشاءُ سائرا أو واقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من ناحية الشمال ، أو الجنوب ، أو الدّبور ، أو الصّبا ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أي : قطعا متفرقة. والحاصل : أنه تارة يبسطه متصلا مطبقا ، وتارة يجعله قطعا متفرقة ، على مشيئته وحكمته. فَتَرَى الْوَدْقَ المطر يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وسطه.

فَإِذا أَصابَ بِهِ بالودق مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، يريد إصابة بلادهم وأراضيهم ، إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ يفرحون بالخصب ، وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ المطر مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ آيسين ، وكرر «من قبله» للتوكيد ، وفائدته : الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار ، أو : على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم يأسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ أي : المطر كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بالنبات وأنواع الثمار بَعْدَ مَوْتِها يبسها ، إِنَّ ذلِكَ أي : القادر عليه لَمُحْيِ الْمَوْتى فكما أحيا الأرض بعد يبسها ، يحيى الأجساد بعد رميمها ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وهذا من جملة مقدوراته تعالى.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

الإشارة : اللّه الذي يرسل رياح الواردات الإلهية ، فتنزعج سحاب الآثار عن عين الذات العلية ، فتبقى شمس العرفان ، ليس دونها سحاب ، فيبسطه فى سماء القلوب كيف يشاء ، فيقع الاحتجاب لبعضها ، ويصرفه عمن يشاء فيقع التجلي والظهور ، ويجعله كسفا لأهل الاستشراف ، فتارة ينجلى عنهم سحب الآثار ، فيشاهدون الأنوار ، وتارة تغطيهم سحب الآثار ، فيشاهدون الأغيار ، فترى مطر خمرة الفناء تخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين ، آيسين حين كانت نفوسهم غالبة عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكا ثم سقط على شيخ ذى خمرة أزلية ، فسقاه حتى حيي بمعرفة اللّه.

قال القشيري : اللّه الذي يرسل رياح عطفه وجوده ، مبشرات بجوده ووصله ، ثم يمطر جود غيثه على أسرارهم ، ويطوى بساط الحشمة عن مناجاة قربه ، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه ، وينشر عليهم أزهار أنسه ، ثم يتجلّى لهم بحقائق قدسه ، ويسقيهم بيده شراب حبّه. وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم ، لا بهم ، ولكن بنفسه. والعبارات عن ذلك خرس ، والإشارات ، دونه ، طمس.

وقال فى قوله تعالى : فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ .. الآية : يحيى الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء أمطارها ، ليخرج زرعها وثمارها ، ويحيى النفوس بعد تفريقها ، ويوفقها للخيرات بعد فترتها ، فتعمر أوطان الوفاق بصدق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، وتحيى القلوب ، بعد غفلتها ، بأنواع المحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة ، ويهتدى بأنوار أهلها أهل العصر من أهل الإرادات ، ويحيى الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسها من برج السعادة ، ويتصل ، بمشامّ أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظى منه بنصيب ، ويحيى الأسرار بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وقفة فى بعض الحالات ، فتنتفى ، بالكلية ، آثار الغيريّة ، ولا يبقى فى الديار ديّار ، ولا من سكانها آثار ، وسطوات الحقائق لا تثبت لها ذرّة من صفات الخلائق هنالك الولاية للّه الحق .. انتهى المراد منه ، مع زيادة بيان.

ثم ذكر الجوائح ، وما ينشأ من أهل الغفلة عند ظهورها ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

قلت : اجتمع القسم والشرط ، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط. والضمير فى (رأوه) : يعود على النبات المفهوم مما تقدم من إحياء الأرض ، أو : على السحاب.

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً عاصفة على ما نبت فى الأرض من الزروع وسائر الأشجار ، الذي هو أثر رحمة اللّه ، فَرَأَوْهُ أي : ما نبت فى الأرض ، مُصْفَرًّا يابسا لَظَلُّوا أي : ليظلون مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد اصفراره يَكْفُرُونَ ، ويقولون : ما رأينا خيرا قط ، فينسون النعم السابقة بالنقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة ، وأما أهل اليقظة فيشكرون فى أوقات النعم ، ويصبرون ويرضون فى أوقات النقم ، وينتظرون الفرح بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، غير [قانطين] «١» ولا ضجرين.

أو : ولئن أرسلنا ريحا لتعذيبهم ، فرأوا سحابة صفراء ، لأنّ اصفراره علامة على أنه لا مطر فيه ، لظلوا ، أي : للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم لانهماكم.

قال البيضاوي : وهذه الآية ناعية على الكفار ، لقلة تثبتهم ، وعدم تدبرهم ، وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم ، وسوء رأيهم ، فإن النظر السوي يقتضى أن يتوكلوا على اللّه ، ويلتجئوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس القطر عنهم ، ولا ييأسوا من رحمته ، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، ولم يبطروا بالاستبشار ، وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زروعهم بالاصفرار ، ولم يكفروا نعمه. هـ.

قال النسفي : ذمّهم اللّه تعالى بأنهم ، إذا حبس عنهم المطر ، قنطوا من رحمته ، وضربوا أذقانهم على صدورهم ، مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ، ورزقهم المطر ، استبشروا ، فإذا أرسل اللّه ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا ، وكفروا بنعمه ، وهم فى جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على اللّه ، فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ، ففرحوا وبطروا ، وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه ، قال تعالى : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى أي : موتى القلوب ، وهؤلاء فى حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ أي : لا تقدر أن تسمع من كان كالأصم دعاءك إلى اللّه ، أو : لا يقدرون أن يسمعوا منك ، إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلا أو مدبرا ، فما فائدة التخصيص؟ قلت : هو إذا كان مقبلا يفهم بالرمز والإشارة ، فإذا ولّى فلا يفهم ، ولا يسمع ، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفي.

---

(١) فى الأصول المخطوطة [قانتين] والمناسب ما أثبته.

وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ أي : عمي القلوب. وقرأ حمزة : «وما أنت تهدى العمى» ، عَنْ ضَلالَتِهِمْ أي : لا تقدر أن تهدى الأعمى عن طريقه إذا ضلّ عنه ، بالإشارة إليه ، إِنْ ما تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ منقادون لأوامر اللّه ونواهيه.

الإشارة : من أصول طريقة التصوف : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فالرجوع فى السراء : بالحمد والشكر ، وفى الضراء : بالرضا والصبر. قال القشيري : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى .. إلخ : من فقد الحياة الأصلية لم يعش بالرّقى والتمائم ، وإذا كان فى السريرة طرش عن سماء الحقائق ، فسمع الظواهر لا يفيد إلا تأكيد الحجّة ، وكما لم يسمع الصّم الدعاء ، فكذلك لا يمكنه أن يهدى العمى عن ضلالتهم. هـ.

ولما ذكر شيئا من دلائل الأكوان ، ذكر شيئا من دلائل الأنفس ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

قلت : «اللّه» : مبتدأ ، والموصول : خبره.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الذي يستحق أن يعبد وحده هو الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ أي : ابتدأكم ضعفاء ، وجعل الضعف أساس أمركم ، أو : خلقكم من أصل ضعيف ، وهو النطفة كقوله : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ «١» ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، يعنى : حال الشباب إلى بلوغ الأشد ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يعنى : حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد فى الشيب ما يسلى عن روعة هجومه ، فمن ذلك قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة» «٢» ، ولما رأى إبراهيم عليه السّلام الشيب فى لحيته قال : يا رب ، ما هذا؟ قال : هذا وقار. وأوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السّلام : «يا داود ، إنى لأنظر الشيخ الكبير ، مساء وصباحا ، فأقول له : عبدى ، كبر سنّك ، ورق جلدك ، ووهن عظمك ، وحان قدومك علىّ ، فاستحي منى ، فإنى أستحيى أن أعذب شيبة بالنار». ومن المستلحات ،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة المرسلات.

(٢) أخرجه الترمذي فى (فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل من شاب شيبة فى سبيل اللّه ، ح ١٦٣٥) وأخرجه ، مطولا ، النسائي فى (الجهاد ، باب من رمى بسهم فى سبيل اله عز وجل ٦/ ٢٦) من حديث عمرو بن عبسة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٥

مما يسلى عن روع الشيب ، ما أنشد القائل :

لا يروعك الشّيب يا بنت عبد اللّه ، فالشّيب حلة ووقار

إنّما تحسن الرّياض إذا م ا ضحكت فى خلالها الأزهار

ثم قال تعالى : يَخْلُقُ ما يَشاءُ من ضعف ، وقوة ، وشباب ، وشيبة ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بأحوالهم ، الْقَدِيرُ على تدبيرهم فيصيرهم إلى ذلك. والترديد فى الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير.

وفى «الضعف» : لغتان الفتح والضم «١». وهو أقوى سندا فى القراءة ، كما روى ابن عمر. قال : قرأتها على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من ضعف» ، فأقرأنى : «من ضعف» «٢».

الإشارة : إذا كثف الحجاب على الروح ، وكثرت همومها ، أسرع لها الضعف والهرم ، وإذا رقّ حجابها ، وقلّت همومها قويت ونشطت بعد هرمها ، ولا شك أن توالى الهموم والأحزان يهرم ، وتوالى البسط والفرح ينشط ، ويرد الشباب فى غير إبّانه ، والعارفون : فرحهم باللّه دائم ، وبسطهم لازم إذ لا تنزل بساحتهم الهموم والأحزان ، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان كما قال فى الحكم.

قال القشيري «٣» : خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، أي : ضعف عن حال الخاصة ، ثم جعل من بعد ضعف قوة بالوصول إلى شهود الوجود القديم ، ثم من بعد قوة ضعفا بالرجوع إلى المسكنة ، أي : فى حال البقاء ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «٤» هـ «٥».

ثم ذكر أهوال البعث ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٥ الى ٥٧]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)

---

(١) قرأ حفص : بالفتح ، عن عاصم. وقرأ الباقون : بضمها ، وهو الذي اختاره حفص ، لحديث ابن عمر. وعن حفص أنه قال : (ما خالفت عاصما إلا فى هذا الحرف). وقد صح عنه الفتح والضم. وقال فى النشر : وبالوجهين قرأت له ، وبهما آخذ. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٨ - ٥٩) ، وأبو داود فى كتاب (الحروف والقراءات ، باب ١ ، ٤/ ٢٨٣ ، ح ٣٩٧٨) ، والترمذي فى (القراءات - سورة الروم ، ٥/ ١٧٤ ، ح ٢٩٣٦) وحسنّه من حديث ابن

عمر رضي اللّه عنه.

(٣) النقل بالمعنى. [.....]

(٤) سبق تخريجه.

(٥) المسكين هو المتواضع لله باطنا وظاهرا ، والخاضع له ، الساكن لأمره ، المطمئن بربه ، وهو المخبت الخاشع لله ، وهذا حال قوة الإيمان ، فاللهم اجعلنا مساكين لك ، أعزة على عدوك.

(٣٥٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٦

قلت : «لبثوا» : جواب القسم على المعنى ، وإلا لقيل : ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، أي : القيامة. وسميت بذلك لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا ، ولأنها تقوم فى ساعة واحدة ، وصارت علما لها بالغلبة ، كالنجم للثريا ، فإذا قامت يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ يحلف الكافرون : ما لَبِثُوا فى قبورهم ، أو : فى الدنيا ، غَيْرَ ساعَةٍ ، استقلّوا مدّة لبثهم فى القبور ، أو : الدنيا ، لشدة هول المطلع ، أو : لطول مقامهم فى أهوالها ، أو : ينسون ما لبثوا ، أو : يكذبون. كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ ، أي : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الصدق والتصديق ، أو : عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هى عليه ، ويقولون : ما هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ ، أي : حصّلوا العلم باللّه والإيمان بالبعث ، وهم الملائكة والأنبياء ، والمؤمنون : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ فى علم اللّه المثبت فى اللوح ، أو : فى حكم اللّه وقضائه ، أو : القرآن ، وهو قوله تعالى : «ومن ورائهم برزخ ..» إلخ ، أي : لقد مكثتم مدّة البرزخ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، ردّوا عليهم ما قالوه ، وحلّفوهم عليه ، وأطلعوهم على حقيقة الأمر ، ثم وبّخوهم على إنكار البعث بقولهم : فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ الذي كنتم تنكرونه ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فى الدنيا أنه حق لتفريطكم فى طلب الحق ، واتباعه. والفاء جواب شرط «١» مقدر ، ينساق إليه الكلام ، أي : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يومه.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ «٢» الَّذِينَ ظَلَمُوا كفروا ، مَعْذِرَتُهُمْ : اعتذارهم ، والمعذرة : تأنيثها مجازى ، فيجوز التذكير والتأنيث ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي : لا يقال لهم : أرضوا ربّكم بالتوبة ، ولا يدعون إلى استرضائه ، يقال :

استعتبني فلان فأعتبته ، أي : استرضانى فأرضيته.

الإشارة : كل من قصر فى هذه الدار ، وصرف أيام عمره فى البطالة ، يقصر عليه الزمان عند موته ،

ويرجع عنده كأنه يوم واحد ، فحينئذ يستعتب فلا يعتب ، ويطلب الرجعى فلا يجاب ، فلا تسأل عن حسرته وخسارته ، والعياذ باللّه ، وهذا كله مبين فى القرآن ، كما قال تعالى :

---

(١) الفاء ، بذاتها ، ليست جواب شرط مقدر ، وإنما هى واقعة فى جواب شرط مقدر.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «ينفع» بالياء. والباقون : بالتاء .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٠٦)

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أي : بيّنا لهم فيه من كل مثل ، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد ، وصدق الرسل ، وغير ذلك ، مما يحتاجون إلى بيانه ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ من الآيات الدالة على صدقك ، أو : القرآن. لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع ، مع أن المجيء بالحق واحد مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين ، أو : ولقد وصفنا كلّ صفة ، كأنها مثل فى غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كقصة المبعوثين يوم القيامة ، وما يقولون ، وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ، ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن ، قالوا : جئتنا بزور باطل. كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، أي : مثل ذلك الطبع – وهو الختم – يطبع اللّه على قلوب الجهلة الذين علم اللّه منهم اختيار الضلال ، حتى سمّوا المحققين مبطلين ، وهم أغرق خلق اللّه فى تلك الصفة.

فَاصْبِرْ على أذاهم وعداوتهم ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرتك ، وإظهار دين الإسلام على كل دى ، ن حَقٌّ لا بد من إنجازه والوفاء به ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ لا يحملنّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة فى الرد عليهم ، أو : لا يحملنّك على الخفة والقلق فزعا مما يقولون فإنهم ضلّال ، شاكّون ، لا يستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب : بسكون النون على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة : قد بيّن اللّه فى القرآن ما يحتاج السائرون إليه ، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة ، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية ، من غوامض أسراره ليقول أهل الجمود : هذا إلحاد

وباطل. فاصبر إن وعد اللّه بالنصر لأوليائه حق ، ولا يحملنك على العجلة من لا يقين عنده. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

(٣٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٨

(٣٥٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٩

سورة لقمان

مكية ، وقيل : إلا قوله : يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ لأن الزكاة فرضت بالمدينة ، وهو ضعيف لأن الحق تعالى يخبر بالشيء قبل وقوعه كما تحقق وقوعه. وآياها : أربع وثلاثون ، أو ثلاث وثلاثون.

ومناسبتها لما قبلها قوله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ .. «١» مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ إذ هو القرآن العظيم. وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ «٢» وهنا : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا «٣». قيل : وسبب نزولها أن قريشا سألت عن قصة لقمان مع ابنه ، وعن بر والديه ، فنزلت. قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

قلت : هُدىً وَرَحْمَةً : حالان من الآيات ، والعامل : معنى الإشارة. ورفعهما حمزة على الخبر لتلك بعد خبر ، أو : خبر عن محذوف ، أي : هو ، أو : هى هدى. والموصول : نعت للمحسنين تفسير لإحسانهم ، و(هم) : مبتدأ ، و(يوقنون) : خبر. وتكرير الضمير للتوكيد ، ولما حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله : الم أيها المصطفى المقرب ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها هى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ أي : ذى الحكمة البالغة ، أو : الذي أحكمت آياته وأتقنت ، أو : المحكم الذي لا ينسخه كتاب. أو :

المصون من التغيير والتبديل. حال كونه هُدىً وَرَحْمَةً هاديا لظواهرهم بتبين الشرائع ، ورحمة لقلوبهم بتبين حقائق الإيمان ، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان فى قوله : إِذا مَا اتَّقَوْا

وَآمَنُوا «٤» الآية. ولذلك خصه بقوله : لِلْمُحْسِنِينَ ، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان لأنهم هم الذي

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٣) من الآية السابعة من سورة لقمان.

(٤) من الآية ٩٣ من سورة المائدة.

يغوصون على أسراره ومعانيه. وهم الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يتقنونها ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ على الوجه المشروع ، ويدفعونها لمن يستحقها ، لا جزاء ولا شكورا ، ولا لجلب نفع أو دفع شر ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، كأنها نصب أعينهم. وخص بالذكر هذه الثلاثة لفضلها فإن الصلاة عماد الدين ، والزكاة قرينتها لأن الأولى عبادة بدنية ، والثانية مالية ، والآخرة هى دار الجزاء ، فلو لا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثا ، وتعالى اللّه عنه علوا كبيرا.

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال : أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ أي : راكبون على متن الهداية ، متمكنون منها ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، الفائزون بكل مطلوب.

الإشارة : قال القشيري : الم ، الألف إشارة إلى آلائه ، واللام إلى لطفه ، والميم إلى مجده وسنائه ، فبآلائه دفع الجحد عن قلوب أوليائه ، وبلطف عطائه أثبت المحبة فى أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه هو مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه. هـ.

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين ، رحمة للواصلين إذ لا تكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب ، يكلمك ويناجيك ، وهذه حالة أهل مقام الإحسان. قال القشيري : وشرط المحسن أن يكون محسنا إلى عباد اللّه : دانيهم وقاصيهم ، مطيعهم وعاصيهم. ثم قال : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يأتون بشرائطها فى الظاهر – ثم ذكرها – ، وفى الباطن يأتون بشروطها من طهارة السّرّ عن العلائق ، وستر عورة الباطن ، بتنقيته من العيوب لأن ما كان فيه فاللّه يراه.

فإذا أردت ألا يرى اللّه عيوبك فاحذرها حتى لا تكون. والوقوف على مكان طاهر : هو وقوف القلب على الحدّ الذي أذن فيه ، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق ، بل رحم اللّه من وقف عند حدّه بالمعرفة بالوقت ، فيعلم وقت التذلّل والاستكانة ، ويميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، ويستقبل

القبلة بنفسه ، ويعلق قلبه باللّه ، من غير تخصيص بقطر أو مكان أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وهم الذين اهتدوا فى الدنيا ، وسلموا ونجوا فى العقبى. هـ.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٦ الى ٧]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧)

(٤/٣٦٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦١

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ أي : ما يلهى به عما يقرب إلى اللّه كالأحاديث التي لا أصل لها ، والخرافات التي لا حقيقة لها ، والمضاحك ، وفضول الكلام. قيل : نزلت فى النّضر بن الحارث ، كان يخرج إلى فارس للتجارة ، فيشترى أخبار الأعاجم ، ثم يحدث قريشا بها ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ولا يسمعون القرآن «١». وقيل :

كان يشترى القيان ، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ليصده عنه.

والاشتراء من الشراء ، كما تقدم عن النضر ، ومن البدل ، كقوله : اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ «٢».

استبدلوه واختاروه ، أي : يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى «من» لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فيبين بالحديث ، والمراد بالحديث : الحديث المكروه ، كما جاء فى الحديث : «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات ، كما تأكل البهيمة الحشيش» «٣» ، أو : للتبعيض ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذي فيه اللهو.

وقال مجاهد : يعنى : شراء المغنيات والمغنين ، أي : يشترى ذات لهو ، أو : ذا لهو الحديث.

وقال أبو أمامة : قال عليه الصلاة والسلام : «لا يحل تعليم المغنيات ، ولا بيعهن ، وأثمانهنّ حرام».

وفى مثل هذا نزلت هذه الآية ، ثم قال : «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّه عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب ، والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت» «٤».

قلت : هذا مقيد بشعر الهوى لأهل الهوى ، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق ، فلا يتوجه الحديث لهم ، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه إن شاء اللّه. ثم قال أبو أمامة رضي اللّه عنه عنه صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه تعالى بعثني هدى ورحمة للعالمين ، وأمرنى ربى بمحو المعازف والمزامير

والأوثان ، والصلب وأمر الجاهلية ، وحلف ربى بعزته لا يشرب عبد من عبيدى جرعة خمر متعمدا إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة ، مغفورا له أو معذبا ، ولا سقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك ، ولا يتركها عبد من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة». انظر الثعلبي.

ثم قال تعالى : لِيُضِلَّ «٥» عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : فعل ذلك ليضل هو عن طريق اللّه ودينه ، أو ليضل غيره عنه ، أو عن القرآن ، بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : جهلا منه بما عليه من الوزر. وَيَتَّخِذَها أي : السبيل هُزُواً وسخرية. فمن رفع : استأنف ، ومن نصب ، عطفها على (ليضل) «٦» ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ يمينهم ويخزيهم ، و«من» ، لإبهامه ، يقع على الواحد والجمع ، والمراد : النضر ومن تبعه.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢ ٣٥٦) ، والبغوي فى التفسير (٦/ ٢٨٣) عن الكلبي ومقاتل.

(٢) من الآية ١٧٧ من سورة آل عمران.

(٣) قال العراقي فى المغني عن حمل الأسفار (١/ ١٨) : لم أقف له على أصل.

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٥٢) ، والطبري فى التفسير (٢١/ ٦٠) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢١٢ ، ٢٥١) ، والبيهقي فى السنن (٦/ ١٥) ، والبغوي فى التفسير (٦/ ٢٨٤) ، والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٥٧) وذكره ابن الجوزي فى العلل المتناهية (٢/ ١٩٨) وأخرجه مختصرا الترمذي وضعفه فى (التفسير – سورة لقمان ٥/ ٣٢٢ ، ح ٣١٩٥).

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء. والباقون بالضم. انظر الإتحاف (٢/ ٣٦١).

(٦) قرأ حفص وحمزة والكسائي : «ويتخذها» بالنّصب. وقرأ الباقون : «ويتخذها» بالرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٦٢). [.....]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً أعرض عن تدبرها متكبرا رافعا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كأنه لم يسمعها ، ولا ذكرت على سمعه. شبّه حاله بحال من لم يسمعها قط ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ثقلا وصمما ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أخبره بأن العذاب يوجعه لا محالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا فى مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال فى المحسنين : أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، قال فى هؤلاء : أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال ، فى مقابلة المحسنين بالهداية والفلاح. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لهو الحديث هو كل ما يشغل عن اللّه ، ويصد عن حضرة اللّه ، كائنا ما كان ، سواء كان غناء أو غيره ، وإذا كان الغناء يهيج لذكر اللّه ، ويحرك الروح إلى حضرة اللّه ، كان حقا ، وإذا كان يحرك إلى الهوى النفساني كان باطلا. والحاصل : أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة ، بشروطه الثلاثة : الزمان والمكان والإخوان.

وقد ألف الغزالي تأليفا فى تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال فى الإحياء ، فى جملة من احتج به المحرّم للسماع :

احتج بقوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ، وقد قال ابن مسعود والنخعي والحسن : إنه الغناء.

وأجاب ما حاصله : أنه إنما يحرم إذا كان استبدالا بالدين ، وليس كل غناء بدلا عن الدين ، مشترى به ، ومضلا عن سبيل اللّه ، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل اللّه كان حراما. كما حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا بسورة عبس ، لما فيها من العتاب مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فهمّ عمر بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك ، فلا يحرم.

وقال فى القوت ، فى كتاب المحبة : ولم يزل الحجازيون ، عندنا بمكة ، يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة ، وهى الأيام المعدودات ، التي أمر اللّه عز وجل عباده فيها بذكره ، أيام التشريق ، من وقت عطاء بن أبى رباح ، إلى وقتنا هذا ، ما أنكره عالم ، وكان لعطاء جاريتان تلحّنان ، فكان إخوانه يستمعون إليهما ، ولم يزل أهل المدينة مواطئين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضي ، له جوار يسمعن التلحين ، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم ، ويأمرهن بالإنشاد ، وكان فاضلا. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم ، فقيل له : إنك تنكر السماع ، وقد كان الجنيد وسرى السقطي وذو النون يسمعون؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى. هـ.

وقال ابن ليون التجيبى فى الإنالة : روى عن مصعب بن الزبير ، قال : حضرت مجلس مالك ، فسأله أبو مصعب عن السماع ، فقال : ما أدرى ، إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره إلا غبى

جاهل ، أو ناسك عراقى غليظ الطبع. قال التجيبى : وعن أنس كنا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم ،

إذ نزل عليه جبريل ، فقال :

يا رسول اللّه فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وهو نصف يوم ، ففرح فقال : أفيكم من ينشدنا؟

فقال بدوي : نعم ، يا رسول اللّه ، فقال : هات ، هات ، فأنشد البدوي يقول :

قد لسعت حيّة الهوى كبدى فلا طبيب له ولا راقى

إلّا الحبيب الّذى شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد عليه السّلام ، وتواجد أصحابه معه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فلما خرجوا ، أوى كل واحد إلى مكانه ، فقال معاوية : ما أحسن لعبكم يا رسول اللّه! فقال : مه ، مه ، يا معاوية ، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب ، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة. وذكره المقدسي هكذا ، والسهروردي فى عوارفه ، وتكلم الناس فى هذا الحديث «١».

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه ، وسئل عن تخلفه ، فقال : كان فى جيراننا سماع.

وقال الشبلي : السماع ظاهرة فتنة ، وباطنة عبرة. فمن عرف الإشارة حلّ له سماع العبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة «٢».

هـ. واللّه تعالى أعلم.

قوله تعالى : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ .. إلخ ، هذا مثال لمن لم يقبل الوعظ لقسوة قلبه ، وحكم المشيئة يبعده ، فلا يزيده كثرة الوعظ إلا نفورا ، فسماعه كلا سماع ، ومعالجته عنى وضياع ، كما قال القائل :

إذا أنا عاتبت الملول فإنّما أخط بأفلك على الماء أحرفا

ثم بيّن فلاح المحسنين ، فقال :

---

(١) هذا الكلام كذب صريح ، وإفك قبيح. قال العلامة الآلوسى : لا أصل له بإجماع محدثى أهل السنة ، وما أراه إلا من وضع الزنادقة. راجع تفسير الآلوسى (١١/ ٧٢) ففيه ما يكفى للرد على هذا الافتراء. وقال السيوطي فى الحاوي (١/ ٣٣٦) ما معناه :

إن الحديث باطل ، موضوع ، باتفاق أهل الحديث.

(٢) اختلفت الآراء حول السماع ، فأباحه البعض ، وكرهه البعض ، وحرّمه البعض. راجع فى هذه المسألة : الاعتصام للإمام الشاطبي (١/ ٢٢٠) اللمع للسّراج الطوسي (٣٣٨ - ٣٧٤) - حقائق عن التصوف ، للشيخ عبد القادر عيسى ١٩٧ - ٢٠٩.

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٨ الى ٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، قيل : معكوس ، أي : لهم نعيم الجنات ، أو : لهم بساتين ، أو : ديار النعيم. خالِدِينَ فِيها : حال من ضمير «لهم». والعامل : الاستقرار.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا أي : وعدهم ذلك وعدا ، وثبت لهم حقا مهما ، مصدران مؤكدان ، الأول لنفسه ، والثاني لغيره ، إذ قوله : لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ فى معنى : وعدهم اللّه جنات النعيم. وحَقًّا : يدل على معنى الثبات المفهوم من انجاز الوعد. وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الذي لا يعارض فى حكمه ، فينفذ وعده لا محالة. الْحَكِيمُ الذي لا يفعل إلا ما استدعته حكمته.

الإشارة : إن الذين آمنوا فى البواطن ، وحققوا ذلك بالعمل الصالح فى الظواهر ، لهم جنات المعارف معجلة ، وجنات الزخارف مؤجلة ، وعدا حقا وقولا صدقا ، فما كمن فى السرائر ظهر فى شهادة الظواهر ، وإلا كان دعوى ونفاقا ، والعياذ باللّه.

ثم ذكر شواهد قدرته على إنجاز وعده ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٠ الى ١١]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

قلت : «بغير عمد» : يتعلق بحال محذوفه ، أي : ممسكة أو مرفوعة بغير عمد ، و(عمد) : اسم جمع على المشهور ، وقيل : جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها) : إما استئنافية ، لا محل لها ، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ ورفعها بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، الضمير : إما للسموات ، أي : خلقها ، ظاهرة ، ترونها ، أو لعمد ، أي : بغير عمد مرئية ، بل بعمد خفية ، وهى إمساكها بقدرته تعالى. وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، كراهة أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أي : لئلا تضطرب بكم ، وَبَثَّ : نشر فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ صنف من أصناف النبات ،

كَرِيمٍ : حسن بهيج ، أو كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته ، التي هى كمال القدرة ، وحكمته التي هى كمال العلم ، فهى مقررة لقوله : (العزيز الحكيم) ثم أمر بالتفكر فى هذه المصنوعات استدلالا على توحيده بقوله : هذا خَلْقُ اللَّهِ أي : هذا الذي تعاينونه من جملة مخلوقاته ، فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، يعنى : آلهتهم. بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق اللّه ، فأرونى ماذا خلق آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ، أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط فى ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة : خلق سموات الأرواح – وهو عالم الملكوت – مرفوعا غنيا عن الاحتياج إلى شىء ، وألقى فى أرض النفوس – وهو عالم الأشباح – من العقول الراسخة ، لئلا تميل إلى جهة الانحراف ، إما إلى الحقيقة المحصنة ، أو الشريعة. ونشر فى أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس ، وأنبتنا فيها من علوم الحكمة والقدرة ، من كل صنف بهيج. قال القشيري : وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ فى الظاهر : الجبال ، وفى الحقيقة : الأبدال ، الذين هم أوتاد ، بهم يقيهم ، وبهم يصرف عن قريبهم وقاصيهم ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً .. المطر من سماء الظاهر فى رياض الخضرة ، ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحضرة. هذا خلق اللّه العزيز فى كبريائه ، فأرونى ماذا خلق الذين عبدتم من دونه فى أرضه وسمائه؟. هـ.

ثم ذكر قصة لقمان ، الذي وقع السؤال عنه فنزلت السورة ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)

قلت : (يا بنى) فيه ثلاث قراءات كسر الياء ، وفتحها مشدّدة ، وإسكانها «١». وقد تتبعنا توجيهاتها فى كتابنا «الدرر الناثرة فى توجيه القراءات المتواترة».

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ، وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب ، أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آزر ، وقيل : أخو شداد بن عاد ، أعطى شداد القوة ، وأعطى لقمان الحكمة ، وعاش ألف

---

(١) قرأ حفص : بفتح الياء.

سنة ، وقيل : أكثر ، وسيأتى. وأدرك داود عليه السّلام ، وأخذ منه العلم. وكان يفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له فى ذلك؟ فقال : ألا أكتفى إذا كفيت. وقيل : كان خياطا ، وقيل : نجارا ، وقيل : راعيا. وقيل : كان قاضيا فى بنى إسرائيل. وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا ، والجمهور على أنه كان حكيما فقط. وقد خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ، وهى الإصابة فى القول والعمل. وقيل : تتلمذ لألف نبى وتتلمذ له ألف نبى. قاله النسفي.

قال ابن عمر : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «لم يكن لقمان نبيا ، ولكن كان عبدا كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب اللّه فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة. كان قائما فجاءه نداء : يا لقمان ، هل لك أن يجعلك اللّه خليفة فى الأرض ، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت ، فقال : إن خيرنى ربى قبلت العافية ، وإن عزم علىّ فسمعا وطاعة ، فإنى أعلم إن فعل ذلك بي عصمنى وأعاننى. قالت الملائكة بصوت ولا يراهم : لم يا لقمان؟ فقال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، إن يعن ، فالبحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلا ، خير من أن يكون شريفا ، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ، ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فأعطى الحكمة ، فانتبه وتكلم بها «١». هـ.

قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود ، عظيم الشفتين ، مشققّ القدمين «٢». زاد فى اللباب : وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل : لم يزل لقمان ، من زمن داود ، مظهرا للحكمة والزهد ، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمّر عمر سبعة أنس ، فكان آخر نسوره «لبذ». روى أنه أخذ نسرا صغيرا فربّاه ، وكان يصرفه فى حوائجه ، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات ، ثم أخذ نسرا آخر ، فعاش خمسمائة سنة ، ثم أخذ آخر ، فعاش مثل ذلك ، إلى السابع ، عاش خمسمائة سنة ، واسمه لبذ ، فقال له لقمان يوما : يا لبذ انهض إلى كذا ، فأراد النهوض فلم يستطع ، وإذا بوتر لقمان قد اختلج ، وكان لم يألم قط ، فنادى بأهله وعشيرته ، وعلم أن أجله قد قرب ، وقال : إن أجلى قد حضر بموت هذا النسر ، كما أعلمنى ربى ، فإذا مت فلا تدفنونى فى الكهوف والمقابر ، كما [تدفنون] «٣» الجبابرة ، ولكن ادفنوني فى ضريح الأرض ، فدفنوه كما أوصاهم ، فقال ابن ثعلبة :

رأيت الفتى ينسى من الموت حتفه حذورا لريب الدّهر ، والدّهر آكله
فلو عاش ما عاشت بلقمان أنسر لصرف المنايا ، بعد ذلك ، حافله

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣١١) للحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، عن أبى مسلم الخولاني مرفوعا.

(٢) أخرجه الطبري (٢١/ ٦٧).

(٣) فى الأصول (تدفنوا).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦٧

قال البيضاوي : والحكمة ، فى عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهورا ، وكان يسرد الدرع ، فلم يسأله عنها ، فلما أتمها لبسها ، فقال : نعم لبوس الحرب أنت ، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، وأن داود قال له يوما : كيف أصبحت؟ فقال : أصبحت فى يدى غيرى. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها ، فأتى باللسان والقلب ، ثم بعد أيام أمر بأن يأتى بأخبث مضغتين منها ، فأتى بهما أيضا ، فسأله عن ذلك ، فقال : هما أطيب شيء إذا طابا ، وأخبث شيء إذا خبثا. والذي عند الثعلبي : أن الآمر له بإتيان المضغتين سيده ، لا داود عليه السّلام قيل له : بم نلت هذه الحكم ، وقد كنت راعيا؟ فقال : بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنينى «١». هـ.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «أول ما رؤى من حكمة لقمان : أن مولاه أطال الجلوس فى المخرج ، فناداه لقمان : إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد ، ويورث الباسور ، ويصعد الحرارة إلى الرأس ، فاجلس هوينا ، وقم هوينا.» «٢» وروى أنه قدم من سفر ، فقيل له : مات أبوك ، فقال : الحمد للّه ، ملكت أمرى ، فقيل له : ماتت امرأتك ، فقال : الحمد للّه جدّد فراشى ، فقيل له : ماتت أختك ، فقال : سترت عورتى ، فقيل له : مات أخوك ، فقال : انقطع ظهرى. «٣» هـ.

و«أن» – فى قوله : أَنِ اشْكُرْ : مفسرة لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول ، أي : وقلنا له : اشكر للّه على ما أعطاك من الحكمة ، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما ، وعبادة اللّه والشكر له ، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل : لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حليما فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبته.

وقال الجنيد : الشكر : ألا يعصى اللّه بنعمه. وقال أيضا : ألا ترى مع اللّه شريكا فى نعمه. وقيل : هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل : أن شكر القلب : المعرفة ، وشكر اللسان : الحمد ، وشكر الأركان : الطاعة. ورؤية العجز فى الكل دليل القبول. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأن منفعته تعود عليه ، لأنه بريد المزيد ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غير محتاج إلى شكر أحد ، حَمِيدٌ حقيق بأن يحمد ، وإن لم يحمده أحد. وَاذكر إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ ، واسمه : أنعم ، أو أشكم ، أو ناران ، وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ ، تصغير ابن ، لا تشرك باللّه إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ، ومن لا نعمة منه أصلا. وباللّه التوفيق.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩) ، والطبري فى التفسير (٢١/ ٦٧) ، وابن أبى شيبة (١٣/ ٢١٤).

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣١١) لابن المنذر ، عن عكرمة ، بدون رفع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم.

(٣) عزاه فى الدر (٥/ ٣١٧) لعبد اللّه فى زوائده ، عن عبد اللّه بن دينار.

الإشارة : قال القشيري : الحكمة : الإصابة فى [الفعل] «١» والعقد والنطق. ويقال : الحكمة : متابعة الطريق ، من حيث توفيق الحق ، لا من حيث همة النفس. ويقال : الحكمة : ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال : هى معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجليك خارجا عن كسائك. ويقال : ألا تستعصى على من تعلم أنك لا تقاومه. وحقيقة الشكر :

انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال : الشكر : تحقّقك بعجزك عن شكره. ويقال : ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال : هو فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور ، فينطق بمدح المشكور. ويقال :

الشكر : نعت كلّ غنيّ ، كما أن الكفران وصف كلّ لئيم. ويقال : الشكر : قرع باب الزيادة. هـ. قلت : والأحسن : أنه فرح القلب بإقبال المنعم ، فيسرى ذلك فى الجوارح.

ثم قال فى قوله : لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ : الشرك على ضربين : جليّ وخفيّ ، فالجليّ عبادة الأصنام ، والخفيّ :

حسبان شىء من الحدثان من الأنام – أي : أن تظن شيئا مما يحدث فى الوجود أنه من الأنام – ويقال : الشرك :

إثبات غين مع شهود العين ، ويقال : الشرك ظلم على القلب ، والمعاصي ظلم على النفس ، فظلم النفس معرّض للغفران ، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.

ثم أمر ببر الوالدين ، الذي تقدم السؤال عنه فى سبب نزول السورة ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٤ الى ١٥]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

قلت : الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه. و(وهنا) : حال من (أمه) ، أي : حملته حال كونها ذات وهن ، أو من الضمير المنصوب ، أي : حملته نطفة ، ثم علقة .. إلخ ، أو مصدر ، أي : تهن وهنا.

يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ أن يبرّهما ويطيعهما ، ثم ذكر الحامل على البر فقال : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ أي : تضعف ضعفا فوق ضعف ، أي : يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل ، كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا. وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أي : فطامه لتمام عامين. وهذا أيضا مما يهيج

---

(١) فى القشيري [العقل].

الولد على بر والديه ، فيتذكر مرقده فى بطن أمه ، وتعبها معه فى مدة حملة ، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه ، ثم ما عالجته فى أيام رضاعه من تربيته ، وغسل ثيابه ، وسهر الليل فى بكائه ، إلى غير ذلك.

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ، هو تفسير لوصّينا ، أو على حذف الجار ، أي : وصيناه بشكرنا وبشكر والديه. وقوله :

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ .. إلخ : اعتراض بين المفسّر والمفسّر لأنه ، لمّا وصى بالوالدين ، ذكر ما تكابده وتعاينه من المشاق فى حمله وفصاله ، هذه المدة الطويلة تذكيرا لحقها ، مفردا.

وعن ابن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر اللّه ، ومن دعا للوالدين ، فى أدبار الصلوات الخمس ، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيري : والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال : فشكر الحقّ بالتعظيم والتكبير ، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى : إِلَيَّ الْمَصِيرُ فأحاسبك على شكرك ، أو كفرك. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، أراد بنفي العلم به نفيه من أصله ، أي : أن تشرك بي ما ليس بشيء ، أو : ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراك مع اللّه ، بل تقليدا لهما ، فَلا تُطِعْهُما فى ذلك الشرك. وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً أي : صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم ، وهو الخلق الجميل ، بحلم ، واحتفال ، وبر ، وصلة. وقد تقدم تفسيره فى الإسراء «١».

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ أي : اتبع طريق من رجع إلىّ بالتوحيد والإخلاص ، وهو الرسول صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنون ، ولا تتبع سبيلهما ، وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا. وقال ابن

عطاء : اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتى. هـ. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ أي : مرجعك ومرجعهما ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأجازيك على إيمانك وبرّك ، وأجازيهما على كفرهما. واعترض بهاتين الآيتين ، على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك ، يعنى : إنما وصيناه بوالديه ، وأمرناه ألا يطيعهما فى الشرك ، وإن جاهدا كل الجهد لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وأنه مضت لأمه ثلاث ليال لم تطعم فيها شيئا ، فشكى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢» ، وقيل : من أناب : أبو بكر لأن سعدا أسلم بدعوته «٣». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : بر الوالدين واجب ، لا سيما فى حق الخصوص ، فيطيعهما فى كل شىء ، إلا إذا منعاه من صحبة شيخ التربية ، الذي يطهر من الشرك الخفي ، الذي لا ينجو منه أحد ، فإن الآية تشمله بطريق العموم والإشارة ، أي :

وإن جاهداك على أن تشرك بي متابعة هواك وحظوظك ومحبتهن ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ،

---

(١) راجع تفسير الآيتين : ٢٣ - ٢٤ من سورة الإسراء.

(٢) راجع تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت مع حاشية التحقيق.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢) وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٨). وتفسير البغوي (٦/ ٢٨٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٠

واتبع سبيل من أناب إلىّ ، هو شيخ التربية فى علم الإشارة. وقد تقدم قول الجنيد : أمرنى أبى بشىء ، وأمرنى السّرى بشىء ، فقدمت أمر السّرى ، فرأيت سرا كبيرا. وكان شيخ شيوخنا الولي الشهير ، سيدى يوسف الفاسى ، يأتيه شاب من أولاد كبراء فاس ، وكان أبوه ينهاه ويزجره عن صحبته ، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه ، فكان الشيخ يقول للشاب : أطع أباك فى كل شىء إلا فى الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول : ائتوني ولو بسخط الوالدين إذ لا يضره ذلك ، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسى ، فى شرح عقائد الجزائرى ، ما نصه : وحاصل الأمر فى النفس : أنها شبيهة ، فى حالها ، بحال الكافر الحربىّ ، الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هى العليا ، وكلمة التوحيد السفلى ،

وكذلك النفس تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة ، المشغلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا ، وعن القيام بوظائف تكاليفه ، على الوجه الذي أمر به ، هى العليا ، النافذ أمرها ونهيها فى مدن الأجسام وما تعلق بها ، بعد أن نزلت ساحة الأبدان ، واتصلت اتصالا عظيما لا انفكاك له إلا بالموت ، فوجب ، لذلك ، على كل مؤمن يعظّم حرمات اللّه تعالى أن ينهض كل النهوض ، بغاية قواه العلمية والعملية ، لجهادها وقتالها. وفى مثل هذا القتال الذي نزل العدو فيه بساحة الأبدان ، وهو فرض عين على كل مؤمن ، يسقط فيه استئذان الأبوين وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد ، وحجابها له عن ربه ، كعدو يجب جهاده ولو خالف الوالدين ، وهو كذلك إذ طاعة الوالدين لا تكون فى ترك فرض ، ولا فى ارتكاب معصية ، ومن جملة المعاصي ، عند الخواص ، رؤية النفس والوقوف معها ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فقلت : وما ذنبى؟ فقالت مجيبة : وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وتطهير النفس فرض عين ، ولا طاعة للوالدين فى فرض العين. وقوله تعالى : (و صاحبهما فى الدنيا معروفا) قال الورتجبي : المعروف ، هاهنا ، أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط فى الدين عند جهالتهما باللّه. وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ، نهاه عن متابعة المخلّطين ، وحثه على متابعة المنيبين. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم قال لقمان فى وصيته :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٦ الى ١٩]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧١

قلت : الضمير فى (إنها) : للقصة ، ومن قرأ «مثقال» : بالرفع ففاعل كان التامة ، ومن قرأ بالنصب فخبرها ، والضمير : للخطيئة أو الهيئة. وأنث «المثقال» لإضافته إلى الحبة.

يقول الحق جل جلاله : وقال لقمان لابنه ، حين قال له : يا أبت : إن عملت بالخطيئة ، حين لا يرانى أحد ، كيف يعلمها اللّه؟ فقال : يا بُنَيَّ إِنَّها ، أي : القصة أو الخطيئة إِنْ تَكُ مِثْقالَ «١» حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أي : إن تك المعصية فى الصغر والحقارة ، مثقال حبّة من خردل ، أو : إن تقع مثال حبّه من

المعاصي فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أي : فتكن ، مع صغرها ، فى أخفى مكان ، أو فى جبل. وقال ابن عباس : هى صخرة تحت الأرضين السبع ، وهى التي يكتب فيها أعمال الفجار ، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدى : خلق اللّه تعالى الأرض على حوت ، والحوت فى الماء ، والماء على ظهر صفاة – أي : صخرة – والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة.

وهى الصخرة التي ذكر لقمان. ليست فى السماء ولا فى الأرض ، والصخرة على الريح «٢». هـ.

أي : إن تقع المعصية فى أخفى مكان يَأْتِ بِهَا اللَّهُ يوم القيامة فيحاسب عليها عاملها. إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ : يتوصل علمه إلى كل خفى ، خَبِيرٌ : عالم بكنهه ، أو : لطيف باستخراجها خبير بمستقرها.

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ : أتقنها ، وحافظ عليها تكميلا لنفسك ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ تكميلا لغيرك ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ فى ذات اللّه تعالى ، إذا أمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر فإن من فعل ذلك تعرض للأذى ، أو : على ما أصابك من الشدائد والمحن فإنها تورث المنح والمنن. إِنَّ ذلِكَ الذي وصيتك به ، مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : مما عزمه اللّه من الأمور ، أي : قطعه قطع إيجاب وإلزام ، أي : أمر به أمرا حتما. وهو مصدر بمعنى المفعول ، أي : من معزومات الأمور ، أي : مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الأمم.

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أي : تمله عنهم ، ولا تولهم صفحة خدك ، كما يفعله المتكبرون. والتصعير : داء يصيب العير ، فيلوى عنقه منه. والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته تكبرا. _____

(١) قرأ نافع : «مثقال» بالرفع ، على أن «تك» تامة. وقرأ الباقون : بالنصب على أن «تك» ناقصة ، واسمها ضمير يفهم من سياق الكلام ، وتقديره : «هى». انظر : البحر المحيط (٧/ ١٨٢). [.....]

(٢) انظر : تفسير البغوي (٦/ ٢٨٨ – ٢٨٩) ، والبحر المحيط (٧/ ١٨٧). قلت : كل هذه أقوال لا علاقة لها بالآية ، ولا يصح تفسير الآية بها. وعلم الفلك الحديث ، وعلم الفضاء ، وجميع حقائقه القطعية تبرهن على أن الأرض جرم ، وكوكب يسبح فى الفضاء ، وليس على حوت ولا على صخرة. والذي نرجحه : أن هذه الأوهام غير صحيحة السند إلى هؤلاء السادة العلماء.

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً خيلاء متبخترا ، فهو مصدر فى موضع الحال ، أي : مرحا ، أو : تمرح مرحا ، أو : لأجل المرح ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ، علة النهى. والمختال هو المرح الذي يمشى خيلاء ، والفخور هو المصعّر خدّه تكبرا. وتأخير الفخور ، مع تقدمه لرؤوس الآي.

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ توسط فيه بين الدبيب والإسراع ، فلا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثوب الشطارين ، قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن» «١». وأما قول عائشة – رضى اللّه عنها : (كان إذا مشى أسرع) فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب التماوت. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : كانوا ينهون عن خبب «٢» اليهود ودبيب النصارى ، ولكن مشيا بين ذلك.

وقيل : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ : انظر موضع قدميك ، أو : اقصد : توسّط بين العلو والتقصير.

وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ وانقص منه ، أي : اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت ، فنهى اللّه عن خلق الجاهلية ، فذكره لوصية لقمان ، وأنه لو كان شيء يهاب ، لرفع صوته لكان الحمار ، فجعلهم فى المثل سواء. وهو قوله : إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أوحشها وأقبحها لَصَوْتُ الْحَمِيرِ لأن أوله زفير ، وآخره شهيق ، كصوت أهل النار. وعن الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار ، فإنه يصيح لرؤية الشيطان ، وقد سماه اللّه منكرا ، وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية البشاعة ، ويؤيده : ما روى أنه :

عليه الصلاة والسلام – كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم : رفع الصوت محمود فى مواطن منها : الأذان والتلبية. وقال فى الحاشية الفاسية : بل ينبغى الاقتصاد فى ذلك ، كما قال عمر بن عبد العزيز : أذّن أذانا سنّيّا ، وإلا اعتزلنا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام :

«اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا» «٣». وإنما وحّد صوت الحمير ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب توحيده.

الإشارة : قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية ، تدل على كمال صاحبها ، منها : استحضار مراقبة الحق ومشاهدته ، فى السر والعلانية ، فى الجلاء والخفاء. وهو قوله : يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ .. إلخ. ومنها :

القيام بوظائف العبودية ، بدنية ولسانية ، وهو قوله : يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. إلخ ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهى

---

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/ ٨) ، وأبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٩٠) ، من حديث أبى هريرة. وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٩١٣ – ٩١٥).

(٢) الخبب : ضرب من العدو. وقيل : الخبب : السرعة. انظر : «اللسان» (خبب ٢/ ١٠٨٥).

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة ، ح ٦٣٨٤) ، ومسلم فى (الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/ ٢٠٧٦ ح ٢٠٧٤) من حديث أبى موسى الأشعري رضى اللّه عنه. وقوله «اربعوا» أي : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٣

عن المنكر سائر عبادات اللسان ، ومنها : الصبر على النوائب ، سواء كانت من جهة الخلق ، أو من قهرية الحق ، وهو ركن فى الطريق. وتقدم تفصيله فى آخر النحل «١». ومنها : التواضع والليونة ، وهما مصيدة الشرف ، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه اللّه فوق قدره. وهو قوله : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً. ومنها : السكينة والوقار والرزانة ، وهى نتيجة عمارة القلب بالهيبة والإجلال. وهو قوله : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ. ومنها : خفض الصوت فى سائر الكلام ، وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة ، والقرب من الحق ، قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «٢» ، وهو من آكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيري : قوله تعالى : وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. ، الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه : أن تمنع نفسك عما تنهى عنه ، واشتغالك ، واتصاف نفسك ، بما تأمر به غيرك ، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمر به : ما يوصّل العبد إلى مولاه ، والمنكر الذي يجب النهى عنه : ما يشغل العبد عن اللّه.

ثم قال : وقوله تعالى : وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ : تنبيه على أنّ من قام للّه بحقّ امتحن فى اللّه ، فسبيله أن يصبر فى اللّه ، فإنّ من صبر للّه لم يخسر على اللّه.

ثم قال : قوله تعالى : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ لا تتكبر عليهم ، وطالعهم من حيث النسبة ، وتحقق بأنك بمشهد من مولاك. ومن علم أن مولاه ينظر إليه لا يتكبر ولا يتطاول ، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. الآية ، أي : كن فانيا عن شواهدك ، مصطلما عن صولتك ، مأخوذا عن حولك وقوتك ، متشبها بما استولى عليك من كشوفات سرّك. وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ : فى الإشارة : أنه الذي يتكلم بلسان المعرفة بغير إذن من الحق. وقالوا : هو الصوفي يتكلم قبل أوانه. هـ. أي : يتكلم على الناس ، قبل أن يأذن له شيخه فى التذكير. وباللّه التوفيق.

ثم ذكّر بالنعم ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١)

(١) راجع إشارة الآيات : ١٢٦ – ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٤
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ ، يعنى : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، والمطر ، وغير ذلك ، وَما فِي الْأَرْضِ ، يعنى : البحار ، والأنهار ، والأشجار ، والثمار ، والدواب ، والمعادن ، وغير ذلك ، وَأَسْبَغَ : أتم عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ، بالجمع ، والإفراد إرادة الجنس. والنعمة : ما يسر به الإنسان ويتلذذ به ، حال كونها ظاهِرَةً ما تدرك بالحس ، وَباطِنَةً ما تدرك بالعلم والوجدان.
فقيل : الظاهرة : السمع ، والبصر ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة ، والباطنة : القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك.
أو : الظاهرة : الصحة ، والعافية ، والكفاية والباطنة : الإيمان ، واليقين ، والعلم ، والمعرفة باللّه ، وسيأتى فى الإشارة بقيتها.
روى أن موسى عليه السّلام قال : دلنى على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتى عليهم : النّفس. هـ.
قلت : إذ بمجاهدتها تحصل السعادة العظمى ، ولا وصول إليه إلا بمجاهدتها والغيبة عنها. وفى هذا المعنى كان شيخ شيخنا يقول : جزاها اللّه عنا خيرا ما ربحنا إلا منها. هـ. وقيل : الظاهرة : تحسين الخلق ، والباطنة : حسن الخلق.
وقال ابن عباس : الظاهرة : ما سوّى من خلقك ، والباطنة : ما ستر من عيوبك.
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بعد هذه النعم المتواترة ، أي : فى توحيده وصفاته ودينه ، بِغَيْرِ عِلْمٍ مستفاد من دليل ولا برهان ، وَلا هُدىً أي : هداية رسول ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أنزله اللّه ، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت فى النضر بن الحارث. وقد تقدمت فى الحج «١».
وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسوله من التوحيد ، والشرائع ، قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد فى الأصول. قاله البيضاوي قلت : والمشهور أن إيمان المقلّد صحيح. وأما من قلّد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم ينظر ، فهو مؤمن ، اتفاقا. قال تعالى : أَوَلَوْ أيتبعونهم ، ولو كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ ، يحتمل أن يكون الضمير لهم ، أي :

أيقلدونهم ، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب ، أو : لآبائهم ، أي : أيتبعون آباءهم ، ولو كان الشيطان فى زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة : الأكوان كلها خلقت لك أيها الإنسان ، وأنت خلقت للحضرة ، فاعرف قدرك ، ولا تتعدّ طورك ، واشكر النعم التي أسبغ عليك ظاهرة وباطنة. الظاهرة : استقامة الظواهر فى عمل الشرائع ، والباطنة : تصفية البواطن لتتهيأ لأنوار الحقائق ، أو : الظاهرة : المنن ، والباطنة : المحن. قال القشيري : قد تكلموا فى الظاهرة والباطنة وأكثروا.

---

(١) راجع تفسير الآية ٨ من سورة الحج (٣/ ٥١٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٥

فالظاهرة : وجود النعمة ، والباطنة : شهود المنعم ، أو : الظاهرة : الدنيوية ، والباطنة : الدينية. أو : الخلق والخلق ، أو :

نفس بلا زلّة ، وقلب بلا غفلة ، أو : عطاء ورضى. أو : الظاهرة : فى الأموال ونمائها ، والباطنة : فى الأحوال وصفائها ، أو : الظاهرة : النعمة ، والباطنة : العصمة ، أو : الظاهرة : توفيق الطاعات ، والباطنة : قبولها ، أو : الظاهرة :

صحبة العارفين ، والباطنة : حفظ حرمتهم وتعظيمهم. أو : الظاهرة : الزهد فى الدنيا ، والباطنة : الاكتفاء باللّه من الدنيا والعقبى. أو : الظاهرة : الزهد ، والباطنة : الوجد. أو : الظاهرة : توفيق المجاهدة ، والباطنة : تحقيق المشاهدة ، أو :

الظاهرة : وظائف النّفس ، والباطنة : لطائف القلب ، أو : الظاهرة : اشتغالك بنفسك عن الخلق ، والباطنة : اشتغالك بربّك عن نفسك ، أو : الظاهرة : طلبه ، والباطنة : وجوده ، أو : الظاهرة : أن تصل إليه ، والباطنة : أن تبقى معه. هـ. ببعض المعنى.

ثم قال القشيري : وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ .. الآية : لم يتخطوا أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم هـ. يعنى : قلدوا أسلافهم فى الإقامة مع الرسوم والأشكال ، والانهماك فى الحظوظ ، فعاقهم ذلك عن السير والوصول. ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وأما من خالف أمثاله وأشكاله ، وانقاد بكليته إلى مولاه ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، كما قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

قلت : قال فى الحاشية : لمّا ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم ، وعدّاه هنا بإلى ، وفى قوله : بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ «١» ، باللام لأنه لمّا كان المجادل غير معين ، ولم يخص له واحدا بعينه ، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام ، ومدحه يتناول مدح من اتصف بأخص الاستسلام.

أو : فى الآية الأخرى أتى به خاصا ، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله : فَلَهُ أَجْرُهُ ... إلخ ، الذي لم يذكر هنا إلا بعضه ، فإن اللام تقتضى الاختصاص والقصد إلى الشيء. و«إلى» : لا تقتضى ذلك. انظر ابن عرفة.

وقال النسفي : عدّاه هنا بإلى وهناك باللام لأن معناه ، مع اللام : أنه جعل وجهه – وهو ذاته ونفسه – سالما للّه ، أي : خالصا له ، ومعناه ، مع «إلى» : أنه سلّم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل ، إذا دفع إليه. والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أي : فهو أبلغ من اللام ، ومثله البيضاوي.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٦

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ أي : ينقد إليه بكليته ، وينقطع إليه بجميع شراشره ، بأن فوض أمره إليه ، وأقبل بكلّيّته عليه ، وَهُوَ مُحْسِنٌ فى أعماله. قال القشيري : من أسلم نفسه ، وأخلص فى اللّه قصده ، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص ، فلذلك قال : وَهُوَ مُحْسِنٌ. قاله المحشى. وقلت : وفيه نظر فإن الحق تعالى إنما عبّر بالإسلام لا بالاستسلام ، وإنما المعنى : أسلم وجهه فى الباطن ، وهو محسن بالعمل فى الظاهر ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، أي : تعلق بأوثق ما يتعلق به فالعروة :

ما يستمسك به. والوثقى : تأنيث الأوثق. مثّل حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يتدلّى من شاهق جبل ، فاحتاط لنفسه ، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين ، مأمون انقطاعه. قال الهروي : أي : تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهرى : أصله : من عروة الكلأ ، وهو : ما له أصل ثابت فى الأرض ، من الشيح وغيره من الشجر المستأصل فى الأرض. ضربت مثلا لكل ما يعتصم به ، ويلجأ اليه. هـ. وهو إشارة لكون التوحيد سببا وأصلا ، والآخذ به ، متصلا باللّه ، لا يخشى انقطاعا ولا هلاكا ،

بخلاف الشرك ، فإنه على الضد ، كما يرشد إليه قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ .. «١» الآية. وقوله تعالى :

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ ... الآية «٢».

وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أي : صائرة إليه ، فيجازى عليها.

وَمَنْ كَفَرَ ولم يسلم وجهه للّه ، فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ فلا يهمك شأنه ، فسيقدم علينا ونجازيه ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، أي : فنعاقبهم على أعمالهم ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ ، أي : عالم بحقائق الصدور ، وما فيها ، فيجازى على حسبها ، فضلا عما فى الظواهر ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ، أي : نمتعهم زمانا قليلا بدنياهم ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ نلجئهم إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ شديد. شبّه إلزامهم التعذيب ، وإرهاقهم إليه ، باضطرار المضطر إلى الشيء. والغلظ : مستعار من الأجرام الغليظة ، والمراد : الشدة والثّقل على المعذّب. عائذا باللّه من موجبات غضبه.

الإشارة : ومن ينقد بكليته إلى مولاه ، وغاب عن كل ما سواه ، وهو من أهل مقام الإحسان ، بأن أشرقت عليه شمس العيان ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبدا. ومن أمارات الانقياد : ترك التدبير والاختيار ، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار ، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ فيوصل من يشاء برحمته ، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه فلا يحزنك ، أيها العارف ،

---

(١) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج.

فعله ، إلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم ، فسنمتّعهم بحظوظهم ، والوقوف مع عوائدهم ، زمانا قليلا ، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ باللّه.

ثم برهن على توحيد من يجب الاستسلام له ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لوضوح الدليل المانع من

إسناد الخلق إلى غيره ، فيضطرون إلى الإقرار بذلك ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم من شرك الأصنام ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه ، ولم ينتبهوا ، فالإضراب عن كلام محذوف ، أي : فيجب عليهم أن يعبدوا اللّه وحده ، لمّا اعترفوا ، ولكنهم لا يعلمون ، لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، أي : الغنى عن حمد الحامدين ، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

الإشارة : قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول فى مقام الحيرة والاستدلال ، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها ، فمن وجدت عارفا كاملا سلك بها الطريق ، حتى أوقعها على عين التحقيق ، فأشرفت على البحر الزاخر ، فغرقت فى بحر الذات وتيار الصفات ، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد للّه أن وجدت من يعرفك باللّه ، وأكثر الخلق حائدون عن العلم باللّه.

ثم إن العلم باللّه وبصفاته وأسمائه لا نهاية له ، كما قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

قلت : (و لو أنما فى الأرض) : مذهب الكوفيين وجماعة : أن ما بعد «لو» : فاعل بفعل محذوف ، أي : ولو ثبت كون ما فى الأرض .. إلخ. ومذهب سيبويه : أنه مبتدأ ، أي : ولو كون ما فى الأرض واقع ، و(البحر) : مبتدأ ، و(يمده) : خبره ، أي : يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعة أبحر) : مبتدأ وخبر. وحذف التمييز ، أي : (مدادا) ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٨

يدل عليه (يمده) ، أو (سبعة) : فاعل (يمده) ، أي : يصب فيه سبعة أبحر ، والجملة : حال ، أي : ولو أن الأشجار أقلام ، فى حال كون البحر ممدودا ، ما نفدت .. إلخ. وجملة (يمده) : خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم «إن» ، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ من الأشجار أَقْلامٌ ، والبحر يمد تلك الأقلام ، يصب فى ذلك البحر سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات اللّه الدالة على عظمته وكمالاته ، ما نَفِدَتْ كلماته ، ونفدت الأقلام ، وجفت تلك الأبحر ، وهذا كقوله : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»

مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر ، يقال : مد الدواة وأمدها : جعل فيها مدادا ، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، والأبحر السبعة مدادها ، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى ، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر ، قبل أن تنفد كلماته تعالى لأنها تابعة لعلمه ، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحّد الشجرة لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى ما يبقى من جنس الشجر ، ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاما. وأوثر الكلمات ، وهى من حيز جمع القلة ، على الكلم ، الذي هو جمع الكثرة لأن المعنى : أن كلماته لا يفى بها الأقلام فكيف بكلامه الكثير؟

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء ، حَكِيمٌ لا يخرج عن علمه وحكمته شيء ، فلا تنفد كلماته وحكمته.

والآية جواب اليهود ، سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إن قلنا : الآية مدنية ، أو : أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢» ، فقالوا : هل عنيتنا أم قومك؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «كلّا قد عنيت» ، فقالوا : أليس فيما قد أوتيت أنّا قد أوتينا التوراة ، فيها علم كل شى ء؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «هى فى علم اللّه قليل» ، فأنزل اللّه : وَلَوْ أَنَّ ما ... إلخ «٣».

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه ذكر شأن قدرته ، فقال : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، أي : إلا كخلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة. فحذف ، للعلم به ، أي : القليل والكثير فى قدرة اللّه تعالى سواء ، فلا يشغله شأن عن شأن ، وقدرته عامة التعلق ، تنفذ أسرع من لمح البصر. قال الغزالي فى الإحياء : ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يدعى به إلى اللّه تعالى ، فيحاسب ويوبخ ، وتوزن له حسناته وسيئاته ، وهو فى ذلك كله يظن أن اللّه لم

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه الطبري فى التفسير (٢١/ ٨١) عن ابن عباس. وذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٥٨) بدون إسناد.

يحاسب إلا هو ، ولعل آلاف آلاف ألف مثله فى لحظة واحدة. وكل منهم يظن ظنه ، لا يرى بعضهم بعضا ، ولا يسمعه ، وهو قوله تعالى : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ. هـ.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لقول من ينكر البعث من المشركين ، بَصِيرٌ بأعمالهم ، فيجازيهم.
الإشارة : أوصاف الباري سبحانه كلها كاملة ، غير محصورة ولا متناهية من علم ، وقدرة ، وإرادة ، وكلام ، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية ، وقد يمد الحقّ عبده بصفة من صفاته التي لا تتناهى «١» ، فإذا أمده بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول ، لا يقدر على إمساكه ، فلو بقي يتكلم عمره كله ما نفد كلامه ، حتى يسكته الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه ، حين يتكلم عليهم : إني لأستفيد من نفسي كما تستفيدون أنتم مني ، وذلك حين الفيض الإلهي. وإذا أمده بصفة القدرة ، قدر على كل شيء ، وإذا أمده بصفة السمع سمع كل شيء ، وإذا أمده بصفة البصر ، أبصر كل موجود .. وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة في العبد من حيث معناه ، احتجبت بظهور أضدادها صونا لسّر الربوبية. واللّه تعالى أعلم.
ثم برهن على كمال أوصافه ، فقال :
[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار ، إذا أقبل الليل ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ يدخل ضوء النهار في ظلمة الليل ، إذا أقبل النهار. أو : بإدخال جزء

---

(١) أي : يمد اللّه عبده المخلص ببعض أنوار صفة من صفاته ، فقد يمده بنور من صفة العلم ، أو بنور من صفة القدرة ، أو بنور من صفة العزة ، أو بنور من صفة الكلام .. إلخ. أما أن يمده بصفة لا متناهية من صفاته اللامتناهية .. فهو أمر غير منصور ، فالرب رب ، والعبد عبد ، واللّه ليس كمثله شيء. [.....]

أحدهما في الآخر بزيادة الليل أو النهار. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لمنافع العباد ، كُلٌّ ، أي : كل واحد

من الشمس والقمر يَجْرِي فى فلكه ، ويقطعه ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى يوم القيامة ، أو : إلى وقت معلوم للشمس ، وهو تمام السنة ، والقمر إلى آخر الشهر. وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عالم بكنهه ، لا يخفى عليه شيء.

فدل ، بتعاقب الليل والنهار ، أو بزيادتهما ونقصانهما ، وجري النيرين فى فلكهما ، على تقدير وحساب معلوم ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق ، على عظيم قدرته ، وكمال علمه وحكمته.

ذلِكَ شاهد بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وما سواه باطل ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ «١» مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ المعدوم فى حد ذاته ، لا حقيقة لوجوده. أو : ذلك الذي وصف بما وصف به ، من عجائب قدرته وباهر حكمته ، التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون ، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون اللّه؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية ، وأن من دونه باطل ألوهيته ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، أي : العلى الشأن ، الكبير السلطان.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ السفن تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ بإحسانه ورحمته ، أو : بالريح ، لأن الريح من نعم اللّه. أو : ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع ، فالباء ، حينئذ ، للأرزاق ، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته ، وكمال حكمته ، وشمول إنعامه. لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ من عجائب قدرته فى البحر إذا ركبتموه ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دالة على وحدانيته وكمال صفاته لِكُلِّ صَبَّارٍ فى بلائه ، شَكُورٍ لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر ، فلا يعتبر بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

وَإِذا غَشِيَهُمْ ، أي : الكفار ، أي : علاهم وغطاهم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ، أي : كشيء يظل من جبل ، أو سحاب ، أو غيرهما ، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل جمع ظلة ، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لا يدعون معه غيره ، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ مقيم على الطريق القصد ، باق على الإيمان ، الذي هو التوحيد ، الذي كان منه فى حال الشدة ، لم يعد إلى الكفر ، أو : متوسط فى الظلم والكفر ، انزجر بعض الانزجار. ، ولم يغل فى الكفر والعدوان.

أو : مقتصد فى الإخلاص الذي كان عليه فى البحر ، يعنى : أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط ، إلا النادر ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا أي : بحقيقتها إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ غدّار. والختر : أقبح الغدر ، كَفُورٍ لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة لفظا ومعنى ، فختّار : مقابل صبّار ، وكفور : مقابل شكور لأن من غدر لم يصبر ، ومن كفر لم يشكر. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص والكسائي ويعقوب : «ما يدعون» بالغيب .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٦٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨١

الإشارة : ألم تر أن اللّه يولج ليل القبض فى نهار البسط ، ونهار البسط فى ليل القبض ، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار ، فإذا تأدب مع كل واحد منهما زاد بهما معا ، وإلا نقص بهما ، أو بأحدهما. فآداب القبض : الصبر ، والرضا ، والسكون تحت مجارى الأقدار. وآداب البسط : الحمد ، والشكر ، والإمساك عن الفضول فى كل شىء. وسخّر شمس العيان وقمر الإيمان ، كلّ يجرى إلى أجل مسمى فقمر الإيمان يجرى إلى طلوع شمس العرفان ، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن اللّه هو الحق ، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق ، بطلوع شمس العيان ، زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا. وإنما أثبته الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجرى فى بحار التوحيد ، لترى عجائب الأنوار وغرائب الأسرار ، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن فى ذلك لآيات لكل صبّار على مجاهدة النفس ، شكور على نعمة الظّفر بحضرة القدّوس.

وإذا غشيهم ، فى حال استشرافهم على بحر الحقيقة ، موج من أنوار ملكوته ، فكادت تدهشهم ، تضرعوا والتجئوا إلى سفينة الشريعة ، حتى يتمكنوا ، فلما نجاهم إلى بر الشريعة ، فمنهم مقتصد معتدل بين جذب وسلوك ، بين حقيقة وشريعة ، ومنهم : غالب عليه السكر والجذب ، ومنهم : غالب عليه الصحو والسلوك. وكلهم أولياء اللّه ، ما ينكرهم ويجحدهم إلا كل ختّار جاحد. قال القشيري : وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة ، فإذا جاء الحقّ بتحقيق مناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فكم قد جهلتم ، ثم عدنا بحلمنا ، أحبّاءنا : كم تجهلون ونحلم!

ثم ختم بالوعظ والتذكير ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

قلت : (بأى أرض) قال فى المصباح : الأفصح : استعمال «أي» فى الشرط والاستفهام بلفظ واحد ، للمذكر والمؤنث ، وعليه قوله تعالى : أَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ «١» ، وقد تطابق فى التذكير والتأنيث ، نحو : أي رجل ، وأي وأية امرأة. وفى الشاذ : بأية أرض تموت. هـ.

---

(١) من الآية ٨١ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨٢

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية ، بطاعته وترك معصيته. وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ شيئا ، لا يقضى عنه شيئا ، ولا يدفع عنه شيئا. والأصل : لا يجزى فيه ، فحذف. وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ، وتغيير النظم فى حق الولد ، بأن أكده بالجملة الاسمية ، وبزيادة لفظ (هو) ، وبالتعبير بالمولود للدلالة على حسم أطماعهم فى أن ينفعوا آباءهم الذين ماتوا على الكفر بالشفاعة فى الآخرة. ومعنى التأكيد فى لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل منه ، فضلا عن أن يشفع لأجداده لأن الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود لإنه لما ولد منك.

كذا فى الكشاف ، قلت : وهذا فى حق الكفار ، وأما المؤمنون فينفع الولد والده ، والوالد ولده بالشفاعة ، كما ورد فى قارئ القرآن والعالم ، وكل من له جاه عند اللّه ، كما تقدم فى سورة مريم «١».

ثم قال تعالى : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والحساب والجزاء ، حَقٌّ لا يمكن خلفه ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بزخارفها الغرارة فإنّ نعمها دانية ، ولذاتها فانية ، فلا تشغلكم عن التأهب للقاء ، بالزهد فيها ، والتفرغ لما يرضى اللّه ، من توحيده وطاعته ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ، أي : لا يعرضنكم لخطر الغرة باللّه وبحمله ، أو : لا يوقعنكم فى الجهل باللّه والغرة به ، الْغَرُورُ أي : الشيطان ، أو : الدنيا ، أو : الأمل. وفى الحديث : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه الأمانى» «٢». وفى الحديث أيضا : «كفى بخشية اللّه علما ، وبالاغترار به جهلا».

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : وقت قيامها ، فلا يعلمه غيره ، فتأهبوا لها ، قبل أن تأتيكم بغتة. وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ : عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل ، أي : إن اللّه يثبت عنده علم الساعة ، وينزل الغيث فى وقته ، من غير تقديم ولا تأخير ، وفى محله ، على ما سبق فى التقدير ، ويعلم كم قطرة ينزلها ، وفى أي بقعة يمطرها.

وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ أذكر أم أنثى ، أتام أم ناقص ، وشقى أو سعيد ، وحسن أو قبيح. وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً من خير أو شر ، ووفاق وشقاق ، فربما كانت عازمة على الخير فعملت شرا ، أو على شر فعملت خيرا. وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أي : أين تموت ، فربما أقامت بأرض ، وضربت أوتادها ، وقالت :

لا أبرحها ، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها.

روى أن ملك الموت مرّ على سليمان عليه السّلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، فقال الرجل : من هذا؟ فقال :

ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى ، فسأل سليمان أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظرى إليه تعجبا منه ، لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند ، وهو عندك. هـ.

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

(٢) سبق تخريج الحديث عند إشارة الآيات : ٣٨ - ٤٠ من سورة العنكبوت.

وجعل العلم للّه والدراية للعبد ، لما فى الدراية من معنى التكسب والحيلة ، فهذه الأمور الخمسة قد اختص اللّه بعلمها. وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر فى المطالع ، وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا ، على أنه مجرد الظن ، والظن غير العلم. وعن ابن عباس : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

وجاءه يهودى منجم ، فقال : إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام ، وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول علىّ الحول حتى أموت. قال له : أين موتك؟ قال : لا أدرى ، فقال ابن عباس : صدق اللّه : ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. ورأى المنصور فى منامه ملك الموت ، وسأله عن مدة عمره ، فأشار بأصابعه الخمس ، فعبرها المعبرون بخمس سنين ، وبخمسة أشهر ، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة رضي اللّه عنه : هو إشارة إلى هذه الآية ، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا اللّه. هـ.

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى فى حاشيته : قيل : إن اللّه تعالى يعلم الأشياء بالوسم والرسم ، والرسم يتغير ، والوسم لا يتغير ، فقد أخفى اللّه تعالى الساعة ، ولم يخف أمارتها ، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه ، ولكن لا من كل وجوهه ، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره ، وبالجملة فعلم ما يكون من الخواص ، جملة لا تفصيلى ، وجزئى لا كلى ، ومقيد لا مطلق ، وعرضى لا ذاتى ، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلى : روى البخاري عن ابن عمر حديث مفاتح الغيب خمس : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. «١»

إلى آخر السورة .. ونقل ابن حجر عن ابن أبى جمرة ، بعد كلام ، ما نصه : والحكمة فى جعلها خمسة : الإشارة إلى حصر العوالم فيها ، ففى قوله : ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ : الإشارة إلى ما يزيد فى

الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر ، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة ، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها ، فغيرها بطريق الأولى. وفى قوله :

لا يعلم متى يأتى المطر : إشارة إلى أمور العالم العلوي ، وخص المطر مع أن له أسبابا قد تدل بجرى العادة على وقوعه ، لكنه من غير تحقيق. وفى قوله : «لا تدرى نفس بأى أرض تموت» : إشارة إلى أمور العالم السفلى ، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده ، ولكن ليس ذلك حقيقة ، وإن مات ببلده لا يعلم بأى بقعة يدفن فيها ، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه ، بل قبر أعده هو له.

وفى قوله : «ولا يعلم ما فى غد إلا اللّه» : إشارة إلى أنواع الزمان ، وما فيها من الحوادث ، وعبّر بلفظ (غد) لكون حقيقته أقرب الأزمنة إليه ، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه ، مع إمكان الأمارة والعلامة ، فما بعد

---

(١) أخرج حديث مفاتيح الغيب ، البخاري فى (الاستسقاء ، باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا اللّه ح ١٠٣٩).

عنه أولى. وفى قوله : «متى تقوم الساعة إلا اللّه» إشارة إلى علوم الآخرة ، فإن يوم القيامة أولها ، وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعد ، فجمعت الآية أنواع الغيوب ، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة.

وقد بيّن فى قوله تعالى :

فى الآية الأخرى ، وهى قوله : فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى .. «١» الآية ، أن الاطلاع على شىء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوقيف. هـ ملخصا.

والحاصل : أن العوالم التي اختص اللّه بها خمسة : عالم القيامة وما يقع فيه ، والعالم العلوي وما ينشأ منه ، وعالم الأرض وما يقع فيه ، وعالم الإنسان وما يجرى عليه ، وعالم الزمان وما يقع فيه. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ عليم بالغيوب ، خبير بما كان وبما يكون. وعن الزهري : أكثروا من قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب هـ.

الإشارة : يا أيها الناس المتوجهون إلى اللّه ، إنّ وعد اللّه بالفتح ، لمن أنهض همته إليه ، حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا بأشغالها ، عن النهوض إليها ، ولا يغرنكم بكرم اللّه الشيطان الغرور ، فيغركم بكرم اللّه ، ويصرفكم عن المجاهدة والمكابدة إذ لا طريق إلى الوصول إلا منهما ، إن اللّه عنده علم الساعة التي يفتح على العبد فيها ، وينزل غيث المواهب والواردات ، ويعلم ما فى أرحام الإرادة ، من تربية

المعرفة واليقين ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا من زيادة الإيمان ونقصانه ، وما تلقاه من المقادير الغيبية ، فيجب عليها التفويض والاستسلام ، وانتظار ما يفعل اللّه بها فى كل غد ، وما تدرى نفس بأى أرض من العبودية تموت فيها ، إن اللّه عليم خبير.

قال القشيري : فى قوله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ : خوّفهم ، تارة ، بأفعاله ، فيقول : اتَّقُوا يَوْماً «٢» ، وتارة بصفاته ، فيقول : أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى «٣» ، وتارة بذاته ، فيقول : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ «٤». هـ. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة الجن.

(٢) جاء فى آيات كثيرة ، منها الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٤ من سورة العلق.

(٤) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

سورة السّجدة

مكية ، وقيل : إلا قوله : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً «١» ، نزلت بالمدينة ، وهى ثلاثون آية ، أو : تسع وعشرون. ومناسبتها لما قبلها : قوله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ ... إلى آخر الآيات ، فإنها كالاستدلال على قيام الساعة ، التي خوّف بها فى ختم السورة بعد تقرير الرسالة. وقيل : المناسبة : هى ما بعد هذه من تبيين الرسالة ، التي هى مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد. وعن جابر أنه صلى اللّه عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : الم السجدة. وتَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، ويقول : «هما مفضلتان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة ، ومن قرأهما كتبت له سبعون حسنة ، ومحى عنه سبعون سيئة».

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

قلت : (تنزيل) : إما خبر عن (الم) ، إن جعل اسما للسورة ، أو : خبر عن محذوف ، أي : هذا تنزيل. أو : مبتدأ ، خبره : (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب) : خبر بعد خبر ، و(من رب العالمين) : خبر

ثالث. أو : خبر عن «تنزيل» ، و(لا ريب فيه) : معترض. والضمير فى (فيه) : راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لا ريب فى ذلك ، أي : كونه منزلا من رب العالمين ، و«أم» : منقطعة بمعنى : «بل».

يقول الحق جل جلاله : الم أيها المصطفى المقرب ، هذا الذي تتلوه هو تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ ، لأنه معجز للبشر ، ومثله أبعد شيء عن الريب ، وهو مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ لا محالة. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، أي : اختلقه محمد من عنده ، وهو إنكار لقولهم ، وتعجيب منه لظهور أمره فى عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى : بَلْ هُوَ الْحَقُّ الثابت مِنْ رَبِّكَ ، ولم تفتره ، كما زعموا تعنتا وجهلا ، أنزله عليك لِتُنْذِرَ قَوْماً أي : العرب ، ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى – عليهما السلام – لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى الصواب من الدين. والترجي مصروف إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما كان لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ «٢» مصروفا إلى موسى وهارون.

---

(١) الآية ١٨.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة طه.

الإشارة : (الم) الألف : ألف المحبون قربى ، فلا يصبرون عنى. اللام : لمع نورى لقلوب السائرين ، فزاد شوقهم إلىّ. الميم : ملك الواصلون ملكى وملكوتى ، فلا يغيبون عنى. تنزيل الكتاب ، إذا طال أمد لقاء الأحباب ، فأعزّ شيء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابى كتابى ، وحملت إليهم بالرسل خطابى ، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابى ، فإنهم منى فى أمان من عذابى. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، إنكار الأعداء على المحبين سنّة لازمة. فإن ألبس الحق على الأعداء فلا يضركم ، ولا عليكم ، فإنّ [صحبة] «١» الحبيب للحبيب ألذّ ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

ثم ذكر المقصود بالذات ، وهو الاستدلال على البعث ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٤ الى ٦]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى

عَلَى الْعَرْشِ أي : استولى بقهرية ذاته. وسئل مالك عنه ، فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء ، بل أمسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السؤال عنه بدعة. وسيأتى شيء فى الإشارة. ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ من دون اللّه مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أي : إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا ، أي : ناصرا ينصركم ، ولا شفيعا يشفع لكم ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ تتعظون بمواعظ اللّه.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي : أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى فى ملكه ، فهو كقوله : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «٢» ، أي : يبديه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلي ، الجزئى ، لا الكلى ، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، نازلة آثارها إلى الأرض. فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ من أيام الدنيا.

---

(١) فى الأصول : محبة ، والمثبت هو الذي فى القشيري ، وهو المناسب للسياق.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨٧

قال الأقليشى : جاء فى حديث : «إن بعد ما بين السماء والأرض ، وما بين سماء إلى سماء ، مسيرة خمسمائة سنة». وفى حديث آخر : «إن بين ذلك نيّفا وسبعين سنة» ، وإنما وقع الاختلاف فى ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة.

وان سرعة بعضها أكثر من سرعة بعض. كما يقول القائل : من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين للراجل. وعليه يخرج قوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ. وقال فى آية أخرى : خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١». وهكذا الوجود من علوه إلى سفله ، من الملائكة من يقطعه فى مدة ما ، ويقطعه غيره فى أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل : المعنى : أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر ، فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة ، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل : إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفا ، كل موقف ألف سنة. وقد حكى هذا ابن عطية ، فقال : يدبر الأمر فى مدة الدنيا ، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم القيامة : مقداره ألف سنة من عدّنا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهوله ، حسبما فى سورة المعارج. هـ.

قلت : والتحقيق ، فى الفرق بين الآيتين ، أن الحق تعالى ، حيث لم يختص بمكان دون مكان ، وكانت الأمكنة فى حقه تعالى كلها واحدة ، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته ، كان العروج إنما

هو إليه على كل حال ، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علق العروج بتدبير الأمور وتنفيذها ، قرّب المسافة ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة. ولمّا علّق عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بعّد المسافة زيادة فى علو شأنه ورفعة قدره.

وكل هذا العروج فى دار الدنيا. على قول من علّق (فى يوم) بتعرج فى سورة المعارج. فتأمله.

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ، أي : ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت ، وما شوهد فى عالم الحس من عجائب عالم الملك. الْعَزِيزُ الغالب أمره وتدبيره ، الرَّحِيمُ البالغ لطفه وتيسيره.

الإشارة : اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات ، قطعة من نور ذاته ، على ترتيب وتمهيل. فتجلى بالعرش ، ثم بالماء ، فكان عرشه على الماء ، ثم بالكرسي ، ثم بالأرض ، ثم بالسماوات ، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بنور صمدانى رحمانى من بحر جبروته ، استوى به على عرشه لتدبير ملكه ، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلي. ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه خلق آدم على صورته». وفى رواية : «على صورة الرحمن». وبذلك التجلي يتجلى يوم القيامة لفصل عباده ، ولرؤيته – باعتبار العامة – ، وهذا التجلي كله ، من جهة معناه ، متصل بسائر التجليات ،

---

(١) الآية ٤ من سورة المعارج. [.....]

جزئى من جهة تشكيله للمعنى الكلى ، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس : أن التجلي المستولى غير مرتد برداء الحس إذ لا عبودية فيه ، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء ، لأن كنزه ما زال مدفونا ، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل ، وسلّم ، إن لم تفهم ، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال ، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقة ، فتفهم أسرار التوحيد. وباللّه التوفيق.

ثم كمل ما بقي من أوصافه ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٧ الى ١٠]

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٩) وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠)

قلت : (الذي) : صفة للعزيز ، أو : خبر عن مضمر. ومن قرأ خَلَقَهُ بالفتح «١» فصفة لكل ، ومن سكّنه فبدل منه ، أي : أحسن خلق كل شيء.

يقول الحق جل جلاله فى وصف ذاته : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أي : أبدع خلق كل شيء ، أتقنه على وفق حكمته. أو : أتقن كل شيء من مخلوقاته ، فجعلهم فى أحسن صورة. ثم بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ آدم مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ذريته مِنْ سُلالَةٍ أي : نطفة مسلولة من سائر البدن ، مِنْ ماءٍ أي : منّى ، وهو بدل من سلالة ، مَهِينٍ ضعيف حقير. ثُمَّ سَوَّاهُ أي : سوّى صورته فى أحسن تقويم ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، أضافه إلى نفسه ، تشريفا ، إشارة إلى أنه خلق عجيب ، وأن له شأنا ومناسبة إلى حضرة الربوبية ، ولذلك قيل : من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم فى سورة الإسراء ، فى الكلام على الروح ، وجه المعرفة منه «٢». وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لتسمعوا كلامه ، وتبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته ، وتعقلوا ، فتعرفوا صانعكم ومدبر أمركم. قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي : تشكرون شكرا قليلا على هذه النعم لقلة التدبر فيها.

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي : «خلقه» بفتح اللام ، فعلا ماضيا ، وقرأ الباقون : بسكونها بدل من «كل» بدل اشتمال. انظر :
الإتحاف (٢/ ٣٦٦).

(٢) راجع إشارة الآية ٨٥ من سورة الإسراء. (٣/ ٢٢٨ - ٢٣٠).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨٩

وَقالُوا منكرين للبعث : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ، أي : صرنا ترابا ، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض ، لا نتميز منه ، كما يضل الماء فى اللبن. أو : غبنا فى الأرض بالدفن فيها ، يقال : ضلل كضرب ، وضلل كفرح. وانتصب الظرف فى (أ إذا) بقوله : أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أي : أنبعث ، ونجدد ، إذا ضللنا فى الأرض؟. والقائل لهذه المقالة أبيّ بن خلف ، وأسند إليهم لرضاهم بذلك ، بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ جاحدون. لمّا ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة ، لا بالبعث وحده. وقال المحشى : أي : ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة لأنهم يعترفون بقدرته ، ولكنهم اعتقدوا ألّا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون اللّه تعالى ، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل ما أظهر الحق تعالى : من تجلياته الكونية فهى فى غاية الإبداع والاتفاق فى أصل نشأتها

، كما قال صاحب العينية :

وكلّ قبيح ، إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع

يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ، ولا ثمّ باشع «١»

وأكملها وأعظمها : خلقة الإنسان ، الذي خلق على صورة الرحمن ، حيث جعل فيه أوصافه من قدرة ، وإرادة ، وعلم ، وحياة ، وسمع ، وبصر ، وكلام ، وهيأه لحضرة القدس ومحل الأنس ، وسخّر له جميع الكائنات ، وهيأه لحمل الأمانة ، إلى غير ذلك مما خص به عبده المؤمن. وأما الكافر فهو فى أسفل سافلين. قال الورتجبي : ذكر حسن الأشياء ، ولم يذكر هنا حسن الإنسان غيرة ، لأنه موضع محبته ، واختياره الأزلى ، كقول القائل :

وكم أبصرت من حسن ، ولكن عليك ، من الورى ، وقع اختياري

قال الواسطي : الجسم يستحسن المستحسنات ، والروح واحدية فردانية ، لا تستحسن شيئا. وقال ابن عطاء فى قوله : ثُمَّ سَوَّاهُ ... : قوّمه بفنون الآداب ، ونفخ فيه من روحه الخاص ، الذي ، به ، فضّله على سائر الأرواح ، لما كان له عنده من محل التمكين ، وما كان فيه من تدبير الخلافة ، ومشافهة الخطاب – بعد أن قال الورتجبي – : أخص الخصائص هو ما سقط من حسن تجلّى ذاته فى صورته ، كما ذكر بقوله : وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ. هـ.

ثم ذكر أمر اللقاء الذي أنكروه ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١١ الى ١٥]

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

---

(١) انظر النادرات العينية (٧٦ – ٧٧).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٠

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ بقبض أرواحكم فتموتون ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ بالبعث للحساب والعقاب. وهذا معنى لقاء اللّه الذي أنكروه. والتوفى : استيفاء الروح ،

أي : أخذها ، من قولك : توفيت حقى من فلان ، إذا أخذته وافيا من غير نقصان. وعن مجاهد : زويت الأرض لملك الموت ، وجعلت مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء «١». وعن مقاتل والكلبي : بلغنا أن اسم ملك الموت «عزرائيل» ، وله أربعة أجنحة : جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، والخلق بين رجليه ، ورأسه وجسده كما بين السماء والأرض ، وله الدنيا مثل راحة اليد ، فهو يقبض أنفس الخلائق بمشارق الأرض ومغاربها ، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وعن معاذ بن جبل : أن لملك الموت حربة ، تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وهو يتصفح وجوه الموتى ، فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين – وفى حديث آخر ، خمس مرات – فإذا رأى إنسانا قد انقضى أجله ضربه بتلك الحربة. وقال : الآن يزار بك عسكر الأموات «٢».

فإن قيل : ما الجمع بين قوله : تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا «٣» وتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ «٤» وقُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ وقوله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ «٥»؟ فالجواب : أن توفى الملائكة : القبض والنزع ، وتوفى ملك الموت الدعاء والأمر ، يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها ، ثم يذهبون بها إلى عليين. وقبض الحق تعالى : خلق الموت فيه. والحاصل : أنّ قبض الملك : المباشرة ، وقبض الحق : الإخراج حقيقة.

قال الورتجبي : قال الحسن : ملك الموت هو الموكل بأرواح بنى آدم ، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم. فانظر فيه. وأما حديث ملكى الموت والحياة ، فقال العراقي : لم أجد له أصلا. ويعنى بملك الحياة : كون الأرواح ، أنفاس ملك الحياة كما فى الإحياء. ومذهب أهل السّنة قاطبة : أن ملك الموت هو الذي يقبض جميع الأرواح ، من بني آدم

---

(١) أخرجه الطبري (٢١/ ٩٨).

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٣٠٢).

(٣) من الآية ٦١ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ٩٧ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٤٢ من سورة الزمر.

والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تقبض أرواحها أعوان ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت في حق غير بنى آدم ، إنما هو عدم محض ، كيبس الشجر وجفاف الثياب ، فلا قبض لأرواحها ، وهو أعلم من كونها تبعث ، أو : لا بأن

تعاد عن عدم ، بخلاف المكلف ، فإن روحه لا تعدم ، خلافا للملاحدة ، فإنهم جعلوا الموت كله عدما محضا ، كجفاف العود الأخضر ، وهو كفر.

هذا وقد اختلف فى كون الموت ضد الحياة ، فيكون معنى وجوديا ، أو هو عدم الحياة ، فيكون عدما ، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان ، منعّمة أو معذبة.

وَلَوْ تَرى يا محمد إِذِ الْمُجْرِمُونَ وهم الذين قالوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ... إلخ ، و«لو» و«إذ» للماضى ، وإنما جاز هنا لأن المترقّب محقق الوقوع. و(ترى) ، هنا ، تامة ، لا مفعول لها ، أي : لو وقعت منك رؤية إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ أي : وقت كون المجرمين ناكسى رؤوسهم من الذل والحياء والندم ، عِنْدَ رَبِّهِمْ عند حساب ربهم ، قائلين : رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا أي : صدّقنا الآن وعدك ووعيدك ، وأبصرنا ما حدّثتنا به الرسل ، وسمعنا منك تصديق رسلك ، فَارْجِعْنا إلى الدنيا نَعْمَلْ صالِحاً من الإيمان والطاعة ، إِنَّا مُوقِنُونَ بالبعث والحساب الآن. وجواب «لو» : محذوف ، أي : لرأيت أمرا فظيعا.

وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها أي : ما تهتدى به إلى الإيمان والطاعة ، أي : لو شئنا لأعطيناء فى الدنيا ، كل نفس ما عندنا من اللطف الذي ، لو كان منهم اختيار ذلك ، لاهتدوا. لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم : قد شاء اللّه أن يعطى كل نفس ما به اهتدت ، وقد أعطاها ، لكنها لم تهتد ، وأوّلوا الآية بمشيئة الجبر ، وهو فاسد.

قال تعالى : وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، أي : ولكن وجب القول منى لأعمرنّ جهنم من الجنّة والناس ، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفى تخصيص الجن والإنس : إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عمل يستوجبون به جهنم. وفى الآية ما يقتضى تخصيص أهل النار بالجن والإنس ، فيرد ما يذكر أنه كان قبل آدم أمم كفروا ، ولا يصح ذلك ، إلا أن يكونوا من الجن.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : باشروا وبال تركككم العمل للقاء يومكم هذا ، وهو الإيمان به. إِنَّا نَسِيناكُمْ : تركناكم فى العذاب ، وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي : العذاب الدائم الذي لا انقطاع له بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي.

ثم ذكر ضدهم بقوله : إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا القرآن الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً سجدوا للّه تواضعا وخشوعا ، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : نزّهوا اللّه عما لا يليق به ،

وأثنوا عليه حامدين له ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن الإيمان والسجود له. جعلنا اللّه منهم بمنّه ، آمين.
الإشارة : أهل الفرق من أهل الحجاب ، يتوفاهم ملك الموت ، وأهل الجمع مع اللّه من أهل العيان يتولى قبض أرواحهم ذو الجلال الإكرام كما قيل في الأخفياء من الأولياء الذين اختص اللّه تعالى بعلمهم – أنه يتولى قبض أرواحهم بيده ، فتطيب أجسادهم به ، فلا يعدوا عليها الثرى ، حتى يبعثوا بها ، مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ، بالرجوع إليه من الفناء ، فيكون بقلوبهم بقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. وقد ورد فى الخبر : «من واظب على قراءة آية الكرسي ، دبر كل صلاة ، كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال الإكرام». يعنى : من تدبر معناها.
والمراد بذلك خطفتها بالتجلى ، واستغراقها فى الشهود ، وغيبتها عن الغير فى ذلك الوقت الهائل ، فيغيب عن الواسطة فى شهود الموسوط ، مع وجود الواسطة لعموم الآية. واللّه تعالى أعلم.
قال القشيري : لو لا غفلة القلوب لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت لأنّ ملك الموت لا أثر منه فى أحد ، وما يحصل فى التوفّى فمن خصائص قدرة الحق ، ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ ، فخاطبهم على قدر أفهامهم ، وعلّق بالأغيار قلوبهم. وكلّ يخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال فى قوله : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ .. الآية : ملكتهم الدهشة وغلبتهم الحجة ، فاعترفوا ، حين لا عذر ، واعترفوا ، حين لا اعتراف. هـ.
قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ... قال القشيري : لو شاء سهّل سبيل الاستدلال ، وأدام التوفيق لكلّ أحد ، ولكن تعلّقت المشيئة بإغواء قوم ، وأردنا أن يكون للنار قطان ، كما يكون للجنة سكان ، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قوم وقوم. فمن المحال أن نريد ارتفاع معلومنا ، إذ لو لم يقع ، ولم يحصل لم يكن علما. فإذا لا أكون إلها. ومن المحال أن أريد ذلك. ويقال : من يتسلّط عليه من يحبه لم يجد فى ملكه ما يكرهه. يا مسكين أفنيت عمرك فى النكد والعناء ، وأمضيت أيامك فى الجهد والرجاء ، غيّرت صفتك ، وأكثرت مجاهدتك ، فما تفعل فيما مضى ، كيف تبدله؟ وما تصنع فى مشيئتى ، وبأى وسع تردّها؟ وأنشدوا :

شكا إليك ما وجد من خانه فيك الجلد
حيران ، لو شئت ، اهتدى ظمآن ، لو شئت ، ورد. «١». هـ.

---

(١) البيتان لأبى هبة اللّه بن المنجم ، كما فى يتيمة الدهر (٣/ ٣٨٩).

قوله تعالى : إِنَّما يُؤْمِنُ .... الآية ، خروا سجدا بظواهرهم فى التراب ، وبسرائرهم بالخضوع لهيبة الكريم الوهاب ، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب ، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد اللّه ، كانت وسيلة بلا غاية. وباللّه التوفيق.

ثم وصف أهل الخضوع ، وما أكرمهم به ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٦ الى ١٧]

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : تَتَجافى أي : ترتفع وتتنحى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ عن الفرش ومواضع النوم للصلاة والذكر. قال سهل : وهب لقوم هبة ، وهو أن أذن لهم فى مناجاته ، وجعلهم من أهل وسيلته ، ثم مدحهم عليه فقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، يَدْعُونَ أي : داعين رَبَّهُمْ خَوْفاً ، أي : لأجل خوفهم من سخطه ، وَطَمَعاً فى رحمته ، وهم المجتهدون أو المتفكرون فى الليل. وسيأتى فى الإشارة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم فى تفسيرها : «هو قيام العبد من الليل» «١». وعن ابن عطاء : أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة ، وطلبت بساط القربة ، وعن أنس : كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة ، فنزلت فيهم «٢».

وقال ابن عمر رضي اللّه عنه : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من عقب – أي : أحيا – ما بين المغرب والعشاء بنى له فى الجنة قصران مسيرة عام ، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهى صلاة الأوابين ، وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يرد : الدعاء ما بين المغرب والعشاء» «٣». هـ.

وقيل : هم الذين يصلّون العتمة ، ولا ينامون عنها.

وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فى طاعة اللّه ، يعنى : أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ أي : لا يعلم أحد ما أعد اللّه لهم من الكرامة ، مما تقرّ به العين من نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب : «أخفى» على المضارع. جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وعن الحسن : أخفى القوم أعمالهم فى الدنيا فأخفى اللّه لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا. قاله النسفي.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١٢) ، والطبري فى تفسيره (٢١/ ١٠٣) ، من حديث معاذ بن جبل رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢١/ ١٠٠).

(٣) عزاه فى كنز العمال (ح ١٩٤٥٠) لابن مردويه ، عن ابن عمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٤

وفى حديث أسماء ، عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا جمع اللّه الأوّلين والآخرين ، يوم القيامة ، جاء مناد ينادى بصوت يسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع ، اليوم ، من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه ، فيقومون ، وهم قليل. ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون اللّه فى السراء والضراء ، فيقومون ، وهم قليل ، يسرحون جميعا إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» «١». وفى البخاري عن أبى هريرة رضي اللّه عنه قال صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه – عز وجل – : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، قال أبو هريرة : واقرأوا ، إن شئتم : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» «٢».

وقال فى «البدور السافرة» : أخرج الترمذي ، عن أبى سعيد الخدري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ فى الجنّة مائة درجة ، لو أنّ العالمين اجتمعوا فى إحداهنّ لو سعتهم». «٣». هـ. وقال ابن وهب : أخبرنى عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عتبة بن عبيد ، الضبي ، يذكر عمن حدّثه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إن فى الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين ما بين السماء والأرض ، أول درجة منها دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها ، من فضة ، والدرجة الثانية :

دورها وبيوتها وسررها ومغاليقها من ذهب ، والدرجة الثالثة : دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد. وسبع وتسعون درجة ، لا يعلم ما هى إلا اللّه تعالى» «٤». هـ.

وقيل : المراد بقرة الأعين : النظر إلى وجه اللّه العظيم. قلت : قرة عين كل واحد : ما كان بغيته وهمّته فى الدنيا ، فمن كانت همته القصور والحور ، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك ، ومن كانت بغيته وهمته النظرة ، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك ، على الدوام. قال أبو سليمان : شتان بين من همّه القصور والحور ، ومن همه الحضور ورفع الستور. جعلنا اللّه من خواصهم. آمين.

الإشارة : قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية ، وهم العبّاد والزهاد من الصالحين ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من نعيم القصور ، والحور ، والولدان ، وغير ذلك. وقوم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة ، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية ، ثم عن مضاجع الفرق ، إلى حال

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٣/ ١٦٩ ح ٣٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة ح ٣٢٤٤) ، ومسلم فى (الجنة

وصفة نعيمها ، ٤/ ٢١٧٤ ، ح ٢٨٢٤). [.....]

(٣) أخرجه الترمذي في (صفة الجنة ، باب في صفة درجات الجنة ، ٤/ ٥٨٣ ، ح ٢٥٣٢).

(٤) أخرج الطبري نحوه في التفسير (٢١/ ١٠٥) عن أبي اليمان الهذلي ، والجزء الأول من الحديث أخرجه البخاري في (الجهاد ، باب درجات المجاهدين في سبيل اللّه ح ٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه بلفظ : «إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهد في سبيل اللّه ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ...» الحديث.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٥

الجمع ، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهولاء على صلاتهم دائمون ، وفي حال نومهم عابدون ، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون ، وفي معاريج بحر عرفانهم سائحون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهؤلاء من دوام النظرة ، والعكوف في الحضرة ، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية ، سرية خفية عن الكرام الكاتبين ، بين فكرة وشهود وعبرة واستبصار ، الذرة منها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، وقد ورد : (تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة). هذا تفكر الاعتبار ، وأما تفكر الشهود والاستبصار ، فكل ساعة ، أفضل من ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبي قدره كألف حجّه

أي : سنة ، ومع هذا لا يخلون أوقاتهم من العبادة الحسية ، شكرا ، وقياما بآداب العبودية ، وهي في حقهم كمال ، كما قال الجنيد : عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفي مثل هولاء ورد الخبر : «إن أهل الجنة بينما هم في نعيمهم ، إذ سطع عليهم نور من فوق ، أضاءت منه منازلهم ، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فنظروا إلى رجال من فوقهم ، أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء ، وقد فضّلوا عليهم في الأنوار والنعم ، كما فضل القمر على سائر النجم ، فينظرون إليهم ، يطيرون على نجب ، تسرح بهم في الهواء ، يزورون ذا الجلال الإكرام ، فينادون هؤلاء : يا إخواننا ، ما أنصفتمونا ، كنا نصلي كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، فما هذا الذي فضلتمونا به؟ فإذا النداء من قبل اللّه تعالى : كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويعطشون حين تروون ، ويعرون حين تكسون ، ويذكرون حين تسكتون ، ويبكون حين تضحكون ، ويقومون حين تنامون ، ويخافون حين تأمنون ، فلذلك فضّلوا عليكم اليوم.

فذلك قوله تعالى : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون». هـ.

قال القشيري : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، في الظاهر ، عن الفراش ، قياما بحقّ العبادة والجهد

والتهجد ، وفى الباطن : بتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال ، ورؤية قدر النفس ، وتوهم المقام لأن ذلك بجملته ، حجاب عن الحقيقة ، وهو للعبد سمّ قاتل ، فلا يساكنون أعمالهم ، ولا يلاحظون أحوالهم ، ويفارقون مآلفهم ، ويهجرون معارفهم. والليل زمان الأحباب ، قال اللّه تعالى : لِتَسْكُنُوا فِيهِ «١» يعنى : عن كلّ شغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبوبكم ، والنهار زمان أهل الدنيا. قال اللّه تعالى : وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً «٢» .. انظر بقية كلامه.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة القصص.

(٢) من الآية (١١) من سورة النبأ.

ثم بيّن أن من كان فى نور الطاعة والإحسان ، ليس كمن كان فى ظلمة الكفر والعصيان ، فقال.

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً باللّه ورسله كَمَنْ كانَ فاسِقاً خارجا عن الإيمان ، لا يَسْتَوُونَ أبدا عند اللّه تعالى. وأفرد ، أولا مراعاة للفظ «من» ، وجمع ثانيا مراعاة لمعناها. ثم فصّل حالهم بقوله : أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى أي : المسكن الحقيقي ، وأما الدنيا ، فإنها منزل انتقال وارتحال ، لا محالة ، وقيل : المأوى : جنة من الجنان. قال ابن عطية : سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوى إليها. هـ. أي : فى الدنيا لأنها فى حواصل طير خضر ، كما ورد فى الشهداء ، وأما الصدّيقون فإنها تشكل على صور أجسادها ، تسرح حيث شاءت. نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : عطاء معجلا بأعمالهم. والنزل :

ما يقدم للنازل ، ثم صار عاما.

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : هى ملجأهم ومنزلهم ، كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها ، فلا خروج منها ، ولا موت ، وَقِيلَ لهم : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، هذا دليل على أن المراد بالفاسق : الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزى : فإن قيل : لم وصف ، هنا ، العذاب ، وأعاد عليه الضمير ، ووصف ، فى سبأ ، النار وأعاد عليها الضمير ، فقال : عَذابَ النَّارِ الَّتِي

كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ «١»؟

فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول : أنه خص العذاب فى السجدة بالوصف اعتناء به لمّا تكرر ذكره فى قوله :

لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ .. ، الثاني : أنه تقدم فى السجدة ذكر النار ، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمر ، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر ، فكما لا يوصف المضمر لم يوصف ما قام مقامه ، وهو النار ، فوصف العذاب ، ولم يصف النار ، الثالث – وهو الأقوى : أنه امتنع فى السجدة وصف النار ، فوصف

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة سبأ.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٧

العذاب ، وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها ، فإنك إذا ذكرت شيئا ثم كررت ذكره لم يجز وصفه ، كقولك : رأيت رجلا فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يوهم أنه غيره. هـ.

الإشارة : أفمن كان مصدقا بطريق الخصوص ، داخلا فيها ، شاربا من خمرتها ، كمن كان فاسقا خارجا عنها ، مشتغلا بنفسه ، غريقا فى هواه ، لا يستوون أبدا. أما الذين آمنوا بها ، وصدقوا أهلها ، ودخلوا فى تربيتهم ، فلهم جنات المعارف ، هى مأواهم ومعشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون ، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم ، فمأواهم نار القطيعة ، وعذاب الحرص ، وغم الحجاب ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم : ذوقوا وبال الإنكار ، وحرمان الخصوصية ، التي كنتم بها تكذبون.

قال القشيري : هذا ما يلقون يوم القيامة ، ثم ذكر ما يعجل لهم فى الدنيا ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى أي : عذاب الدنيا من القتل ، والأسر فى بدر ، أو ما محنوا به من السّنة ، سبع سنين. دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ أي : قبل عذاب الآخرة ، الذي هو أكبر ، وهو الخلود فى النار. وعن الداراني : العذاب الأدنى : الخذلان ، والعذاب الأكبر : الخلود فى النيران. وقيل : الأدنى : عذاب القبر ، والأكبر : النار. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ يتوبون عن الكفر.

وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنْ ذُكِّرَ أي : وعظ بِآياتِ رَبِّهِ القرآن ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها أي : تولى عنها ، ولم يتدبر فى معناها. و«ثم» للاستبعاد فإن الإعراض عن مثل هذه فى ظهورها ، وإنارتها ، وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى ، بعد التذكر بها ، مستبعد فى العقل ، كما تقول لصاحبك : وجدت تلك الفرصة ثم لم تنتهزها – استبعادا لتركه الانتهاز. إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ، ولم يقل : «منه» ، تسجيلا عليه بإعراضه بالإجرام ، ولأنه إذا جعله أظلم من كل ظالم ، ثم توعد المجرمين ، عامة ، بالانتقام ، دلّ على إصابة الأظلم أوفر نصيب من الانتقام ، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

الإشارة : ولنذيقن أهل الغفلة والحجاب ، من العذاب الأدنى ، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع ، قبل العذاب الأكبر ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب. قال القشيري : قوم : الأدنى لهم : محن الدنيا ، والأكبر : عقوبة العقبى.

(٣٩٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٨

وقوم : الأدنى لهم : فترة تداخلهم فى عبادتهم ، والأكبر : قسوة تصيبهم فى قلوبهم. وقوم : الأدنى لهم : وقفة مع سلوكهم تمسهم ، والأكبر : حجبة عن مشاهدتهم بسرهم – قلت : الأول فى حق العوام ، والثاني : فى حق الخواص ، وهم العباد والزهاد. والثالث : فى حق أهل التربية من الواصلين – ثم قال : ويقال : الأدنى : الخذلان فى الزلة ، والأكبر : الهجران فى الوصلة. ويقال : الأدنى : تكدّر مشاربهم ، بعد صفوها ، والأكبر : تطاول أيام الحجب ، من غير تبيين آخرها. وأنشدوا :

تطاول بعدنا ، يا قوم ، حتى لقد نسجت عليه العنكبوت «١»

هـ. ببعض المعنى.

أذقناهم ذلك لعلهم يرجعون إلى اللّه ، فى الدنيا بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يذكّرهم باللّه من الداعين إلى اللّه ، ثم أعرضوا عنه ، فلا أحد أظلم منهم ، ولا أعظم جرما. إنا من المجرمين منتقمون.

ولمّا قرر الأصول الثلاثة الرسالة ، وبدء الخلق ، والمعاد ، عاد إلى الأصل الذي بدأ به ، وهو الرسالة ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ شك مِنْ لِقائِهِ من لقاء موسى

الكتاب ، أو : من لقائك موسى ليلة المعراج ، أو : يوم القيامة ، أو : من لقاء موسى ربّه فى الآخرة ، كذا عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ وجعلنا الكتاب المنزّل على موسى عليه السّلام هدى لقومه ، وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ الناس ، ويدعون إلى اللّه وإلى ما فى التوراة من دين اللّه وشرائعه ، بِأَمْرِنا إياهم بذلك ، أو بتوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم ، لَمَّا صَبَرُوا على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو : على طاعة اللّه وترك معصيته. وقرأ الأخوان : بكسر اللام ، أي : لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها.

وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس والتقدم فى الخير. وَكانُوا بِآياتِنا التوراة يُوقِنُونَ

---

(١) فى القشيري :

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٩

يعلمون علما لا يخالجه شك ولا وهم لإمعانهم النظر فيها ، أو : هبة من اللّه تعالى. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ يقضى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : بين الأنبياء وأممهم ، أو : بين المؤمنين والمشركين ، فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من الدين ، فيظه المحقّ من المبطل.

الإشارة : أئمة الهدى على قسمين : أئمة يهدون إلى شرائع الدين ، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين ، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان ، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون : من عامة أهل اليمين ، والآخرون : من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم ، والآخرون صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس ، حتى وردوا حضرة القدّوس. قال القشيري ، فى شأن القسم الثاني : لمّا صبروا على طلبنا سعدوا بوجودنا ، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى متّبعيهم ، وانبسط شعاع شموسهم على جميع أهليهم ، فهم للخلق هداة ، وفى الدين عيون ، وللمسترشدين نجوم. هـ.

وفى الإحياء : للإيمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر : الصبر. والمراد باليقين : المعارف القطيعة ، الحاصلة بهداية اللّه عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر ، العمل بمقتضى اليقين إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ .. ، قال القشيري : يحكم بينهم ، فيبين المقبول من المردود ، والمهجور من الموصول ، والرّضى من الغوىّ ، والعدو من

الوليّ. فكم من بهجة دامت هناك! وكم من مهجة ذابت كذلك. هـ.

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٦]

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)

قلت : فاعل «يهد» : هو اللّه ، بدليل قراءة زيد عن يعقوب «نهد» بالنون ، ولا يجوز أن يكون الفاعل «كم» لأن الاستفهام له صدر الكلام ، فلا يعمل فيه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي : يبين لهم اللّه تعالى ما يعتبرون به ، فينظروا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، يَمْشُونَ يعنى : قريشا ، فِي مَساكِنِهِمْ حين

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٠

يمرون على ديارهم ، ومنازلهم ، خاوية ، فى متاجرهم إلى الشام ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دالة على قدرتنا ، وقهريتنا أَفَلا يَسْمَعُونَ المواعظ ، فيتعظون بها؟.

الإشارة : قال القشيري : لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا فى حبرة ، فصاروا فى عبرة ، كانوا فى سرور ، فآلوا إلى ثبور ، فجميع ديارهم وتراثهم صارت لأغيارهم ، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا فى ظلالهم ، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وفى مثلهم قيل :

نعم ، كانت على قو م زمانا ، ثم فاتت ،

هكذا النعمة والإح سان قد كانت وكانت. هـ. «١»

ثم ذكّرهم بآثار قدرته ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٧ الى ٣٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ : المطر إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ أي : التي جرز نباتها ، أي : قطع ، ولم يبق منه شيء إما لعدم الماء ، أو لأنه رعى. يقال : جرزت الجراد الزرع إذا استأصلته ، وفى القاموس : وأرض جرز : لا تنبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر. ثم قال : وأرض جارزة : يابسة غليظة ، وفيه أربع لغات : جرز وجرز وجرز وجرز. ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ : جرز ، بدليل

قوله : فَنُخْرِجُ بِهِ أي : بالماء ، زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أي : الزرع ، أَنْعامُهُمْ كالتبن والورق ، وَأَنْفُسُهُمْ كالحب والتمر ، والمراد بالزرع :
كل ما يزرع ويستنبت ، أَفَلا يُبْصِرُونَ ، فيستدلون به على قدرته على إحياء الموتى؟.

---

(١) ورد البيتان :
نعم ، كانت على قو م زمانا ، ثم بانت ،
هكذا النعمة والإنسان مذ كان وكانت.
وانظر : محاضرات الأدباء ص ٢٥٩.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠١
وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ أي : النصر ، أو الفصل بالحكومة من قوله : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا «١». وكان المسلمون يقولون : إن اللّه سيفتح لنا على المشركين ، أو يفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون ، قالوا : متى هذا الفتح؟ أي : فى أي وقت يكون إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنه كائن؟.
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ أي : يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو : يوم نصرهم عليهم. أو : يوم بدر ، أو يوم فتح مكة ، لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ لفوات محله ، الذي هو الإيمان بالغيب ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ يمهلون ، وهذا الكلام لم ينطبق جوابا عن سؤالهم ظاهرا ، ولكن لمّا كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم ، على وجه التكذيب والاستهزاء ، أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم من سؤالهم ، فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا ، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم ، فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم عند درك العذاب فلم تمهلوا. ومن فسره بيوم بدر أو بيوم الفتح ، فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال الفعل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند درك الغرق. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ النصر وهلاكهم ، إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الغلبة عليكم وهلاككم.
قال عليه الصلاة والسلام : «من قرأ الم تَنْزِيلُ فى بيته ، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام» «٢».
الإشارة : أو لم يروا أنا نسوق الماء الذي تحيا به القلوب على يد المشايخ ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة ، فنخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح ، تأكل منه ، من لذة حلاوته ، جوارحهم وقلوبهم ، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء : متى هذا الفتح ، إن كنتم صادقين فى أنه موجود؟ قال : يوم الفتح الكبير – وهو يوم يرفع اللّه أولياءه فى أعلى عليين – لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية ، فى دار الدنيا ، إيمانهم فى الالتحاق بهم ، ولا هم يمهلون حتى يعملوا مثل عملهم ، فأعرض عنهم

اليوم ، واشتغل باللّه ، وانتظر هذا اليوم ، إنهم منتظرون لذلك.
قال القشيري : «أولم يروا ..» الآية. الإشارة فيه : نسقى حدائق [وصلهم] «٣» ، بعد جفاف عودها ، فيعود عودها مورقا بعد ذبوله ، حاكيا حاله حال حصوله ، (و يقولون متى هذا الفتح ..) استبعدوا يوم التلاق ، وجحدوه ، فأخبرهم

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٢) قال ابن حجر فى الكافي الشاف (ح ١٩٦) : «لم أجده». وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٩٢٦).
(٣) فى الأصول المخطوطة (وصفهم) والمثبت هو الذي فى لطائف الإشارات.

أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه. قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. أي : باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا ، وانتظر زوائد وصلنا وعوائد لطفنا ، إنهم منتظرون هواجم مقتنا وخفايا مكرنا. وعن قريب وجد كلّ منتظره محتضرا هـ. وباللّه التوفيق ، وصلى اللّه على سيدنا محمد ، عين الوصول إلى التحقيق ، وعلى آله المبينين سواء الطريق ، وسلم.

سورة الأحزاب
مدنية. وهى ثلاث وسبعون – بتقديم السين – آية. وعن أبىّ أنه قال : كم تعدون سورة الأحزاب؟ قالوا : ثلاثا وسبعين ، قال : فوالذى يحلف به أبىّ إن كانت لتعدل سورة البقرة ، أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة ، إذا زنيا ، فارجموهما البتّة نكالا من اللّه ، واللّه عزيز حكيم «١». أراد أبىّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. انظر النسفي. ومناسبتها لما قبلها : أن الفتح إنما يكون مع التقوى ، فأمره بها ، بعد أمره بانتظار نصره ، كأنه قيل : يا أيها النبي اتق اللّه تر الفتح طوع يدك.
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١ الى ٣]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ

مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ أي : المشرّف حالا ، المفخم قدرا ، العلى رتبة لأن النبوة مشتقة من النّبوة ، وهو الارتفاع. أو : يا أيها المخبر عنا ، المأمون على وحينا ، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا.

وإنما لم يقل : يا محمد ، كما قال : «يا آدم ، يا موسى» تشريفا وتنويها بفضله ، وتصريحه باسمه فى قوله : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ «٢» ، ونحوه ، ليعلم الناس بأنه رسول اللّه. اتَّقِ اللَّهَ أي : اثبت على تقوى اللّه ، وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ لا تساعدهم على شيء ، واحترس منهم فإنهم أعداء للّه وللمؤمنين.

روى أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبا الأعور السّلمى ، نزلوا المدينة على ابن أبىّ ، رأس المنافقين ، بعد أحد ، وقد أعطاهم النبىّ صلى اللّه عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد اللّه بن أبى سرح ، وطعمة بن

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤١٥) وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٤٣٥٢) ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٣٤٥) لعبد الرزاق فى المصنف ، والطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وعبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن منيع ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والدارقطني فى الأفراد ، وابن مردويه ، عن زر ، عن أبىّ.

(٢) كما جاء فى الآية ٢٩ من سورة الفتح.

أبيرق ، فقالوا للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات ، والعزى ، ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربّك. فشق على النبي صلى اللّه عليه وسلم قولهم ، فقال عمر : ائذن لنا ، يا رسول اللّه ، فى قتلهم ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إنى قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر : اخرجوا فى لعنة اللّه وغضبه ، فخرجوا من المدينة ، فنزلت «١».

أي : اتق اللّه فى نقض العهد ، ولا تطع الكافرين من أهل مكة ، كأبى سفيان وأصحابه ، والمنافقين من أهل المدينة ، فيما طلبوا ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بخبث أعمالهم ، حَكِيماً بتأخير الأمر بقتالهم.

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فى الثبات على التقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو : كل ما يوحى إليك من ربك ، إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أي : لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم. وقيل : إنما جمع لأن المراد بقوله : «اتبع» : هو وأصحابه ، وقرأ بالغيب : أبو عمرو ، أي : بما يعمل

الكافرون والمنافقون ، من كيدهم لكم ومكرهم. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره. وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا حافظا موكولا إليه كل أمر. وقال الزجاج : لفظه ، وإن كان لفظ الخبر فالمعنى : اكتف باللّه وكيلا.

الإشارة : أمر بتقوى اللّه ، وبالغيبة عما يشغل عن اللّه ، وبالتوكل على اللّه ، فالتقوى أساس الطريق ، والغيبة عن الشاغل : سبب الوصول إلى عين التحقيق ، والتوكل زاد رفيق. قال القشيري بعد كلام : يا أيها المرقّى إلى أعلى المراتب ، المتلقّى بأسنى القرب والمناقب اتق اللّه أن تلاحظ غيرا معنا ، أو تساكن شيئا دوننا ، أو تثبت شيئا سوانا ، وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ إشفاقا منك عليهم ، وطمعا فى إيمانهم ، بموافقتهم فى شىء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء ، تمنعهم ، فى أنفاسهم وسكناتهم وحركاتهم ، أن ينظروا إلى غيره ، أو يثبتوا معه سواه ، إلا منصوبا بقدرته ، مصرّفا بمشيئته ، نافذا فيه حكم قضيته.

التقوى لجام يمنعك عمّا لا يجوز ، زمام يقودك إلى ما تحب ، سوط يسوقك إلى ما أمر به ، حرز يعصمك من توصل عقابه إليك ، عوذة تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلة إلى ساحة كرمه ، ذريعة يتوصّل بها إلى عفوه وجوده. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ ... لا تبتدع ، واقتد بما نأمرك ، ولا تقتد ، باختيارك ، غير ما نختار لك ، ولا تعرّج – أي : تقم – فى أوطان الكسل ، ولا تجنح إلى ناحية التواني ، وكن لنا لا لك ، وقم بنا لا بك. «وتوكل» انسلخ عن إهابك لنا ، واصدق فى إيابك إلينا ، وتشاغلك عن حسبانك معنا ، واحذر ذهابك عنا ، ولا تقصّر فى خطابك معنا. ويقال : التوكل : تخلّق ، ثم تخلّق ، ثم توثّق ، ثم تملّق تحقق فى العقيدة ، وتخلق بإقامة الشريعة ، وتوثّق بالمقسوم من القضية ، وتملق بين يديه بحسن العبودية. ويقال : التوكل : استواء القلب فى العدم والوجود. هـ.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٦٤) ، والبغوي فى تفسيره (٦/ ٣١٥) ، بدون إسناد.

والتقوى محلها القلب ، ولا يحصل منتهاها إلا بانفراد القلب إلى مولاه ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤ الى ٥]

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ

وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥)

يقول الحق جل جلاله : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر ، أو : يتقى بأحدهما ويعصى بالآخر ، أو : يقبل على اللّه بأحدهما ويقبل على الدنيا بالآخر ، بل ما للعبد إلا قلب واحد ، إن أقبل به على اللّه أدبر عمن سواه ، وإن أقبل به على الدنيا أدبر عن اللّه. قيل : الآية مثل للمنافقين ، أي : إنه لا يجتمع الكفر والإيمان ، وقيل : لا تستقر التقوى ونقض العهد فى قلب واحد. وقال ابن عطية : يظهر من الآية ، بجملتها ، أنها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر فيها ، فمنها : أن العرب كانت تقول : الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه ، وكان تضادّ الخواطر يحملها على ذلك .. إلخ كلامه.

قال النسفي : والمعنى : أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين لأنه لا يخلو : إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك ، فيؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها ، عالما ظانا ، موقنا شاكا ، فى حالة واحدة. هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضا أن المرأة المظاهر منها : أمّا ، فردّ ذلك بقوله : وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ أي : ما جمع الزوجية والأمومة فى امرأة واحدة لتضاد أحكامهما لأن الأم مخدومة ، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدّعى ابن ، فرّد عليهم بقوله : وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ أي : لم يجعل المتبنّى من أولاد الناس ابنا لمن تبناه لأن البنوة أصالة فى النسب ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية ، لا غير ، ولا يجتمع فى شىء واحد أن يكون أصيلا [و] «١» غير أصيل.

---

(١) زيادة ، ليست فى الأصول. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٦

ونزل هذا فى «زيد بن حارثة» ، وهو رجل من كلب ، سبى صغيرا ، فاشتراه حكيم بن حزام ، لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهبته له ، فطلبه أبوه وعمه ، وجاءا بفدائه ، فخيّر ، فاختار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه. وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج النبىّ صلى اللّه عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد – على ما يأتى – قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه ، فأنزل اللّه هذه الآية.

وقيل : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان ، قلب معكم ، وقلب مع أصحابه «١». وقيل : كان

«أبو معمر» أحفظ العرب ، فقيل له : ذو القلبين «٢» ، فأكذب اللّه قولهم. والتنكير فى رجل ، وإدخال «من» الاستغراقية على (قلبين) ، وذكر الجوف للتأكيد. و(اللائي) : جمع «التي». وفيها أربع قراءات : «اللاء» بالهمزة مع المد والقصر ، وبالتسهيل ، وبالياء ، بدلا من الهمز. وأصل تُظاهِرُونَ : تتظاهرون ، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف من : ظاهر. ومعنى الظهار : أن يقول للزوجة : أنت علىّ كظهر أمي. مأخوذ من الظهر ، وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا فى الجاهلية. وهو فى الإسلام يقتضى الحرمة حتى يكفّر ، كما يأتى فى المجادلة. والأدعياء : جمع دعى ، فقيل : بمعنى مفعول ، وهو الذي يدعى ولدا ، وجمعه على أفعلاء : شاذ لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء ، وشقى وأشقياء. ولا يكون فى ذلك فى نحو رميّ وسمى ، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعيل بمعنى فاعل ، فجمع جمعه.

ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ إذ أن قولكم للزوجة : أما ، والدعىّ : هو ابن ، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له إذ الابن يكون بالولادة ، وكذا الأم. وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ما له حقيقة عينية ، مطابقة له ظاهرا وباطنا.

وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ سبيل الحق.

ثم بيّن ذلك الحقّ ، وهدى إلى سبيله ، فقال : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ انسبوهم إليهم. هُوَ ، أي : الدعاء ، أَقْسَطُ أعدل عِنْدَ اللَّهِ. بيّن أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى العدل. وقيل : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل ضمّه إليه ، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده ، من ميراثه. وكان ينسب إليه ، فيقال : فلان بن فلان. فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ أي : فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ،

---

(١) هذا معنى ما أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٦٨) والترمذى ، وحسنه ، فى (التفسير ، باب : ومن سورة الأحزاب ، ٥/ ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ح ٣١٩٩) والطبرى (٢١/ ١١٨) والحاكم (٢/ ٤١٥) عن ابن عباس رضي الله عنه. وصححه الحاكم ، وفيه «قابوس بن أبى ظبيان» قال الذهبى : قابوس ، ضعيف.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول/ ٣٦٥. بدون إسناد.

فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ أي : فهم إخوانكم فى الدين ، وأولياؤكم فيه. فقولوا : هذا أخى ، وهذا مولاى ، ويا أخى ، ويا مولاى ، يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ

أي : لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك ، مخطئين جاهلين ، قبل ورود النهى ، أو بعده ، نسيانا. وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أي : ولكن الإثم فيما تعمّدتموه بعد النهى. أو : لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم : يا بنىّ ، على سبيل الخطأ ، أو : الشفقة ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً لا يؤاخذكم بالخطأ ، ويقبل التوبة من المتعمّد.

الإشارة : العبد إنما له قلب واحد ، إذا أقبل به على مولاه أدبر عن ما سواه ، وملأه اللّه تعالى بأنواع المعارف والأسرار ، وأشرقت عليه الأنوار ، ودخل حضرة الحليم الغفار ، وإذا أقبل به على الدنيا أدبر عن اللّه ، وحشى بالأغيار والأكدار ، وأظلمت عليه الأسرار ، وطبع فيه صور الكائنات ، فحجب عن المكوّن ، وكان مأوى للخواطر والوساوس ، فلم يسو عند اللّه جناح بعوضة. قال القشيري : القلب إذا اشتغل بشىء اشتغل عما سواه ، فالمشتغل بما من العدم منفصل عمن له القدم ، والمتصل بقلبه بمن نعته القدم مشتغل عمّا من العدم ، والليل والنهار لا يجتمعان ، والغيب والغير لا يلتقيان. هـ.

وقوله تعالى : وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ ... الآية ، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أنّ من ظاهر الدنيا ، وتباعد عنها لا يحل له أن يرجع ، ويتخذها أما فى المحبة والخدمة. وقوله تعالى : وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ .. :

تشير إلى أنه لا يحل أن يدّعى الفقير حالا ، أو مقاما ، ما لم يتحقق به ، وليس هو له ، أو : ينسب حكمة أو علما رفيعا لنفسه ، وهو لغيره ، ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ. وقوله : فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ .. :

إخوان الدين أولى ، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري : وقرابة الدين ، فى الشكلية ، أولى من قرابة النّسب ، وأنشدوا :

وقالوا : قريب من أب وعمومة فقلت : وإخوان الصّفاء الأقارب

مناسبهم شكلا وعلما وألفة وإن باعدتنا فى الأصول التّناسب «١»

---

(١) فى القشيري : (و إن باعدتهم فى الأصول المناسب) والبيتان لأبى تمام ، يرثى غالب بن السعدي. انظر ديوانه (٤/ ٤١) ونهاية الأرب (٥/ ٢٠٢).

ثم ذكر أبوة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأمومة أزواجه لجميع أمته ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٦]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٦)

يقول الحق جل جلاله : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ أي : أحق بهم فى كل شىء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ عليهم مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فإنه لا يأمرهم ، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم ، فيجب عليهم أن يبذلوها دونه. ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء : يعنى : (إذا دعاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى شىء ، ودعتهم أنفسهم إلى شىء ، كانت طاعة النبي صلى اللّه عليه وسلم أولى) «١». أو : هو أولى بهم ، أي : أرأف ، وأعطف عليهم ، وأنفع لهم ، كقوله : بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٢» وفى الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فأيّما مؤمن هلك ، وترك مالا فلورثته ما كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى ، فإنى أنا مولاه». «٣».

وفى قراءة ابن مسعود «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». وقال مجاهد : كل نبى أبو أمته ، ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم أبوهم فى الدين ، وأزواجه أمهاتهم ، فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن ، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات ، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن.

وَأُولُوا الْأَرْحامِ أي : ذوو الق رابات بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فى المواريث. وكان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة ، لا بالقرابة ، ثم نسخ ، وجعل التوارث بالقرابة. وذلك فِي كِتابِ اللَّهِ أي : فى حكم اللّه وقضائه ، أو : فى اللوح المحفوظ ، أو : فيما فرض اللّه ، فهم أولى بالميراث ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بحق الولاية فى الدين ، وَمن الْمُهاجِرِينَ بحق الهجرة. وهذا هو الناسخ. قال قتادة : كان المسلمون

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣١٨).

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاستقراض ، باب الصلاة على ترك دينا ، ح ٢٣٩٩) ، ومسلم فى (الفرائض ، باب من ترك مالا فلورثته ، ٣/ ١٢٣٨ ، ح ١٦١٩) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٩

يتوارثون بالهجرة ، ولا يرث الأعرابى المسلم من المهاجر شيئا ، فنزلت. وقال الكلبي : آخى النبىّ

صلى اللّه عليه وسلم بين الناس ، فكان يواخى بين الرجلين ، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر ، دون عصبته ، حتى نزلت : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ «١» فى حكمه ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ. ويجوز أن يكون مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : بيانا لأولى الأرحام ، أي : وأولو الأرحام ، من هؤلاء ، بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب ، إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً أي : لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفا ، وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء ، فيكون له ذلك بالوصية ، لا بالميراث فالاستثناء منقطع. وعدّى (تفعلوا) بإلى لأنه فى معنى تسندوا ، والمراد بالأولياء :

المؤمنون ، والمهاجرون : المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. كانَ ذلِكَ أي : التوارث بالأرحام فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أي : اللوح المحفوظ ، أو : القرآن. وقيل : فى التوراة.

الإشارة : متابعته – عليه الصلاة والسلام ، والاقتباس من أنواره ، والاهتداء بهديه ، وإيثار محبته ، وأمره على غيره لا ينقطع عن المريد أبدا ، بداية ونهاية إذ هو الواسطة العظمى ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى يده ، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك فى تربية المريدين ، فهو جزء من الذي جاء به. وهم فى ذلك بحسب النيابة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهى معجزة له صلى اللّه عليه وسلم ، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره صلى اللّه عليه وسلم ، قال ابن العربي الحاتمي رضي اللّه عنه : اعلم أن كل وليّ للّه تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فمنهم من يعرف ذلك ، ومنهم من لا يعرفه ، ويقول : قال لى اللّه ، وليس إلا تلك الروحانية. هـ. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه ، حيث قال : الوليّ إنما يكاشف بالمثال ، كما يرى مثلا البدر فى الماء بواسطته ، وكذلك الحقائق الغيبية ، والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة فى بصيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وله عيانا لا مثالا. والوليّ لقربه منه ومناسبته له لهديه بهديه ، ومتابعته له يكاشف بمثال ذلك فيه ، فظهر الفرق وثبتت مزية النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوخنا سيدى «عبد الرحمن العارف».

قال القشيري : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ الإشارة : تقديم سنّته على هواك ، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به مناك ، وإيثار من تتوسل به نسبا وسببا على أعزّتك ومن والاك ، وَأُولُوا الْأَرْحامِ .. الآية. ليكن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٨).

الأجانب منك على جانب ، ولتكن صلتك للأقارب وصلة الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار ، وليكن بموافقة القلوب ، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب.

أرواحنا فى مكان واحد ، وإن كانت أشباحنا بشآم أو خراسان «١». هـ.

ولمّا كان كل نبى أبا لأمته ، أخذ عليهم العهد فى إرشادهم ، ونصحهم ، كما ينصح الأب ابنه ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٧ الى ٨]

وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ أَخَذْنا حين أخذنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ بتبليغ الرسالة ، والدعاء إلى الدين القيم ، وإرشاد العباد ونصحهم. قيل : أخذه عليهم فى عالم الذر. قال أبىّ بن كعب : لما أخرج اللّه الذرية ، كانت الأنبياء فيهم مثل السرج ، عليهم النور ، فخصوا بميثاق وأخذ الرسالة والنبوة. وقال القشيري : أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم ، عوند بعثة كل رسول ، ونبوّة كل نبىّ ، أخذ ميثاقه ، وذلك على لسان جبريل عليه السّلام ، ومن اختصه بإسماعه كلامه بلا واسطة ملك – كنبينا ليلة المعراج ، وموسى – عليهما السلام – فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة ، وكان لنبينا – عليه الصلاة السلام – زيادة حال بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ المواثيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم. هـ.

قال فى الحاشية : والذي يظهر : أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا بوحي ، وذلك فى الغيب ، ولذلك قدّم نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنه النور الأول قبل آدم ، ثم انتقل إلى ظهره ، وحينئذ ، فأخذ الميثاق هنا غيبى ، ولذلك قدّمه. وفى قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ... «٢» فى عالم الظهور ، فلذلك قدّم نوحا ، وثنّى بنبينا لأن نوحا أول أولى العزم ، ونبينا خاتمهم. واللّه أعلم. هـ. والحاصل : أن أخذ الميثاق كان مرتين فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أو الثاني؟ قولان.

---

(١) البيت لأبى تمام ، يمدح سليمان بن وهب. انظر ديوان أبى تمام (٣/ ٣٣٥) ، وتاريخ بغداد (١٠/ ٩٧) وفيهما :

أرواحنا فى مكان واحد ، وغدت ... إلخ.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، قال النسفي : وقدّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم ، وأصحاب الشرائع ، فلمّا كان نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم أفضل هؤلاء قدّم عليهم ، ولو لا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه. هـ. وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً وثيقا. وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك لِيَسْئَلَ اللّه الصَّادِقِينَ أي : الأنبياء عَنْ صِدْقِهِمْ عما قالوه لقومهم ، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبكيت للكفار ، كقوله : فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «١» ، أو : ليسأل المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم : هل كان بإخلاص أم لا؟ لأن من قال للصادق : صدقت كان صادقا فى قوله. أو : ليسأل الأنبياء : ما الذي أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ «٢» ، وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ بالرسل عَذاباً أَلِيماً ، وهو عطف على «أخذنا» لأن المعنى : أن اللّه تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ، وأعدّ للكافرين عذابا أليما. أو : على ما دلّ عليه : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ ، كأنه قال : فأثاب المؤمنين ، وأعدّ للكافرين عذابا أليما.

الإشارة : كما أخذ اللّه الميثاق على الأنبياء والرسل أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء فعلى تبيين الشرائع وتغيير المناكر ، وألا تأخذهم فى اللّه لومة لائم ، وأما أخذه على الأولياء فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة اللّه ، وتربية من تعلق بهم ، وسياسة الخلق ، ودلالتهم على الحق ، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب.

قال القشيري : فلكلّ من الأولياء والأكابر حال ، على ما يؤهلهم له قال صلى اللّه عليه وسلم : «لقد كان فى الأمم محدّثون ، وإن يكن فى أمتى فعمر» ، وغير عمر مشارك لعمر فى خواص كثيرة ، وذلك سر بينهم وبين ربّهم.

ثم قال : قوله تعالى : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ سؤال تشريف لا تعنيف ، وإيجاب لا عتاب. والصدق : ألا يكون فى أحوالك شوب ، ولا فى اعتقادك ريب ، ولا فى عملك عيب ، ويقال : من أمارات الصدق فى المعاملة : وجود الإخلاص من غير ملاحظة ، وفى الأحوال : تصفيتها [من غير مداخلة الحجاب] «٣» ، وفى القول :

سلامته من المعاريض ، [فيما بينك وبين نفسك] «٤». وفيما بينك وبين الناس : تباعد من التلبيس والتدليس ، وفيما

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري فى (فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر ، ح ٣٦٨٩) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر ٤/ ٨١٦٤ ، ح ٢٣٩٨).

(٣) فى القشيري [من غير مداخلة إعجاب].
(٤) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته من القشيري ، وهو ضرورى يقتضيه السياق.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤١٢
بينك وبين اللّه : إدامة التبرّى من الحول والقوة ، ومواصلة الاستقامة ، وحفظ العهود معه على الدوام.
وفى التوكل :
عدم الانزعاج عند الفقد ، وزوال البشر [بالوجد] «١» ، وفى الأمر بالمعروف : التحرّز من تخلل المداهنة ، قليلها وكثيرها ، وألّا يترك ذلك لفزع ولا طمع ، ولكن تشرب مما تسقى ، وتتصف بما تأمر ، وتنتهى عما تزجر. ويقال :
الصدق : أن يهتدى إليك كلّ أحد ، ويكون عليك ، فيما تقول وتضمر ، اعتماد. ويقال : الصدق : ألا تجنح إلى التأويلات. انتهى كلام القشيري.
ثم شرع فى غزوة الأحزاب ، التي هى المقصودة من السورة ، فقال :
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٩ الى ١١]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، أي : ما أنعم اللّه به عليكم يوم الأحزاب ، وهو يوم الخندق ، وكان بعد حرب أحد بسنة. إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ أي : الأحزاب ، وهم : قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة والنضير ، وهم السبب فى إتيانهم ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً أي : الصّبا ، قال عليه الصلاة والسلام : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢». قيل : كانت هذه الريح معجزة لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها ، ولم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها. وَلا شعور لهم بها.
وأرسلنا عليهم جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وهم الملائكة ، وكانوا ألفا ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور.
وكان سبب غزوة الأحزاب : أن نفرا من اليهود ، منهم ابن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فى نفر من بنى النضير ، لمّا أجلاهم النبىّ صلى اللّه عليه وسلم من بلدهم ، قدموا مكة فحرّضوا قريشا على حرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم خرجوا إلى غطفان ، وأشجع ، وفزارة ، وقبائل من العرب ،

يحرضونهم على ذلك ، على أن يعطوهم نصف تمر خيبر كل

---

(١) فى القشيري [بالوجود]. [.....]

(٢) سبق تخريج الحديث عن تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم. فراجعه إن شئت ، أكرمك اللّه.

سنة. فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان ، وخرجت غطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف فى مرة ، وسعد بن رخيلة «١» فى أشجع ، وعامر بن الطفيل فى هوازن.

فلما سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم بهم ، ضرب الخندق على المدينة ، برأى سلمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو يومئذ حر. وقال : يا رسول اللّه : إنا كنّا بفارس إذا حوصرنا : خندقنا علينا ، فحفر الخندق ، وباشر الحفر معهم بيده صلى اللّه عليه وسلم. فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من الجرف والغابة ، فى عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنب نقمى ، إلى جانب أحد. فخرج النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع ، فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا فى الآطام «٢».

واشتد الخوف ، فأقام النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأقام المشركون ، بضعا وعشرين ليلة ، ولم يكن حرب غير الرمي بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما ، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإشهاد ، فاستشار النبي صلى اللّه عليه وسلم سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فقال سعد بن معاذ : أشيء أمرك اللّه به ، لا بدّ لنا من العمل به ، أم شيء تحبه فنصنعه ، أم شيء تصنعه لنا؟

قال : «لا ، بل شيء أصنعه لكم ، أردت أن أكسر عنكم شوكتهم». فقال سعد : يا رسول اللّه لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد اللّه ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة ، إلا قرى ، أو شراء ، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام ، وأعزّنا بك ، نعطيهم أموالنا! لا نعطيهم إلا السيف. فقال – عليه الصلاة والسلام : «فأنت وذاك» ، فمحا سعد ما فى الكتاب ، وقال : ليجهدوا علينا»

.

ثم إن اللّه تعالى بعث عليهم ريحا باردة ، فى ليلة شاتية ، فأحصرتهم ، وأحثت التراب فى وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأكفأت القدور ، وأطفأت النيران ، وجالت الخيل

بعضها فى بعض.
وأرسل اللّه تعالى عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم ، حتى كان سيد كل خباء يقول : يا بنى فلان ، هلمّوا ، فإذا اجتمعوا إليه قال : النّجا ، أوتيتم. فانهزموا من غير قتال.
وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً ، أي : بصيرا بعملكم ، من حفر الخندق ، ومعاونة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والثبات معه ، فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو : بالغيب ، أي : بما يعمل الكفار من البغي ، والسعى فى إطفاء نور اللّه ،

---

(١) فى تفسير البغوى [مسعود بن رخيلة].
(٢) الآطام : الحصون. جمع أطم. انظر اللسان (أطم ١/ ٩٣).
(٣) انظر : السيرة لابن هشام (٣/ ٢٢٥).

إِذْ جاؤُكُمْ هو بدل من : (إذ جاءتكم) ، مِنْ فَوْقِكُمْ من أعلى الوادي ، من قبل المشرق. وهم بنو غطفان.
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وهم قريش. وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا. أو : مالت إلى عدوها لشدة الخوف ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ رعبا.
والحنجرة : رأس الغلصمة ، وهى منتهى الحلقوم ، الذي هو مدخل الطعام والشراب. قالوا : إذا انتفخت الرئة ، من شدة الفزع والغضب ، ربت ، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل : هو مثل فى اضطراب القلوب ، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.
روى أن المسلمين قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل من شيء نقوله ، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال : «نعم ، قولوا :
اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا» «١».
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف منهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء ، المخلصون ، الثبت القلوب أن ينجز اللّه وعده فى إعلاء دينه ، ويمتحنهم ، فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا ما حكى عنهم ، وهم الذين زاغت أبصارهم ، وبلغت قلوبهم الحناجر ، دون الأقوياء رضى اللّه عنهم ، وقرأ أبو عمرو وحمزة : الظنون بغير ألف ، وهو القياس. وبالألف فيهما : نافع ، والشامي ، وشعبة إجراء للوصل مجرى الوقف. والمكىّ ، وعلىّ ،

وحفص : بالألف فى الوقف. ومثله : الرَّسُولَا «٢» و(السبيلا) «٣» ، زادوها فى الفاصلة ، كما زادوها فى القافية ، كقوله :

«أقلّى اللّوم ، عاذل والعتابا» «٤» وهو فى الإمام : بالألف.

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ أي : اختبروا ، فظهر المخلص من المنافق ، والثابت من المزلزل ، وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً وحركوا ، بالخوف ، تحريكا شديدا.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص اذكروا نعمة اللّه عليكم بالتأييد والنصر ، فحين توجّهتم إلىّ ، ودخلتم فى طريق ولايتي ، رفضتكم الناس ، ونكرتكم ، ورمتكم عن قوس واحدة ، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣) عن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسي (٥/ ٤٦٨ – ٤٦٩).

(٤) صدر بيت لجرير ، وعجزه : وقولى – إن أصبت – لقد أصابا. انظر : معانى القرآن للزجاج (٤/ ٢١٨).

من كل جانب ، حتى هممتم بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار : مالت عن قصدها بالاهتمام بالرجوع ، وبلغت القلوب الحناجر ، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين ، وتظنون باللّه الظنونا ، فمنهم من يظن الامتكان بعد الامتحان ، فيفرحون بالبلاء ، ومنهم من يظن أنه عقوبة ... إلى غير ذلك ، هنالك ابتلى المؤمنون المتوجهون ليظهر الصادق ، فى الطلب ، من الكاذب فيه ، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، ويظهر الخوّافون من الشجعان ، وزلزلوا زلزالا شديدا ليتخلصوا ويتمحصوا ، كما يتخلص الذهب والفضة من النحاس ، ومن عرف ما قصد هان عليه ما ترك.

قال القشيري : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. يعنى : بمقابلتها بالشكر ، وتذكّر ما سلف من الذي دفع عنك ، يهون عليك مقاساة البلاء فى الحال. وبذكرك لما أولاك فى الماضي يقرب من الثقة بوصول ما تؤمّله فى الاستقبال. فمن جملة ما ذكّرهم قوله : إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ... الآية : كم بلاء صرفه عن العبد وهو لا يشعر ، وكم شغل كنت بصدده ، فصده عنك ولم تعلم ، وكم أمر صرفه ، والعبد يضج ، وهو – سبحانه – يعلم أن فى تيسيره هلاكه ، فيمنعه منه رحمة عليه ، والعبد يتهمه

ويضيق به صدره!. هـ.

ثم ذكر سبحانه نتيجة الابتلاء ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : عطف تفسير إذ هو وصف المنافقين ، كقول الشاعر :

إلى الملك القرم ، وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

فابن الهمام هو القرم ، والقرم – بالراء – : السيد. وقيل : الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، هم الذين لا بصيرة بهم فى الدين من المسلمين ، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشّبه عليهم ، قالوا ، عند شدة الخوف : ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

(٤/٤١٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤١٦

روى أن معتّب بن قشير ، المنافق ، حين رأى الأحزاب قال : إن محمدا يعدنا فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز ، خوفا ، ما هذا إلا وعد غرور. هـ.

وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ من المنافقين ، وهم عبد اللّه بن أبىّ وأصحابه : يا أَهْلَ يَثْرِبَ ، وهم أهل المدينة ، لا مُقامَ لَكُمْ «١» أي : لا قرار لكم هنا ، ولا مكان تقيمون فيه – وقرأ حفص : بضم الميم – اسم مكان ، أو مصدر ، فَارْجِعُوا من عسكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة هاربين ، أو : إلى الكفر ، فيمكنكم المقام بها ، أو :

لا مقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى الشرك وأظهروا الإسلام لتسلموا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ أي : بنو حارثة ، يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ : ذات عورة ، أي : خالية غير حصينة ، وهى مما يلى العدو. وأصلها :

الخلل. وقرأ ابن عباس بكسر الواو : (عورة) ، يعنى : قصيرة الجدران ، فيها خلل. تقول العرب : دار فلان عورة إذا لم تكن حصينة ، وعور المكان : إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق ، ويجوز أن يكون عورة : تخفيف عورة.

اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والسارق لأنها غير محصنة ، فاستأذنوا ليحصنوها ثم يرجعوا إليه ، فأكذبهم اللّه تعالى بقوله : وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، بل هى حصينة ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً من القتل.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مدينتهم ، أو : بيوتهم. من قولك : دخلت على فلان داره. مِنْ أَقْطارِها من جوانبها ، أي : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة – التي يفرون خوفا منها – مدينتهم ، أو بيوتهم ، من نواحيها كلها ناهبين سارقين ، ثُمَّ سُئِلُوا عند ذلك الفزع ، الْفِتْنَةَ أي : الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ، أو : القتال فى العصبية ، وهو أحسن لأنهم مسلمون ، لَآتَوْها «٢» لجاءوها وفعلوا. ومن قرأ بالمد فمعناه : لأعطوها من أنفسهم ، وَما تَلَبَّثُوا بِها بإجابتها وإعطائها ، أي : ما احتبسوا عنها إِلَّا يَسِيراً ، أو :

ما لبثوا بالمدينة ، بعد ارتدادهم ، إلا زمانا يسيرا ، ثم يهلكهم اللّه لأن المدينة كالكير تنفى خبثها ، وينصع طيبها ، والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم رعبا ، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو سألوهم أن يقاتلوا فتنة وعصبية لأجابوهم ، وما تعللوا بشىء ، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم ، والعياذ باللّه.

الإشارة : وإذ قالت طائفة من شيوخ التربية لأهل الفناء : لا مقام تقفون معه إذ قد قطعتم المقامات ، حين تحققتم بمقام الفناء ، فارجعوا إلى البقاء لتقوموا بآداب العبودية ، وتنزلون فى المقامات ثم ترحلون عنها ، كما

---

(١) أثبت المفسر – رحمة اللّه – قراءة (مقام) بفتح الميم ، وهى قراءة الجمهور. وقرأ حفص (مقام) بضم الميم. انظر : الحجة للفارسى (٥/ ٤٧١).

(٢) قرأ نافع وابن كثير : (لأتوها) بالقصر ، وقرأ الباقون : بالمد .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٧٢).

تنزل الشمس فى بروجها ، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضى النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضى التوبة ، وتارة ما يقتضى الخوف والهيبة ، أي : خوف القطيعة ، وتارة ما يقتضى الرجاء والبسط ، وتارة ما يقتضى الشكر ، وتارة الصبر ، وتارة ما يقتضى الرضا والتسليم ، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل فى المقامات ويرحل عنها ، ولا يقيم فى شىء منها. ويستأذن بعض المريدين فى الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام ، أو شىء من أمور البدايات ، يقولون : إن بيوت تلك المقامات لم نتقنها ، بل فيها عورة وخلل ، وما هى بعورة ، ما يريدون إلا فرارا من ثقل أعباء الحضرة.

ولو دخلت بيوت قلوبهم من أقطارها ، ثم سئلوا الرجوع إلى الدنيا لأتوها لأنها قريبة عهد بتركها ، وما تلبثوا بها إلا زمانا يسيرا ، بل يبغتهم الموت ، ويندمون ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى.

وقد كانوا عاهدوا اللّه ألّا يرجعوا إليها ، كما قال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٥ الى ١٧]

وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ أي : قبل غزوة الخندق ، وهو يوم أحد.

والضمير فى «كانوا» : لبنى حارثة ، عاهدوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد ، حين فشلوا ، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله ، وقالوا : لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ منهزمين أبدا ، وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا عن الوفاء به ، مجازى عليه ، أو :

مطلوبا مقتضى حتى يوفى به. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنفه ، أو : قتل فى وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أي : إن حضر أجلكم له ينفعكم الفرار ، وإن لم يحضر ، وفررتم ، لن تمتعوا فى الدنيا إلا زمانا قليلا ، وهو مدة أعماركم ، وهو قليل بالنسبة إلى ما بعد الموت الذي لا انقضاء له.

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ أي : يمنعكم مما أراد اللّه إنزاله بكم إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً فى أنفسكم من قتل أو غيره ، أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً أي : أراد بكم إطالة عمر فى عافية وسلامة. أو : من يمنع اللّه

من أن يرحمكم ، إن أراد بكم رحمة ، فحذف بعدا واختصارا ، لما فى العصمة من معنى المنع ، أو : من ذا الذي يعصمكم إن أراد بكم سوءا ، أو يصيبكم بسوء ، إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام. وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ينفعهم ، وَلا نَصِيراً يدفع العذاب عنهم.

الإشارة : ولقد كان عاهد اللّه من دخل فى طريق القوم ، ألّا يولى الأدبار ، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير ، وكان عهد اللّه مسئولا ، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرادة ، ولما ذا حرم نفسه من لذيذ المشاهدة؟ قل – لمن رجع ، ولم يقدر على مجاهدة نفسه : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم ، أو القتل بمجاهدتها وتجميلها بعكس مرادها ، وتحميلها ما يثقل عليها ، وإذا لا تمتعون إلا قليلا ، ثم ترحلون إلى اللّه ، فى غم الحجاب وسوء الحساب. قل : من ذا

الذي يعصمكم من اللّه ، إن أراد بكم سوءا؟ ، وهو البعد والطرد ، أو : من يمنعكم من رحمته ، إن أراد بكم رحمة؟ ، وهى التقريب إلى حضرته ، فلا أحد يعصمكم من إبعاده ، ولا أحد يمنعكم من إحسانه إذ لا وليّ ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين ، وارحمنا برحمتك الخاصة ، حتى تقرّبنا إلى حضرتك ، بفضل منك وجودك ، يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر نعوت أهل البعد ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٨ الى ١٩]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩)

يقول الحق جل جلاله : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ أي : يعلم من يعوّق عن نصرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويمنع ، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو ، وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ فى الظاهر من ساكنى المدينة من المسلمين : هَلُمَّ إِلَيْنا تعالوا إلينا ، ودعوا محمدا. ولغة أهل الحجاز فى «هلم» : أنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون : هلم يا رجل ، وهلموا يا رجال .. وهكذا. وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ الحرب

إِلَّا قَلِيلًا إلا إتيانا قليلا ، أو يحضرون ساعة رياء ، ويقفون قليلا ، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ جمع شحيح ، وهو البخيل ، نصب على الحال من ضمير يَأْتُونَ أي : لا يأتون الحرب بخلا عليكم بالمعاونة أو بالنفقة فى سبيل اللّه ، أو : فى الظفر والغنيمة ، أي : عند الظفر وقسم الغنيمة. فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ من قبل العدو ، أو : منه صلى اللّه عليه وسلم ، رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فى تلك الحالة ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ يمينا وشمالا كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولواذا بك.

فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ أي : زال ذلك الخوف وأمنوا ، وحيزت الغنائم سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ خاطبوكم مخاطبة شديدة ، وآذوكم بالكلام ، يقال : خطيب سلق : فصيح ، ورجل مسلق وسلّاق : مبالغ فى الكلام. يعنى : بسطوا ألسنتهم فيكم ، وقت قسم الغنيمة ، ويقولون : أعطنا ، أعطنا فإنا قد شهدنا معكم ، وبمكاننا غلبتم عدوكم. أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أي : خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة. فهو حال

من فاعل سلقوكم ، فهم أشح القوم عند القسم ، وأجبنهم عند الحرب ، أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فى الحقيقة ، بل بالألسنة فقط ، فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ أبطلها ، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة ، وَكانَ ذلِكَ الإحباط عَلَى اللَّهِ يَسِيراً هينا.

الإشارة : هذه صفة منافقى الصوفية ، يدخلون معهم على تذبذب ، فإذا رأوا قوما توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب ظواهرهم ، أو : أرادوا الخروج عن دنياهم عوّقوهم عن ذلك ، وثبطوهم ، وكذلك إذا توجهوا فى سفر لشقة بعيدة عوقوهم ليستتروا بهم ، وقالوا لإخوانهم فى الطريق : هلم إلينا ، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلا. أشحة بأنفسهم عليكم ، فإذا جاء الخوف ، وتجلى لهم الحق تعالى باسمه الجليل بأن نزلت بالفقراء محنة ، رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم ، نظر المغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف ، وجاء النصر والعز سلقوكم بألسنة حداد ، وقالوا : إنا كنا معكم ، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. واللّه تعالى أعلم.

ثم تمم وصفهم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٢٠]

يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٠

يقول الحق جل جلاله : يَحْسَبُونَ أي : هؤلاء المنافقون الْأَحْزابَ ، يعنى : قريشا وغطفان ، الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أي : اجتمعوا ، أنهم لَمْ يَذْهَبُوا ولم ينصرفوا لشدة جبنهم ، مع أنهم انصرفوا. وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ كرة ثانية يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ ، والبادون : جمع باد ، أي : يتمنى المنافقون – لجبنهم – أنهم خارجون من المدينة إلى البادية ، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب ، يَسْئَلُونَ كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ يساءلون «١» ، بالشد. أي : يتساءلون ، بعضهم بعضا عَنْ أَنْبائِكُمْ عن أخباركم وعما جرى عليكم ، وَلَوْ كانُوا أي :

هؤلاء المنافقون فِيكُمْ أي : حاضرون فى عسكركم ، وحضر قتال ، ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا رياء وسمعة ، ولو كان اللّه لكان كثيرا إذ لا يقل عمل للّه.

الإشارة : الجبان يخاف والناس آمنون ، والشجاع يأمن والناس خائفون ، ولا ينال من طريق القوم شيئا جبان ولا مستحى ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء : أنهم ، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة – كما

امتحن الجنيد وأصحابه – يتمنون أنهم خارجون عنهم ، وربما خرجوا بالفعل ، وإن ذهبت شوكتهم يحسبون أنهم لم يذهبوا لشدة جزعهم.

ومن أوصافهم : أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم ، والبحث عما جرى بهم خوفا وجزعا ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم من أهل القوة ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢١ الى ٢٤]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤)

---

(١) وهى قراءة رويس ، ورويت عن زيد بن على ، وقتادة ، وغيرهما. انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢١

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ محمد صلى اللّه عليه وسلم أُسْوَةٌ «١» حَسَنَةٌ خصلة حسنة ، من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ، ومقاساة الشدائد ، ومباشرة القتال. أو : فى نفسه قدوة يحسن التأسى به. كما تقول : فى البيضة عشرون رطلا من حديد ، أي : هى فى نفسها عشرون. وفيه لغتان : الضم والكسر ، كالعدوة والعدوة ، والرشوة والرشوة. وهى لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ أي : يخاف اللّه ويخاف اليوم الآخر ، أو : لأجل ثواب اللّه ونعيم اليوم الآخر. و«لمن» : قيل : بدل من ضمير «لكم» ، وفيه ضعف إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما دل على الإحاطة. وقيل : يتعلق بحسنة ، أي : أسوة حسنة كائنة لمن آمن ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً أي : فى الخوف والرجاء ، والشدة والرخاء ، فإن المؤتسى بالرسول يكون كذلك.

وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قد أقبلوا عليهم ليستأصلوهم ، وقد وعدهم اللّه أن يسلط عليهم المحن ، ويزلزلوا حتى يستغيثوا ويستنصروا بقوله : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ .. إلى قوله : نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ «٢» ، فلما جاء الأحزاب واضطربوا قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وعلموا أن الجنة والنصرة قد وجبت لهم. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه

أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : «إنّ الأحزاب سائرون إليكم فى آخر تسع ليال ، أو عشر» ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد ، قالوا ذلك «٣». وهذا : إشارة إلى الخطب والبلاء ، أي : هذا الخطب الذي وعدنا اللّه ورسوله ، وصدق اللّه ورسوله ، وَما زادَهُمْ ، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم ، إِلَّا إيماناً باللّه وبمواعيده ، وَتَسْلِيماً لقضائه وأقداره.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

أي : صدقوا فيما عاهدوه ، فحذف الجار ، وأوصل المفعول إلى «ما» وذلك أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثبتوا ، وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ، ومصعب ، وأنس بن النضر ، وغيرهم. فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ، ومصعب ، وأنس بن النضر. والنّحب : النذر ، واستعير للموت لأن كل حى من المحدثات لا بد له أن يموت ، فكأنه نذر لازم فى رقبته ، فإذا مات فقد قضى نحبه ، أي :

نذره. وقال فى الصحاح : النحب : النذر ، ثم قال : والنّحب : المدة والوقت. يقال : قضى فلان نحبه إذا مات. هـ. فهو

---

(١) قرأ عاصم (أسوة) بضم الهمزة ، حيث كان ، وهى لغة قيس وتميم ، وقرأ الباقون بكسرها حيث وقعت. وهى لغة الحجاز.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٣).

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ، فى الكافي الشاف (ص ١٣٣ ، رقم ٢٠٨) : لم أجده. [.....]

لفظ مشترك بين النذر والموت. وصحح ابن عطية أن النحب الذي فى الآية ليس من شرطه الموت. بل معناه :

قضى نذره الذي عاهد اللّه عليه من نصرة الدين ، سواء قتل أو بقي حيّا. بدليل قوله – عليه الصلاة والسلام – فى طلحة : «هذا ممن قضى نحبه» «١» هـ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أي : الموت على الشهادة كعثمان وطلحة ، وَما بَدَّلُوا العهد تَبْدِيلًا ولا غيّروه ، لا المستشهد ، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمن بدّل من أهل النفاق ، كقوله تعالى فيما مر : وَلَقَدْ

كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ ... «٢». لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ بوفائهم بالعهد ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ إذا لم يتوبوا ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إن تابوا إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً بقبول التوبة ، رَحِيماً بعفو الحوبة.

الإشارة : قد تقدم ما يتعلق بالاقتداء بالرسول – عليه الصلاة والسلام – والاهتداء بهديه ، وأنه منهاج الأكابر.

وقوله تعالى : وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ ... الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة ، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيمانا وتسليما ، ويقينا وطمأنينة ، وتحققوا بصحة الطريق إذ هو منهاج السائرين والأولياء الصادقين ، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ «٣» الآية. وتقدم فى إشاراتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم : نحن كالنجوم ، كلما اشتدت الظلمة قوّى نورنا. وقال القشيري : كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء ، فالمؤمنون وأهل اليقين زادوا ثقة ، وعلى الأعداء جرأة ، ولحكم اللّه استسلاما ، وفى اللّه قوة. ثم قال : قوله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا .... الآية ، شكر صنيعهم فى المراس ، ومدح يقينهم عند شهود الناس ، وسماهم رجالا إثباتا لهم بالخصوصية فى الرتبة ، وتمييزا لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحالة ، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه ، ومنهم من ينتظر حكم اللّه فى الحياة والممات ، وحقيقة الصدق : حفظ العهد وترك مجاوزة الحدّ. ويقال : استواء السّرّ والجهر. ويقال : هو الثبات عند ما يكون الأمر جدّا.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (المناقب ، مناقب طلحة بن عبيد اللّه ٥/ ٦٠٢ ، ح ٣٧٤٠) وابن ماجة فى (المقدمة : باب فى فضائل أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ١/ ٤٦ ، ح ١٢٦). من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ١٥ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية الثانية من سورة العنكبوت.